في
تاريخ الشرق الأدنى القديم
مصر وسورية القديمة

دكتور
أحمد أمين سليم

في

تاريخ الشرق الأدنى القديم

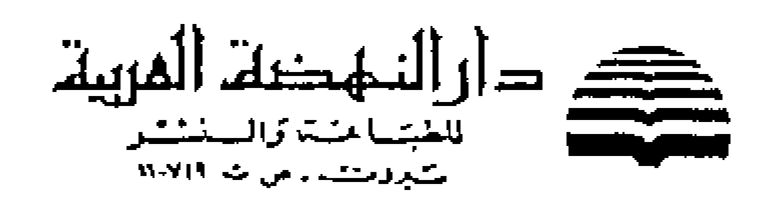
مصر - سورية القديمة

دكتور

أحمد أمين سليم

أستاذ التاريخ القديم المساعد

بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية وبيروت العربية



١٩٨٩

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية كريدية، تلفون: ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً: دانهضة، ص.ب ٧٤٩-١١
تلكس: NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣، غربي الجامعة العربية، تلفون: ٣١٦٢٠٢

* المستودع: بئر حسن، تلفون: ٨٣٣١٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يمثل تاريخ مصر وسورية القديم دوراً هاماً وكبيراً في التـاريخ الإنسـاني في العصور القديمة وكان لهذا الدور أهميته العظمى في التأثير على سيـاسات العـالم آنذاك، فقـدتكونت في ذلـك الـوقت في منـطقـة الشـرق القـديم دول وامبـراطوريـات،كانت الأمبراطوريـة المصريـة إحداهـا، وكانت عـوامل الشـد والجـذب بين هذه الـدول سبباً في قيـام الحروب بينهـا حيناً، وعـلاقات الـود أحياناً، ولقد قامت الدويلات التي ظهرت في منطقة سورية بدور كبيـر في هذا الصراع كما قاست منه وعانت منه أشد المعانـاة، وكان من العـوامل التي أدت إلى عدم وجود دولة قوية تنظم الإقليم السوري كله. ومع ذلك فقد كان لبعض هذه الدول دور سياسي وحضاري بارز في منطقة الشرق الأدنى القديم.

ويتناول هذا المؤلف دراسة المعالم الرئيسية لتـاريخ مصـر القديم وكـذا تاريخ سورية القديم، وهو يتكـون من بابين رئيسيين، تنـاولت في البـاب الأول منهما دراسة تاريخ مصر القديم، وفي الباب الثاني تاريخ سورية القديم.

ويتناول الباب الأول ثمانية فصول رئيسيـة، خصص الفصل الأول منهـا لـدراسة المصـادر التي يعتمد عليهـا المؤرخ في دراسته لتـاريخ مصـر القـديم والتي تتكون في مجملها من مصادر أثرية وما كتبه المؤرخون والرحالـة اليونـان والرومان، وما سجلته المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، وما ورد في الكتب المقدسة ويتصل بتاريخ مصر القديم.

ويتناول الفصل الثاني دراسة لعصر الأسرتين الأولى والثانية الفرعونيتين والذي يطلق عليه عصر التأسيس أو عصر بداية الأسرات المصرية أو العصر العتيق وفيه تأسست التقاليد الملكية المصرية ونضجت الحضارة المصرية.

ويتصل الفصل الثالث بتاريخ مصر أثناء عصر الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرام وهو العصر الذي يتميز من الناحية الحضارية ببناء أهرام مصر الضخمة في عصر الأسرة الرابعة ومن الناحية السياسية فإنه يمثل قوة وعنفوان الملكية الإلهية، ويتكون هذا العصر من أربع أسرات هي الأسرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، وفي نهايته دخلت مصر في مرحلة من الفوضى السياسية.

ويتناول الفصل الرابع عصر الثورة الاجتماعية الأولى والذي يطلق عليه بعض الباحثين عصر الإضمحلال الأول أو الفوضى الأولى وذلك لانهيار السلطة المركزية السياسية خلاله، وإن كان من الناحية الفكرية يطلق عليه عصر فجر الضمير، وهو يتكون من الأسرات السابعة وحتى منتصف الأسرة الحادية عشرة.

ويتناول الفصل الخامس تاريخ مصر في عصر الدولة الوسطى، حيث تمكنت مصر من النهوض من كبوتها السياسية وتمكنت بفضل ملوك الأسرة الثانية عشرة من التقدم والازدهار وكان لهذا العصر طابعه المميز من ناحية الاهتمام بمشاريع الري والعلاقة مع حكام الأقاليم وكذلك بضم النوبة إلى مصر.

وفي الفصل السادس، تناولت تاريخ مصر خلال عصر الانتقال الثاني أو الضعف الثاني، حيث منيت مصر خلاله باحتلال جزء من أراضيها بواسطة الهكسوس، وتمكن المصريون قرب نهاية هذه المرحلة من تحرير بلادهم، حيث دخلت مصر عصراً جديداً من عصور الازدهار والقوة في المجالين الداخلي والخارجي.

ويتناول الفصل السابع دراسة تاريخ مصر القديم خلال عصر الدولة الحديثة، حيث اتجه فراعنة مصر حلال هذا العصر إلى تكوين الأمبراطورية المصرية في آسيا، والتي كانت في أساسها وجوهرها أمبراطورية دفاعية الهدف منها الدفاع عن حدود مصر على أن يكون خط الدفاع الأول في سوريا، وبعد عصر الدولة الحديثة دخلت مصر في آخر مراحل تاريخها وهو عصر الانتقال الثالث وبنهايته دخلت مصر مرحلة جديدة في تاريخها بدخول الإسكندر الأكبر ودخول مصر إلى العصر البطلمي.

ويتصل الباب الثاني، تاريخ سورية القديم، وهو يتضمن مقدمة تمهيدية وثلاثة فصول رئيسية، ولقد تناولت في المقدمة المقصود بتسمية سورية في العصور القديمة ومدلول الاسم وتطوره والعوامل المتعددة التي أثرت في تاريخ سورية القديم.

وفي الفصل الأول تناولت العوامل الجغرافية المتعددة التي أثرت في تاريخ سورية القديم، والتي كان لها أكبر الأثر في التشكيل السياسي والحضاري لهذه المنطقة، وتناولت كذلك سكان سورية الرئيسيين والذين كانوا يتكونون بشكل رئيسي من الساميين، وتطلب ذلك دراسة أصل الساميين والموطن الذي جاءوا منه ومناطق استقرارهم في منطقة سورية.

وتناولت في الفصل الثاني تاريخ سورية في عصور ما قبل التاريخ وذلك منذ العصر الحجري القديم ثم العصر الحجري الوسيط فالعصر الحجري الحديث ثم عصر الحجر والنحاس مقصور ما قبل وقبيل الأسرات.

ويتصل الفصل الثالث بتاريخ سورية أثناء العصر التاريخي، وتتبعت فيه تاريخ الشعوب السامية التي سكنت هذه المنطقة وعلاقاتها بالشعوب المجاورة لها والدول المحيطة بها في منطقة الشرق الأدنى القديم وبخاصة العراق ومصر. وتتمثل هذه الشعوب في الأموريين والكنعانيين الفينيقيين والآراميين والعبرانيين.

وأخيراً فإنني أتقدم بخالص الشكر لكل من عاونني في إصدار هذا الكتاب وبخاصة القائمين على دار النهضة العربية للطباعة والنشر في بيروت والعاملين فيها على جهودهم الصادقة والمخلصة في إصدار الكتاب بهذا الشكل.

وإنني لأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في إخراج الكتاب بالشكل المقبول.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعفو عنا، واغفر لنا، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

صدق الله العظيم
سورية البقرة «آية ٢٨٦»

بيروت في تشرين الثاني (نوفمبر ١٩٨٩)

الباب الأول

تاريخ مصر القديم

الفصل الأول

مصادر التاريخ المصري القديم

تعتمد الدراسة في تاريخ مصر الفراعنة على مصادر أربعة أساسية هى الآثار المصرية وما كتبه الرحالة والمؤرخين من الإغريق الذين زاروا مصر وكتبوا عنها كتباً كاملة أو فصولاً من كتب ثم المصادر المعاصرة فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، وأخيراً ما جاء في الكتب المقدسة عن مصر وأحوالها.

أولاً ـ الآثار المصرية :

لا ريب في أن الآثار التي تركها المصريون القدامى وما تمد به الباحث في تاريخ الكنانة من معرفة سطرت على جدران المعابد والمقابر والإهرامات والتماثيل ولوحات القبور والتوابيت وقراطيس البردى وغيرها إنما هى المصدر الأول لتاريخ مصر القديمة فهي تتحدث عن الكثير من أخبار القّوم وتروي معلومات عن عقائدهم وفنونهم.

على أنه يلاحظ على هذا المصدر عدة نقاط ضعف نذكر منها : أن كثيراً من الآثار إنما هو صادر عن المقابر والمعابد. ومن هنا كان المظهر السائد لمعظم ما يعثر عليه فيها ديني . ومنها أن كثيراً من هذه الآثار إنما قد كتب بأمر من الملوك ، أو بوحي منهم ، ومن ثم فلا بد أن نكون على حذر فيما ترويه هذه المصادر ، ومنها كذلك أن جل ما عثر عليه إنما هو صادر عن الصعيد ، ومنها أيضاً أن تسعة أعشار الحفائر إنما تمت في الصحراء حيث شاد القوم مقابرهم حيث يحفظ الرمل الجاف أكثر الأشياء عرضة للتلف. أما أماكن الأحياء فكانت تبنى في وسط الأراضي الزراعية ، وقد أدى هذا إلى ندرة الآثار المتعلقة بالحياة اليومية. ويضاف إلى ذلك ندرة الآثار التي ترجع إلى بعض العصور المظلمة مثل العصر الوسيط الأول والثاني . مما يجعل تسلسل

الأحداث في التاريخ الفرعوني غير مطرد وأخيراً، فإن النصوص في غالبيتها صعبة الترجمة عسيرة التأويل بالإضافة إلى أن المصريين لم يعرفوا التواريخ المطلقة شأنهم شأن غيرهم من الشعوب القديمة[1].

ومع ذلك فإن الآثار هي مصدرنا الأول لأنها تمتاز عن غيرها من المصادر الأخرى بأنها المصدر الوحيد الذي عاصر الأحداث والذي أشركه المصريون عن قصد أو غير قصد في الكشف عن تاريخهم وتخليد حضارتهم. هذا ولعل أهم ما عثر عليه من بين تلك الآثار ما عرف بقوائم الملوك وهي كشوف أرخت لبعض الفراعين ولما سبقهم من عصور. وأهم هذه القوائم الملكية حجر بالرمو وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة وبردية تورين ثم تاريخ مانيتون.

١ - حجر بالرمو:

عثر عليه في منف وقد دون على الحجر حوليات الملوك منذ أقدم العصور وحتى نفرايز كارع ثالث ملوك الأسرة الخامسة كما يشير كذلك إلى إسلاف منى ممن كانوا يحكمون في الدلتا والصعيد وأطلق عليهم إسم «أتباع الإله حور». ورغم ما في هذه المدونة من عيوب فإنها كانت أول محاولة معروفة لجمع أخبار الملوك وترتيبها في العالم القديم. وقد التزم فيها المؤرخ بثلاثة مبادىء، فقد راعى شرط الوضوح في كتابته بأن فصل بين أحداث كل حول والآخر بخط رأسي يرمز إلى كلمة الحول في الكتابة المصرية وفصل بين حوليات كل ملك وآخر بخط أفقي وراعى الترتيب الزمني في تدوين أسماء الملوك وحوادثهم من الأقدم إلى الأحدث، وراعى ثالثاً أمانة النقل في رواياته[2]. (شكل ١).

(١) Gardiner, A. H., Egypt of the Phareohs, Oxford, 1964, PP. 52 - 56.

(٢) Breasted, J. H., Ancient Records of Egypt, vol. I, 1927, parag. 76 - 167.

وكذلك عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الاول، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٣.



(شكل ١) حجر بالرمو.

٢ ـ قائمة الكرنك :

نقش هذه القائمة كاتب في عهد تحوتمس الثالث على جانب من معبده بأقصى مجموعة الكرنك وقد صور في هذه القائمة الملك تحوتمس الثالث وهو يتجه بدعواته إلى واحد وستين من أسماء أسلافه وقد تحطمت بداية القائمة ، وأول ملك محفوظ إسمه هو «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة ثم يليه بعض ملوك هذه الأسرة ثم ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ، ثم يتلوها بعض ملوك الأسرات من الحادية عشرة إلى السابعة عشرة . وهكذا يتضح لنا أن تحوتمس الثالث إنما قد سجل من الملوك من اعتقد في شرعيتهم وأغفل كثيراً من الملوك الآخرين وبخاصة ملوك عصر الانتقال الأول فضلاً عن الملوك من الغزاة الهكسوس(١) .

٣ ـ قائمة أبيدوس :

نقشت في عهد ستي الأول على جدران معبده في أبيدوس والمنظر يمثل الملك مصحوباً بولده رعمسيس الثاني وهو يقدم القرابين إلى ستة وسبعين ملكاً من أسلافهم . هذا ويتصدر القائمة الملك (منى) ثم تغفل القائمة أسماء بعض الملوك غير الشرعيين من وجهة نظر كاتبيها ومنهم ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة وملوك عصر الانتقال الثاني والملكة حتشسوت وأخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون(٢) .

٤ ـ قائمة سقارة :

عثر على قائمة سقارة بمنف لأحد رؤساء الأشغال ويدعى «ثونري» من عهد رعمسيس الثاني وكانت تحوي أصلاً خراطيش سبعة وخمسين ملكاً يمجدهم «رعمسيس الثاني» وهي تبدأ بسادس ملوك الأسرة الأولى (عدج

---

(١) Sethe, K., Helk, W., Urkundender 18, Dynastie, Leipzig, 1907, Berlin, 1955 - 61., IV, PP. 608 - 610.

(٢) Gardiner, A. H., op. cit., P. 48., Budge, E. A. W., The Book of the kings, 1, London, 1908.

إيب) وتنتهي برعمسيس الثاني، ويلاحظ أنها لم تراعي الترتيب الزمني، وقد أغفلت القائمة أسماء ملوك عصر الانتقال الأول والثاني وحتشبسوت واخناتون ومن تلاه من عائلته[1].

٥ - بردية تورين:

ترجع هذه البردية إلى عهد رعمسيس الثاني وتختلف عن بقية القوائم في أنها كتبت على ورق البردي وبالخط الهيراطيقي وتمتاز كذلك بأنها قد أوردت بعض الأسماء الملكية التي لم تذكرها القوائم الأخرى. وتبدأ البردية بالآلهة وأنصاف الآلهة يليهم بعد ذلك (منى) كمؤسس للملكية المصرية، وإما بقية البردية فمجرد قائمة من الأسماء التي تلي الإسم إشارة بطول مدة الحكم والعمر، وتعد بردية تورين من أكثر المصادر التاريخية قيمة ويرجع ذلك لأن جامع هذه الوثيقة كانت لديه مصادر لمعلومات خالية من الفجوات ودقيقة، ولم يفسد على كاتب البردية ملكته التاريخية إلا إيمانه بأساطير قومه التي جعلت للأرباب نصيباً في حكم البلاد[2].

٦ - تاريخ مانيتون:

كان آخر المؤرخين المصريين القدامى المعروفين إنما هو مؤرخ مصري عظيم يعد من أعظم المؤرخين الذين أنجبتهم مصر القديمة وهو (مانيتون) أو مانيتو كما دعاه المتأغرقون، وكان ملماً باللغة المصرية القديمة وعلى معرفة باللغة اليونانية، ثم هو متمكن من تاريخ وديانة بلده مما ساعده على كتابة تاريخه حوالي عام ٢٨٠ ق. م على أيام بطلميوس الثاني بصورة أفضل مما سبقوه. وقد قام مانيتون بكتابة تاريخ بلاده في ثلاثة أجزاء باليونانية، ويقسم مانيتون مؤلفه بعد حكم الآلهة إلى إحدى وثلاثين أسرة من العائلات الملكية تبدأ بالملك منى وتنتهي بغزو الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ق. م. ورغم عيوب هذا التقسيم إلى أسرات فإنه اتخذ جذور ثابتة في دراسة

---

(١) Gardiner, A. H., op. cit., p. 50.

(٢) Gardiner, A. The Royal Canon of Turin, Oxford. 1959.

«علم المصريات». هذا وقد اعتمد مانيتون في تاريخه هذا على معلومات صحيحة وصلت إليه من مصادر قديمة لها قيمتها، وفوق ذلك فإن تاريخ مانيتون إنما يمتاز بأنه يمدنا بأسماء الملوك الذين حكموا مصر في عصورها الفرعونية مدونة بنطقها اليوناني ولم يقتصر في تاريخه على الحياة السياسية وإنما أرخ كذلك للحياة الاجتماعية. ولا يزال كتاب مانيتون يسيطر على دراستنا ولا يمكن الاستغناء عنه[1].

ثانياً ـ كتابات المؤرخين اليونان والرومان :

تميزت الفترة ما بين القرنين السادس قبل الميلاد والثاني بعد الميلاد بزيارة عدد كبير من الأغارقة مؤرخين كانوا أم رحالة، وقد كتب هؤلاء عن مصر كتباً كاملة أو فصولاً من كتب. على أن الباحثين إنما يلاحظون على كتابات هؤلاء المؤرخين عدة نقاط منها (أولاً) إن كثيراً منهم قد أساءوا فهم ما رأوه أو ذهب بهم خيالهم في تفسير أو تعليل ما سمعوه. ومنها (ثانياً) إن أصحاب هذه الكتابات قد زاروا مصر في أيام ضعفها وفي عصور تأخرها، ولو أتيحت لهم الفرصة وزاروها في أيام نهضتها لتغير الكثير من آرائهم. ومنها (ثالثاً) إن إقامة هؤلاء الكتاب كانت في أغلب الأحيان في مدن الدلتا ومن ثم فلم يتبينوا أوجه الحياة المصرية الصادقة كما كانت في الصعيد، ومن ثم فقد أخطأوا في الكثير مما صوروه من مظاهر الحضارة المصرية القديمة، ومنها (رابعاً) أن هؤلاء الكتاب قد اعتمدوا في الكثير من معلوماتهم على الأحاديث الشفوية مع صغار الكهنة والتراجمة الوطنيين الذين كانوا يفسرون لهم النصوص الهيروغليفية تفسيراً لا يتفق والحقيقة في الكثير منها. (خامساً) إن كثير منهم قد كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية، وكثيراً ما كانت كتابتهم في وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصر. هذا بالإضافة إلى روح التعصب التي عرفت عن الغربيين لحضارتهم[2].

---

(1) Gardiner, A. H., Egypt of the pharaohs, P. 47.

وكذا عبد العزيز صالح : المرجع السابق، ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٤٠.

ومن أشهر هؤلاء المؤرخين هيكاته الميليتي وهيرودوت وهيكاته الأبـدري وديودور الصقلي وسترابو وبلوتارك الخيروني وغيرهم .

١ ـ هيكاته الميليتي : Hekataios of Miletos

ينسب إلى مدينةميليتوس الإغـريقية من آسيا الصغـرى وقـد زار مصر حوالي عام ٥١٠ ق . م . وكتب كتابه «تحطيط الأرض» وناقش فيه فيضان النيل وتكوين الدلتا ومزرعات البلاد[١] .

٢ ـ هيرودت (٤٨٤ ـ ٤٣٠ ق . م) : Herodotus

ولد هيردوت عام ٤٨٤ ق . م حسبمـا يرى معظـم المؤرخـون . وكان مولده في مدينـة هاليكارناسـوس وهـي مدينـة دورية في إقليم كاريا تدعـى الان Budrnn في الركن الحنوبي الغربي من آسيا الصغرى[٢] .

زار هيرودوت مصر إبان الحكم الفارسي لها وسجل كل ما رآه وسمعه في مصر في الجزء الثانى من كتابه المشهـور . فتحـدث عن جغـرافية مصـر ومدنها والحوادث التاريخية التى مرت بها وأعمال ملوكها ومظاهر الحياة فيها دونما تدقيق أو تمحيص . ومن هنا جاء كتابه جامعاً الغث والثمين حاوياً الكثير من الحقائق والمفتريات . ومن هنا فقد اختلف المؤرخون فى الحكم على هيرودوت وعلى كتبه وإن كان هيرودوت قـد بذل الـكثير من الجهد فى إخراج كتابه عن مصر ، ويمكن القول إن كتاب هيرودوت في جزئه الأول الذى ينتهي عند مطلع العصر الصاوي ، يكاد يخلو من الحقيقة التـاريخية . أمـا الشطـر الثاني الذي افتتحه بعصـر بسمـاتيك (٦٦٤ ـ ٦١٠ ق . م) فقـد حالفـه فيه التوفيق ، ذلك لأن رواته كانوا من الإغريق وكانوا على صلة بالفرعون ، فصلاً عن أن هناك روايات كانت متداولة يمكن الاعتماد عليها[٣] .

(١) Bury, J. B., The Ancient Greek Historians, New York, 1958, PP. 11 - 15

(٢) أحمد أمين سليم . دراسة في تاريخ إيران القديمه وحضارتها ، حـ ١ ، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ٥٢

(٣) أحمد بدوي : هيرودوت يتحدث عن مصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٩ ـ ٣٧ .

٣ ـ هيكاته الأبدري :

زار مصر حوالي عام ٣٢٠ ق. م وقام بوضع كتاب عن مصر تحدث فيه بصفة عامة عن العقائد والأساطير الدينية المصرية بصفة خاصة واتسمت كتاباته بروح التعصب والتحيز لوطنه.

٤ ـ ديوردور الصقلي : Didorus siculus

قام ديودور بزيارة لمصر في عام ٥٩ ق. م وقد كتب مؤلفات فى التاريخ العام، أو تاريخ العالم بعنوان «المكتبة التاريخية "Bibliotheke" وتناول فيه تاريخ العالم منذ فجر التاريخ حتى حملة يوليوس قيصر على بلاد الغال. وقد أفرد الجزء الأول منه لتاريخ مصر. أما مصادره فكانت الكتاب الذين سبقوه ولم يستطع أن يتجنب الاستعانة بهيرودوت على نطاق واسع، وإن انساق وراء جمهور نقاده. وقد تناول ديودور أوضاع مصر السياسية والاجتماعية والدينية، وكان أكثر من هيرودوت إنصافاً للمصريين وأكثر فطنة فى تفسير عقائدهم وأساطيرهم. وقد سلم بأن (منى) هو أول الملوك، وتحدث عن طيبة، وإن كان يؤخذ عليه إنه جعل تأسيس منف تالياً لتأسيس طيبة، ومع ذلك فإن ماكتبه عن القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يجعل كتابه بالغ الأهمية. أما عن العصور القديمة فإن ما يرويه لا يمكن التحقق منه عن طريق مصدر آخر، ولما كان مؤلفه يعد تجميعاً فإنه يصبح ذات قيمة لا تبارى وأياً ما كان الأمر فإن ديودور يمتاز على الكثير من المصادر بحسن عرضه لآراء من سبقوه وبدقته ونزوعه إلى البحث عن الحقيقة[1].

٥ ـ سترابو : Strabo

ولد سترابو في أماسيا في بونتوس وذلك حوالي عام ٦٤ أو ٦٣ ق. م، وتتميز كتاباته بأنها نوع من الجغرافية التاريخية ولقد زار الإسكندرية حوالي

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق، ص ٢٤٣، وكذا :
وهيب كامل : ديودور فى مصر، القاهرة ١٩٤٧.

عام ٢٥ ق. م وأقام بها خمس سنوات، وقد تحدث عن مصر في الجزء السابع عشر من مؤلفه «الجغرافية» وقدوصف النيل ومصر، وإن اهتم كثيراً بالدلتا، كما قدم لنا تفصيلات عن المباني والعبادات. أما ملاحظاته على التاريخ والعادات الدينية فخاضعة للنقد[1].

٦ ـ بلوتارك: Plutarch (حوالي ٤٦ ـ ١٢٠ م)

ولد في بلدة خيروينا في شمال إقليم بويوتيا في بلاد اليونان، ويعد بلوتارك من أصدق المؤرخين القدامى وأكثرهم أمانة في النقل، وقد اهتم بلوتارك في كتاباته بالعقائد المصرية، واهتم بصفة خاصة بقصة (اوزير وايزة)[2].

ثالثاً ـ المصادر الأجنبية المعاصرة:

وأما ثالث المصادر الرئيسية في تاريخ مصر القديمة، فهو المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم ذلك لأن مصر إنما كانت على علاقة ببلدان هذه المنطقة في فترات من تاريخها وخاصة في عصر الدولة الحديثة، فتبادل حكامها مع الفراعين رسائل كثيرة ـ اختلفت في فترات السلام عن عصور الحرب. ففي الأولى نجد الود والاحترام المبالغ فيه إن لم يكن الخضوع والتذلل. وفي الثانية نجد ادعاءات مبالغ فيها، وواجب الباحث إزاء هذه الكتابات مقارنتها بما يعاصرها في مصر. ومن المقارنة بينها جميعاً يستطيع الباحث أن يتبين ولو بقدر الحقائق التاريخية. هذا إلى أنها إنما تعين الباحث في تتبع عهود الفراعنة بالنسبة إلى من عاصرهم من ملوك الشرق وأمرائه، كما أن الرسائل المتبادلة إنما تعطي فكرة عن العلاقات الدولية والحالة

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: دراسة في تاريخ الشرق الادنى، حـ ١، مصر، الكتاب الأول، التاريخ، الإسكندرية ١٩٨٢، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) بلوتارخوس: إيزيس وأوزيريس، ترجمة حسن صبحي البكري ومراجعة محمد صقر خفاجة، القاهرة، ١٩٥٨.

الحضارية لهذه المنطقة الهامة من العالم إبان كتابتها .

رابعاً ـ الكتب المقدسة :

لا ريب في أنه يمكن للمؤرخ ـ وبخاصة حين يكتب عن العصور التي تلت عصر الدولة الوسطى ـ أن يعتمد على ما جاء في الكتب المقدسة وبخاصة التوراة والقرآن الكريم والتي روت الكثير من القصص الدينية التي تتصل بطريقة أو بأخرى بالتاريخ الفرعوني، كما أنها تحدثت كثيراً وبسطت طرفاً من نواحي الحياة المصرية. هذا وقد تحدثت التوراة في كثير من أسفارها عن المصريين وعلاقتهم ببني إسرائيل فضلاً عن الحديث عن أنبياء بني إسرائيل ذوي الصلة بمصر. إلا أنه تجب الإشارة إلى إننا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخي أن ننظر إليها كما إلى غيرها من المصادر التاريخية، نتقبل ما تقوله إن كان يتفق مع الحقائق التاريخية، ونرفض ما تقوله حين تذهب بعيداً عن ذلك. أما القرآن الكريم فإنه يقدم لنا عن طريق القصص القرآني معلومات هامة وصحيحة تماماً عن عصور ما قبل الإسلام وأخبار دولها وعن طريق سيدنا يوسف وموسى يقدم لنا القرآن الكثير من المعلومات عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر الفراعنة[1].

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٧٨ - ٩٠.

الفصل الثاني

عصر الأسرتين الأولى والثانية

يطلق المؤرخون على عصر الأسرتين الأولى والثانية أسماء عديدة منها. «عصر بداية الأسرات» لكونه أول عصر حكمت مصر الموحدة خلاله أسرات ترتبط ببعضها بصلة الدم. ويطلق عليه بعض العلماء إسم «العصر العتيق» إذ به يبدأ التاريخ الفرعوني هذا إلى أنه يسبق عصر الدولة القديمة مباشرة ويسمى أيضاً «العصر الثيني» نسبة إلى مدينة ثنى (طينه). وذلك اعتماداً على ما رواه مانيتون من أن ملوك هذا العصر قد نشأوا فى مدينة ثنى (طينة). ويتجه الباحث إلى الاحتفاظ بتسمية الأسرتين بإسم (عصر الأسرتين الأولى والثانية الفرعونيتين) وذلك لأن عصر هاتين الأسرتين يعتبر مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري السياسي للتاريخ والحضارة الفرعونية زهاء ثلاثة آلاف سنة، وتم خلال هذا العصر تدعيم الوحدة السياسية بين الشمال والجنوب وتوطدت دعائم الأمن والنظام في أرجاء البلاد ووضعت تقاليد الملكية ونظمت الإدارات. كما أن عصر هاتين الأسرتين كان فترة تدعيم للحضارة المصرية التي وضحت في عصر الأسرتين الثالثة والرابعة وأصبح لها طابعها الخاص الجديد المسمى «المصري»[1].

الكيان السياسي الداخلي في عصر الأسرتين الأولى والثانية :

يتضمن هذا الكيان السياسي الداخلي فى مصر القديمة في عصر الأسرتين الأولى والثانية دراسة ثلاثة موضوعات رئيسية، وهي عملية توحيد البلاد وبداية استقرار الكيان السياسي الداخلي والوسائل التي اتبعها ملوك

(١) أحمد أمين سليم : دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة أثناء عصر الأسرتين الأولى والثانية (رسالة ماجستر) الإسكندرية، ١٩٧٧، ص ٧ - ١٢.

العصر لتدعيم الوحدة بين الشمال والجنوب .

وفيما يتصل بالموضوع الأول وهو توحيد البلاد ، فيمكن أن ترجع بدايته إلى مرحلة عصور ما قبل الأسرات حيث شهد هذا العصر ظهور المقاطعات المستقلة والتي تطورت إلى إدماج هذه المقاطعات في مملكتين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب . ثم بدأت محاولات توحيد المملكتين في مملكة واحدة وهو الأمر الذي يبدو أنه تحقق بزعامة الجنوب . ويستدل من الآثار التي عثر عليها في هيراكونبوليس وغيرها على جهود ملكين بذلا كل جهدهما في سبيل هذا الهدف الوطني ، وهذان الملكان أولاً ما اصطلح على تسميته بالملك عقرب والثاني هو الملك نعرمر.

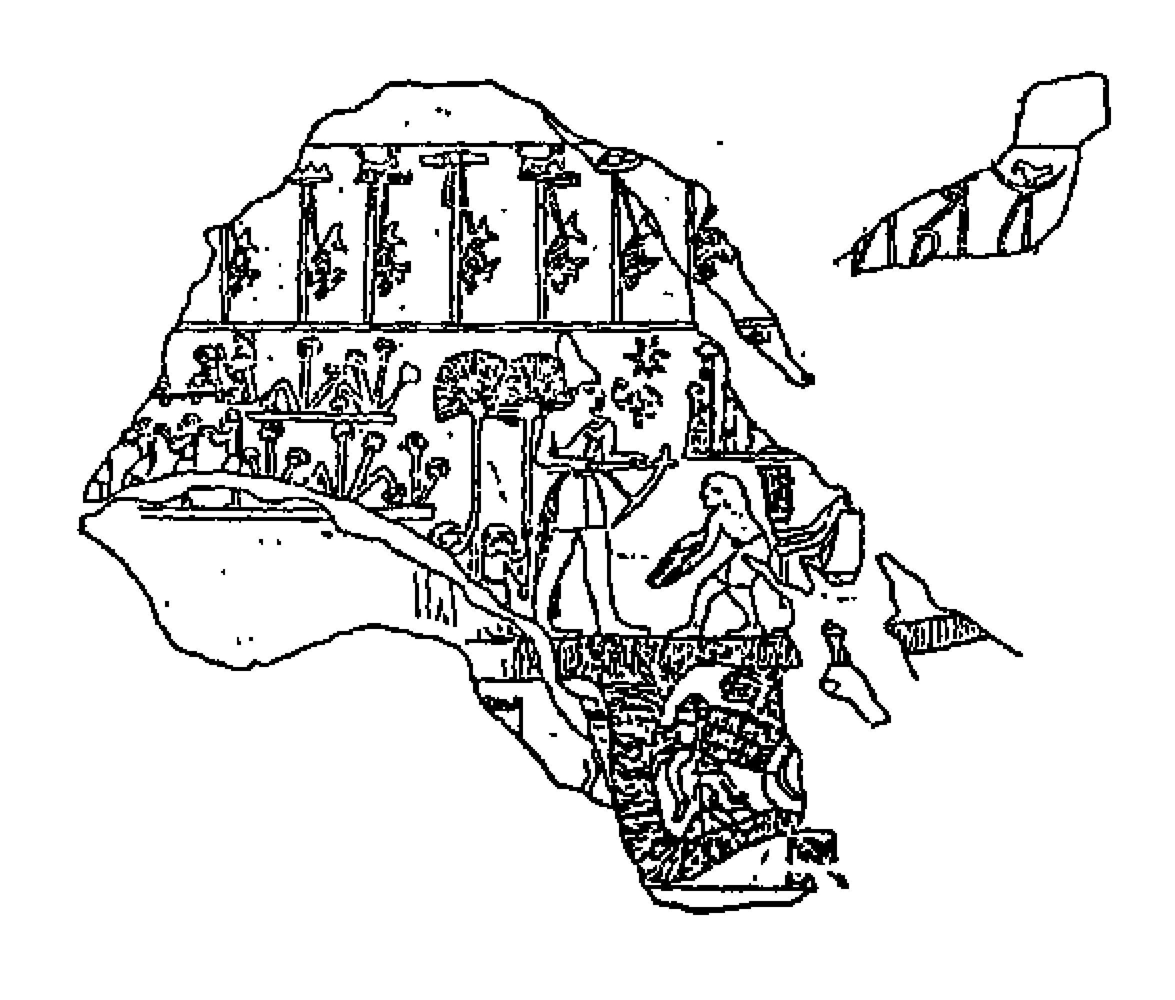
وفيما يتعلق بالملك الأول فقد عثر على العديد من الاثار التي تحمل إسمه (**عقرب**) وبجوارها العلامة (كا) التى فسرها بعض الباحثون بأنها الإسم الحوري للملك «عقرب» . أما الآثار المكتشفة للملك عقرب والتى تشير إلى جهوده في عملية القيام بتوحيد البلاد فيمكن الإشارة إليها فيما يلي :

أ ـ رأس المقمعة التي عثر عليها فى هيراكونبوليس :

صنع رأس هذا الصولج من الحجر الجيرى وغطى بنقوش موزعة على ثلاثة مناظر: المنظر الأول يشير إلى هزيمة الملك عقرب لسكان الدلتا وانتصاره كذلك على القبائل الأخرى الموجودة على حدودها ، ويعبر المنظر الأوسط عن حفل افتتاح مشروع للري أو للزراعة ، أما نقوش المنظر السفلي فيمثل جزيرة يحيطها النهر ويعمل فيها عدد من الأشخاص ويتضح من نقوش هذه المقمعة قيام الملك عقرب بحروب فى الدلتا والصحراوات المحيطة بها بمساعدة الأقاليم الجنوبية وبخاصة في هذا العمل ، واتضح أيضاً اهتمامه بالأعمال السلمية التي تهدف إلى رخاء البلاد . ولم ينسى الفنان أن يعبر عن تقوى ملكه واهتمامه بتشييد المعابد[1] (شكل ٢) .

---

(١) Quibell, J. E., and Green, F. W., Hierakonpolis, vol. II, London, 1902, P. 41.,
Arkell, J., "Was King scorpion Menes" in Antiquity, 37, P. 35, FF.



(شكل ٢) رأس مقمعة الملك عقرب.

ب ـ ويوجد بالإضافة إلى رأس هذا الصولج رأسي صولجانين يوضحان انتصار الملك عقرب على الشعب ذا الضفيرة الطويلة، وهما يوضحان الملك مرتدياً تاج الشمال، مما يدل على أن الملك عقرب وليس نعرمر هو أول ملك وحد مصر العليا والسفلى[1]. كذلك فقد عثر على العديد من نقوش الأواني التي توضح انتصار الملك عقرب على الدلتا وإحيائه لذكرى هذا الانتصار[2].

وهناك مجموعة من الآثار توضح الجهد الذي بذله الملك **نعرمر في** سبيل توحيد البلاد، وتتمثل هذه الآثار في:

أولاً ـ نقوش الصلاية الإردوازية[3] (شكل ٣، ٤) التي تهدف إلى تخليد ذكرى بعض الحروب التي خاضها الملك نعرمر والتي أدت في النهاية إلى ذلك الحدث التاريخي الهام في حياة البلاد وهو اتحاد القطرين تحت لواء حاكم واحد، وقد صور الملك على أحد وجهي الصلاية وهو يرتدي تاج الجنوب الأبيض، وعلى الوجه الآخر وهو يرتدي تاج الشمال الأحمر ويرجح أن هذه اللوحة توضح أن الملك نعرمر قد أكمل أعمال سلفه الملك عقرب في الذود عن حدود البلاد وتخليصها من البدو والمغيرين عليها في الشرق والغرب.

ثانياً ـ نقوش رأس مقمعة الملك نعرمر[4] يرى الباحث أنها سجل لأهم الأعمال التي تمت في عهد نعرمر وهي زواجه من الأميرة الشمالية نيت حتب التي عثر على مقبرتها في نقادة، وتعتبر تلك لفتة ذكية من الملك لإرضاء

---

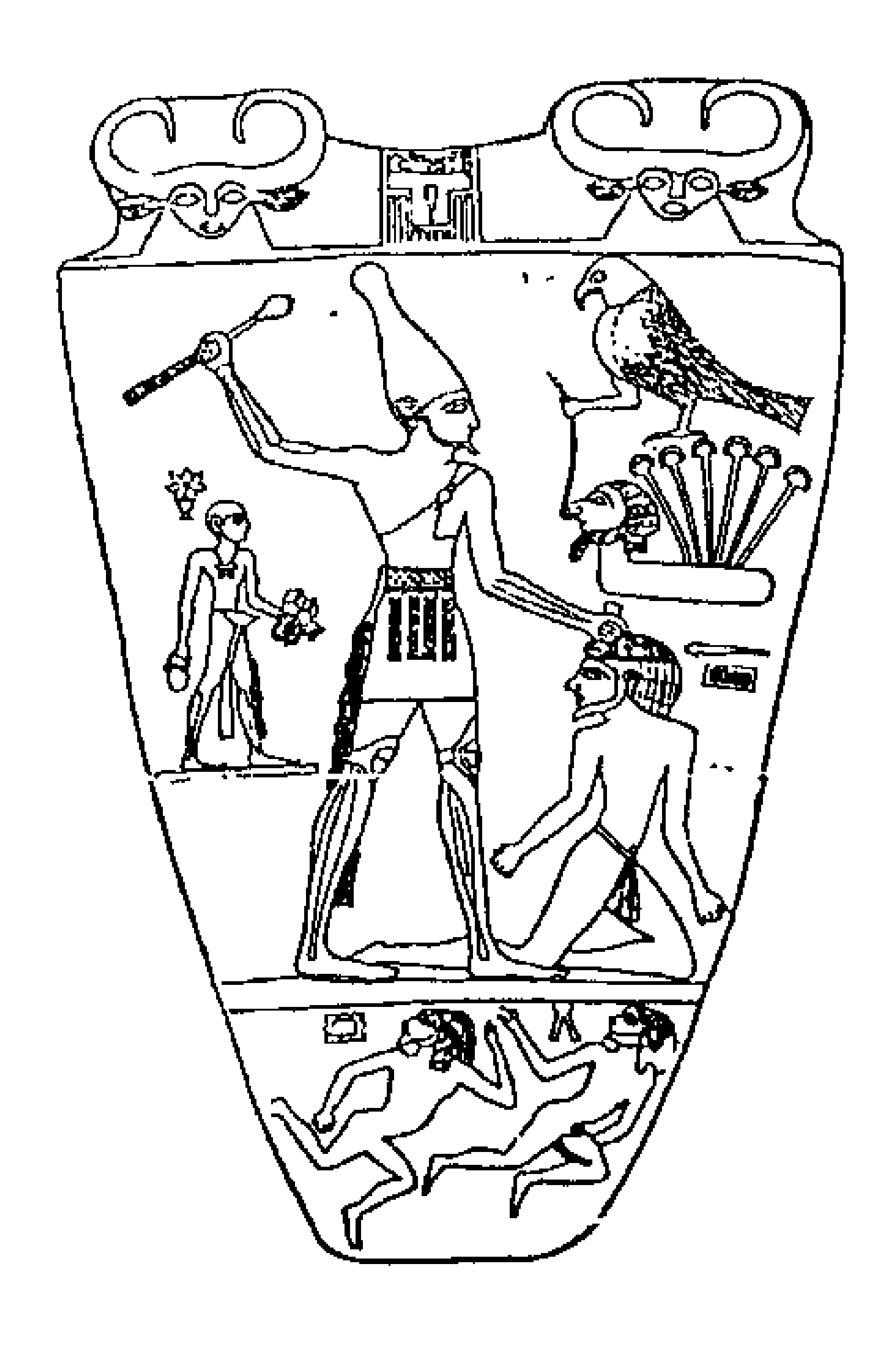
(١) Ibid.

(٢) احمد أمين سليم: المرجع السابق، ص ٧٠ وما بعدها.

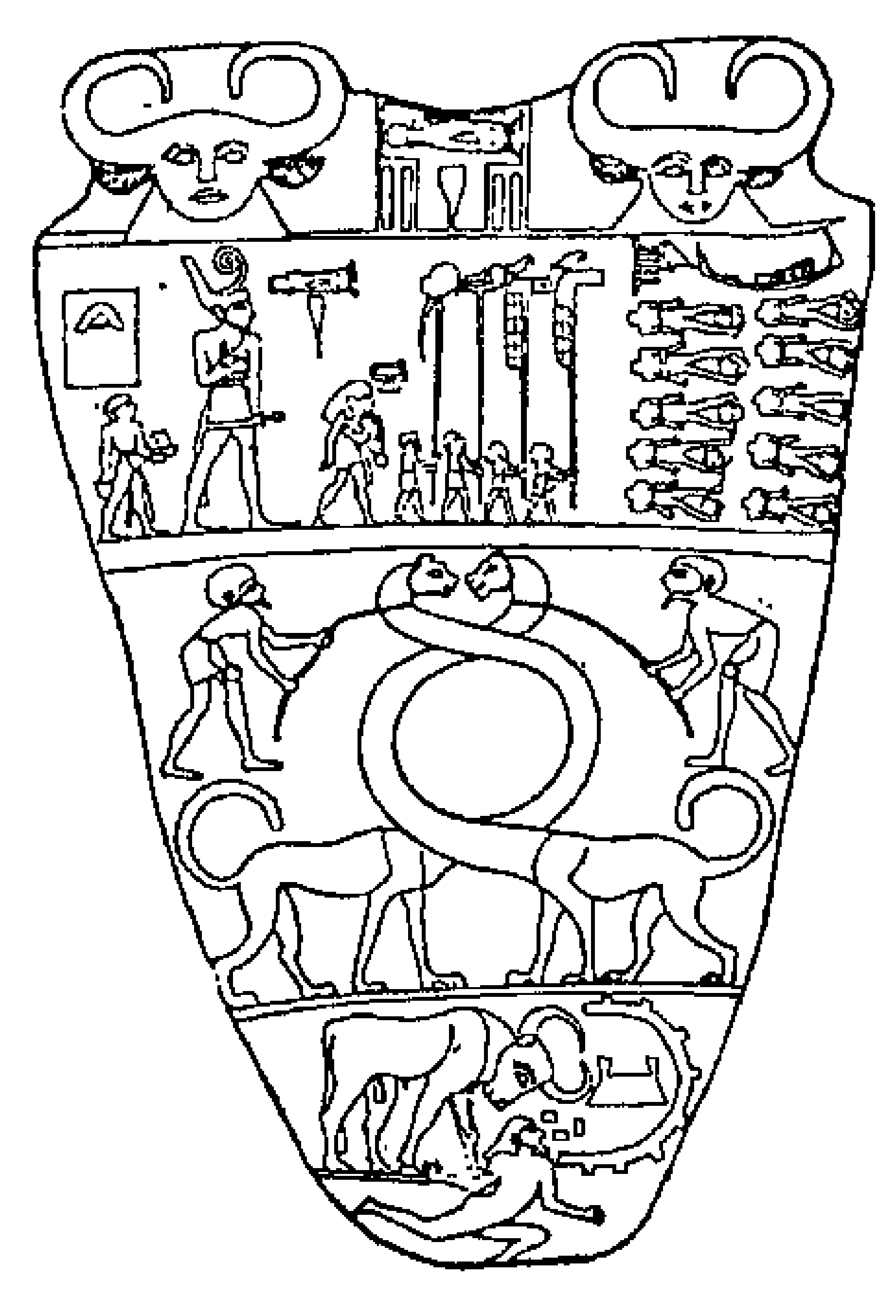
(٣) Quibell, J. E., Hierakonpolis, vol. I, London, 1900, pl. XXIX, p . 10.

(٤) Ibid., pl. XXVI B.

والترب. امري: مصر فى العصر العتيق (الأسرتان الأولى والثانية) ترجمة راشد محمد نوير. ومحمد على كمال الدين، مراجعة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٥ ـ ٣٦.

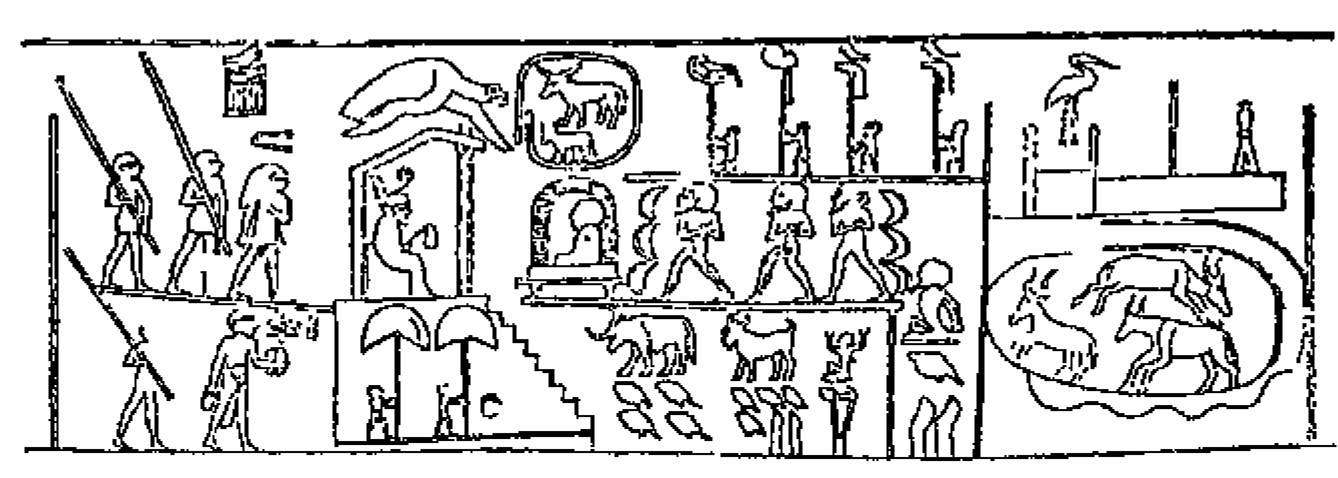


(شكل ٣) لوحة الملك نعرمر (من الوجه).



(شكل ٤) لوحة الملك نعرمر (من الخلف)

أهل الدلتا. أما عن الأعداد الضخمة من الماشية والماعز والأشخاص التي تسجلها رأس المقمعة فربما تشير إلى الغنائم التي حصل عليها الملك في حروبه المختلفة التي خاضها في الشمال لاتمام وتدعيم وحدة البلاد في الشرق والغرب لتطهير أرض الكنانة من البدو والمغيرين عليها(شكل ٥).



(شكل ٥/ نقوش رأس مقمعة الملك نعرمر.

أما بالنسبة للموضوع الثاني فهو بداية استقرار الكيان السياسى الداخلي وسنبدأ أولاً بالاراء التي أبديت حول «مؤسس الأسرة الأولى» وهي مشكلة اختلفت بشأنها آراء المؤرخين اختلافاً بيناً وارتبط ذلك بأربعة ملوك هم: عقرب ونعرمر وعحا ومنى. وبالنسبة للملك عقرب فقد عثر على إسمه مكتوباً على العديد من الآثار من أهمها تلك التى تشير إلى جهوده فى عملية توحيد البلاد وهي رؤوس المقامع وعثر على مقبرة له فى أبيدوس وجد فيها آثار تحمل إسمه الحوري (كا) كما عثر على إسمه في مقبرة حور عحا بسقارة. أما الملك نعرمر فقد ظهر إسمه على عديد من الآثار من أهمها لوحته الإردوازية ورأس مقمعته وظهر إسمه على ختم مع العلامة «من»[1]. ونسبت إليه مقبرة فى أبيدوس.

وبالنسبة للملك حور عحا الذى يعني إسمه المحارب، فقد عثر على هذا الإسم على بعض الآثار في مقبرة صغيرة بأبيدوس نسبها أحد الباحثين

(١) Petrie. W. M. F., The Royal Tombs, london, 1902. pl. XIII. 93.

إليه ، وعثر كذلك على عديد من الآثار له فى مقبرة نيت حتب بنقادة من أهمها بطاقة عاجية[1] تحمل الإسم الحوري للملك عحا وعلامة هيروغليفية مفردة تعني «من» والتي اعتبرها معظم الكتاب أنها تمثل إسم منى (شكل ٦) ، وعثر إسمه على عديد من الآثار في مقبرة ضخمة بسقارة نسبت إليه[2] .

أما الملك «منى» فلم يرد إسمه في القوائم الملكية إلا ابتداء من عصر الدولة الحديثة ووضعه المؤرخ المصري مانيتون على رأس أسرته الأولى وارتبط إسم منى في أذهان المصريين أنفسهم ببداية العصر التاريخي . وعثر كذلك على أختام تحمل إسمه في أبيدوس مع إسم الملك نعرمر.

هذا وقد اختلفت آراء المؤرخين حول ترتيب هؤلاء الملوك وبيان تتابعهم على العرش ، ومن مجمل هذه الآراء يمكن أن نرجح اعتماداً على المادة الأثرية أن الملك عقرب قد خطا خطوات كبيرة في سبيل تحقيق الوحدة السياسية للبلاد وإن النصر العسكري الحاسم على مملكة الشمال كان من نصيب الملك نعرمر الذي حاول إكساب حكمه للدلتا صبغة شرعية فتزوج من الأميرة الشمالية نيت حتب ولكنه لم يتمكن من تنظيم نصره والتمتع بنتائج حروبه فخلفه على العرش ابنه حور عحا الذي وضع اللبنة الأخيرة للتوحيد النهائي وبنى مدينة منف العاصمة المصرية الأولى ، وعلى ذلك يرجح أن يكون الملك «حور عحا» هو «منى» وأول ملك في الأسرة الأولى وفي مصر الموحدة . وإن كانت هناك آراء ترى أن «نعرمر» هو «منى» واتخذ أيضاً التسمية «عحا» (المقاتل) بعد انتصاره على الشمال ويرى البعض الآخر أنه من الصعب الأخذ بهذا الرأى ويرجحون في النهاية أن يكون «عحا» هو «منى»[3] .

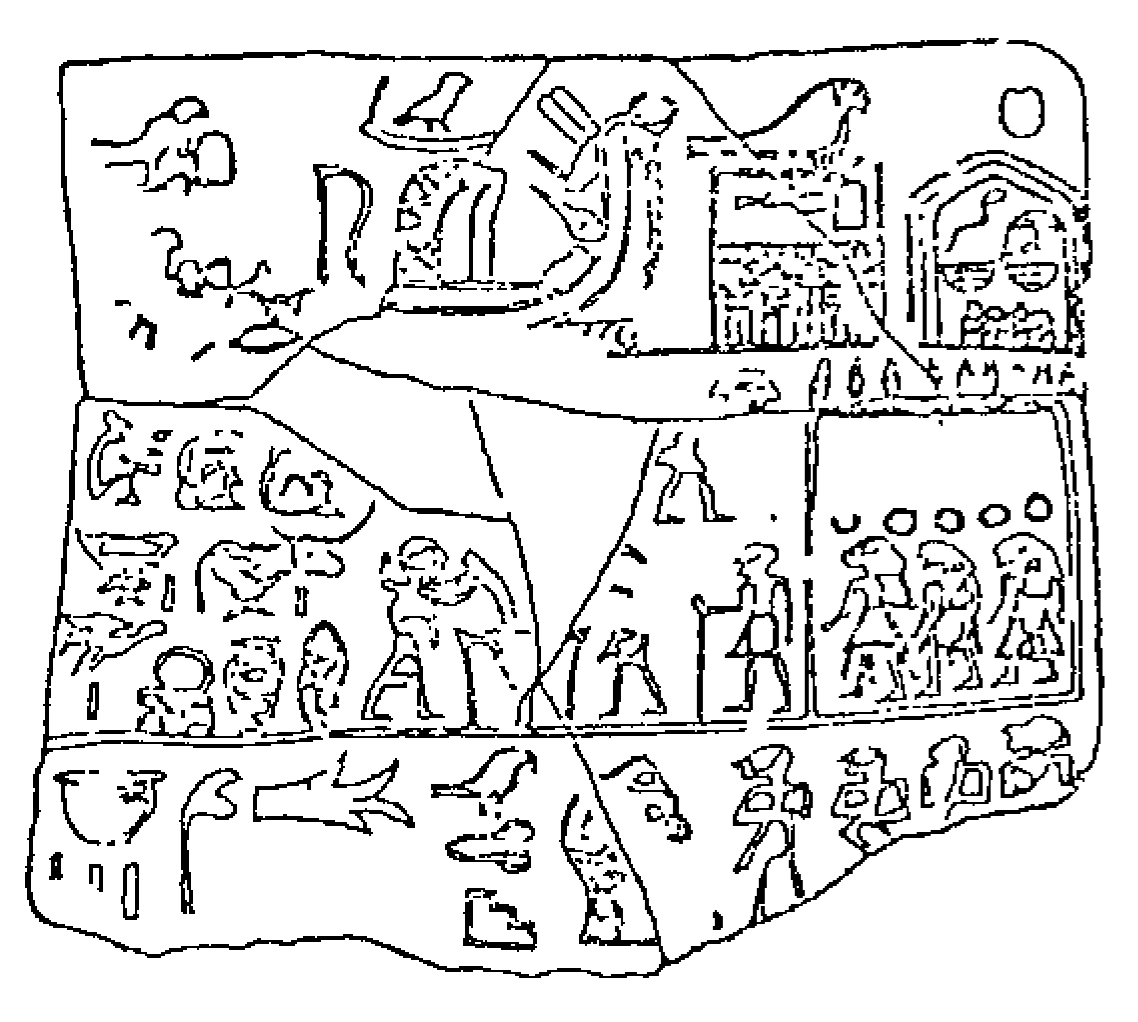
ويمكن ترتيب ملوك الأسرة الأولى حسب المادة الأثرية التي عثر عليها

---

(١) De Mogran J.. Ethnographie Prehistorique et Tombeau Royal de Negada. Paris. 1897. Fig. 518.

(٢) Emery. W. B.. Hor Aha, Cairo. 1939.

(٣) ـ احمد امين سليم . المرجع السابق ، ص ٧٥ وما يليها .



(شكل ٦) بطاقة حور عحا العاجية من نقادة .

على النحو الآتي : عحا ، جر ، جت ، دن ، عج ايب ، سمرخت ، قع .

أما ملوك الأسرة الثانية فإنه يمكن ترتيبهم حسب الآثار المعاصرة التي عثر عليها على النحو الآتي : حتب سخموى ، رع نب ، ني نثر ، ونج ، سند ، سخم ايب (برايب سن) ، خع سخم ، خع سخموى .

وننتقل الآن لدراسة الوسائل التي اتبعها ملوك العصر لتدعيم الوحدة بين الجنوب والشمال ، فقد عمل ملوك هذا العصر على تدعيم هذه الوحدة بعديد من الطرق والوسائل . وتتضح الوسيلة الأولى في ظاهرة اتخاذ الألقاب الملكية وعلى رأس تلك الألقاب لقب حور الذي كان يتكون من صقر جاثم فوق بناء يكتب على واجهته الإسم الخاص بالملك ، واللقب النبتي الذي سمي كذلك بسبب قراءة اللقب (السيدتان) الممثلتان في صورة رخمة التي تشير إلى الآلهة نخبت الجنوبية ، وحية ترمز للآلهة واجيت الشمالية . ويدل ذلك

على رغبة الملك في التمتع بحماية الإلهتان الشمالية والجنوبية ، كما تشير إلى كونه ممثلاً لقطري الوادي ، هذا بالإضافة إلى ما في ذلك من إرضاء لأهل الدلتا . أما الإسم الثالث فهو يطلق عليه «اللقب النسوبيتي» الذي يدل على انتساب الملك لنبات البوص شعار مملكة الصعيد والنحلة شعار الدلتا والغرض منه إظهار الفرعون بمظهر الوارث الشرعي لكل من المملكتين القديمتين صاحبتى الشعارين (شكل ٧) .

أما الوسيلة الثانية التى قام بها الملوك في هذا العصر فكانت الزواج من أميرات شماليات وذلك حتى يدعموا أواصر النسب بين الشمال والجنوب ، بالإضافة إلى ما فى ذلك من إرضاء للشماليين . وقد بدأ الملك نعرمر سنة الزواج من أميرات الشمال فتزوج من الأميرة الشمالية نيت حتب[١] ، وتبع نعرمر في هذا التقليد الملك جر الذي تزوج من الملكة الشمالية مرنيت[٢] . . . وكان يصحب الملكات الشماليات عدد من الوصيفات ، مما كان له أثره الكبير في انتشار التراوج بين الشماليات والجنوبيين ، وبالتالى تدعيم الروابط الأسرية والحضارية بين شطري البلاد .

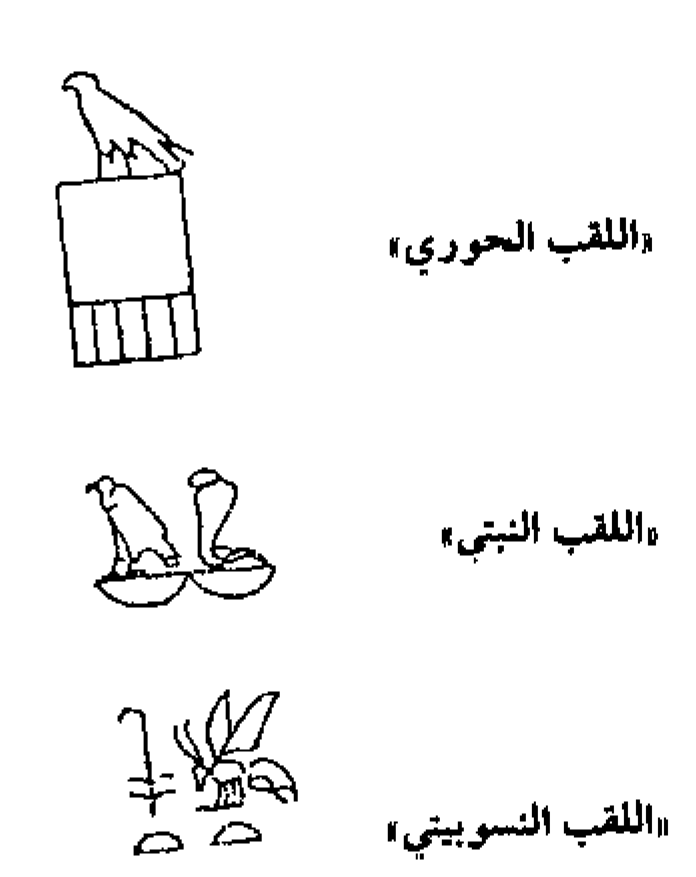
أما الوسيلة الثالثة فكانت السماح للوجه البحري بشخصية متميزة في إدارته تحت ظل التاجين ، فقد اعتبر الملك في هذا العصر حاكماً مطلقاً له صفة إلهية وسلطته كاملة على كل الشؤون الدينية والدنيوية ، وكان يعاون الملك مستشاران أحدهما لشؤون الوجه القبلي والآخر للوجه البحري .

وربما كانت أعلى وظيفة إدارية في هذا العصر وظيفة «حامل الختم» التي تدل على الختام والخازن والأمين . وكان أكبر حملة الأختام في أوائل هذا العصر هم حملة أختام الوجه البحري ومصالحه ، وظهرت الشخصية المتميزة للشمال في تكوين الإدارة المالية في هذا العصر ، إذ تكونت من بيتين للمال أحدهما للشمال والاخر للجنوب .

---

(١) Emery, W. B., Archaic Egypt, 1963, P. 33.

(٢) Emery, W. B., Great Tombs of the Earliest Dynasties, vol. II London, 1901, P. 142



(شكل ٦) الألقاب الملكية العظيمة فى عصر الأسرتين الأولى والثانية .

وأوضح نظام الإدارة الإقليمية في هذا العصر اهتمام الملوك بالشمال وعملهم على تدعيم الاقتصاد القومي للبلاد مما كان له أثره على مظاهر الإنتاج الحضاري فقد كان من أهم مهام حكام الأقاليم الإشراف على القنوات والمحافظة عليها وتطويرها والحصول على الأرض التى من شأنها زيادة الثروة العامة كذلك القيام بعمل إحصاء عام وتجهيز الجيوش وقت الحاجة إليها .

أما الوسيلة الرابعة التي اتبعها ملوك عصر الأسرتين الأولى والثانية فكانت الاهتمام بإقامة المعابد لآلهة الشمال وزيارة الأماكن المقدسة الشمالية والاهتمام بالاحتفال بالأعياد الدينية والدنيوية ، وذلك كمحاولة منهم لتهدئة الشماليين وكسب رضاهم ومحبتهم ، فتوضح نقوش بطاقة أبنوسية عثر عليها في أبيدوس وتحمل إسم حور عحا قيامه بتأسيس معبد للآلهة نيت

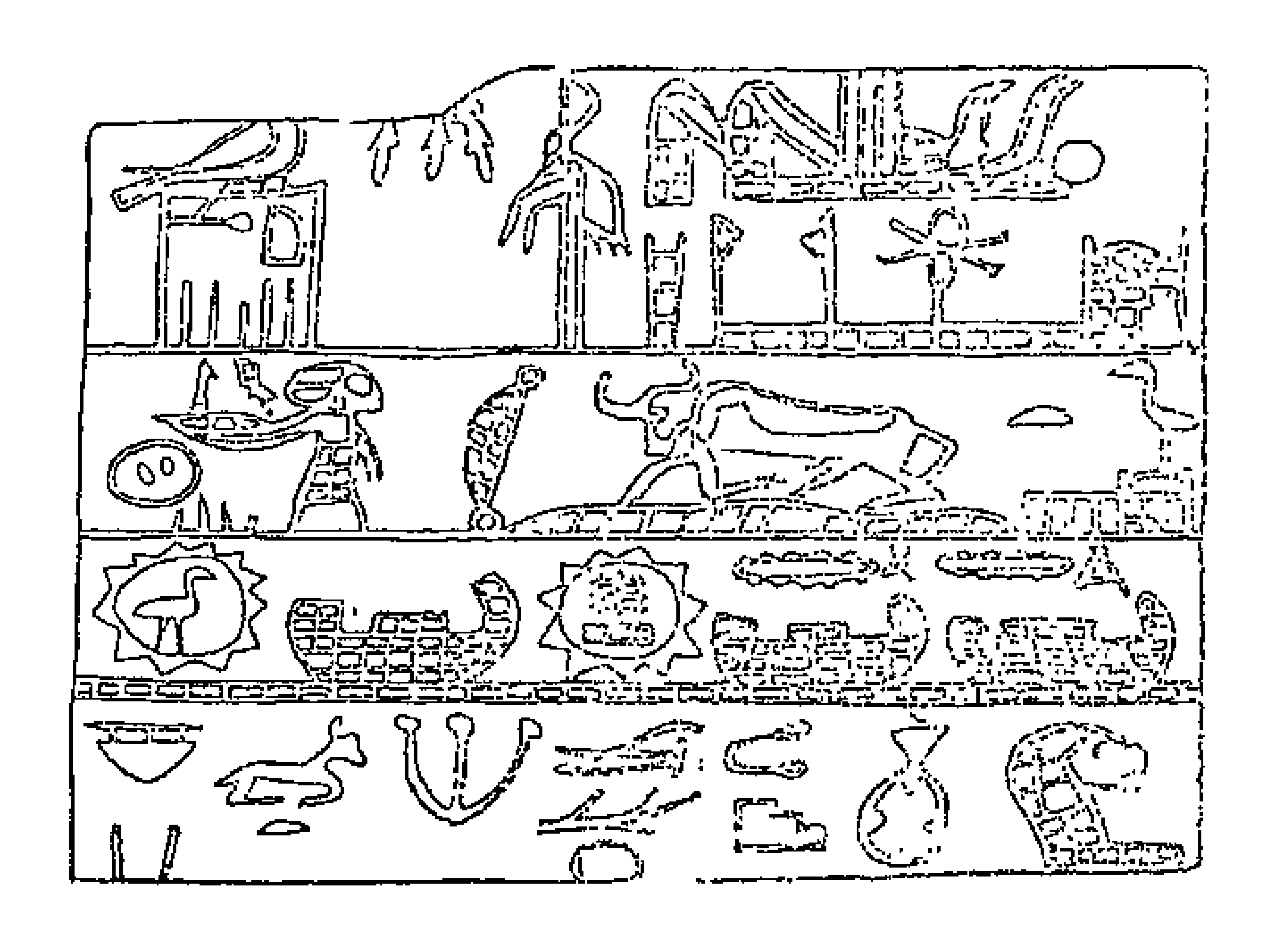
الشمالية[1] (شكل ٨)، كذلك توضح نقوش بطاقة عاجية أخرى قيام الملك جر بزيارة مدينتي بوتو وسايس المقدستان في الوجه البحري.

ويلاحظ أن الأحداث التي سجلها حجر بالرمو لعصر الأسرتين الأولى والثانية، هي في معظمها احتفالات بأعياد دينية قام بها الملوك تجاه معظم الآلهة المعروفة في ذلك العصر والتي تمثل معظم مناطق البلاد حتى يكسبوا رضاها ويظهروا ورعهم وتقواهم أمام شعبهم فيكسبوا محبتهم وولاءهم.

وبالإضافة إلى تلك الوسائل السابقة فإنه يستدل من الأحداث التي قامت في أواخر الأسرة ميل نحو الشماليين وهو الأمر الذي أكدته الآثار المعاصرة، وكذلك اللاحقة، وتتمثل هذه الأحداث في قيام الملك سمرخت بمحو إسم سلفه الملك عدج ايب عن بعض الآثار، وقيام الملك قع خليفة سمرخت بمحو إسم الأخير عن بعض الآثار الخاصة به، ويضاف إلى ذلك أن قائمة الملوك بسقارة قد بدأت بالملك عدج ايب واغفلت إسم خليفته سمرخت، كما يلاحظ أن مقبرة عدج ايب بسقارة هي أقل المقابر الخاصة بالأسرة الأولى في بنائها ومحتوياتها.

ويلاحظ كذلك أن الملك عدج ايب قد اتخذ لقباً جديداً عبارة عن صقرين فوق محطين يدلان على حور وست ويرى أحد الباحثين أنهما يرمزان لحور الدلتا وحور الصعيد، وربما يشيران إلى سيادة الإله حور على كل من الشمال والجنوب مما يعني الحد من نفوذ ست ولو بطريق غير مباشر. إذ كان الصقر رمزاً لأحد أقاليم الجنوب. وتفسر هذه الأحداث على أساس أنها تدل على ميل الملك عدج ايب للشماليين ميلاً شديداً جعلهم يعتبرونه كأول ملك شرعي في نظرهم، وعلى ذلك فقد بدأوا به قائمتهم ولم ترضى هذ السياسة خليفته سمرخت الذي شن عليها غارة هوجاء، مما أثار حفيظة الشماليين نحوه فلم يذكروه في قائمتهم ولكن خليفته الملك قع أعاد الأمور إلى ما كانت عليه

(١) والترب. امري: المرجع السابق، ص ٤٠ ـ ٤١.



(شكل ٨) بطاقة ابنوسية للملك حور عحا.

من ود نحو الشماليين وأظهر سخطه بمحو إسم سلفه عن الآثار[١].

يتضح مما سبق أن فراعنة مصر الأوائل لم يتركوا فرصة من الفرص لإرضاء الشماليين إلا وانتهزوها، ويمكن القول أن محاولة إرضاء أهل الشمال يساعد المؤرخ على القول بأن هذه المرحلة الهامة من تكوين الحضارة المصرية القديمة كانت تجمع فعلاً بين حضارتي الشمال والجنوب مما يعطيها وحدة حضارية محلية، إلا أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن الفراعنة قد اضطروا في بعض الأحيان إلى القيام بعمليات قمع عسكرية ضد الشماليين وذلك عندما يستدعي الأمر ذلك حتى يستتب الأمن في ربوع البلاد. ومن ذلك قيام الملك خع سخم بحملة حربية في الشمال وذلك استناداً على ما ورد من

(١) أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص ١٤٧ - ١٤٨.

نقوش على بعض أواني الملك والتي فسرت بعام محاربة الشماليين.

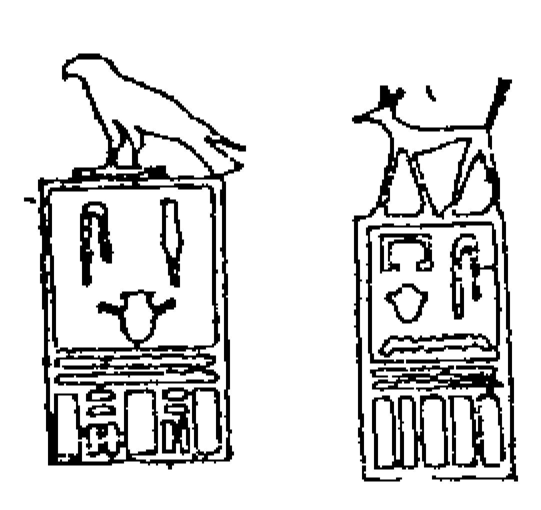
وفي نهاية الحديث عن السياسة الداخلية في عصر الأسرتين الأولى والثانية، تتناول مسألة تصوير الملك برايب سن الحيوان ست فوق سرخه بدلاً من الصقر حور (شكل ٩)، فلقد أثار هذا الأمر جدلاً كبيراً بين علماء المصريات الذين رأى بعضهم أنه يمثل ثورة دينية قام بها برايب سن ضد حور أو أنه يمثل نوعاً من الصراع السياسي والديني بين الشمال والجنوب.

ويمكن القول اعتماداً على الأدلة الأثرية إنه لم يكن هناك في الغالب خصومات سياسية أو دينية، ويقترح الباحث ترتيب الأحداث في هذه الفترة المضطربة على النحو الآتي:

لقد هاجم الليبيون الدلتا في عهد الملك ني نثر واحتلوها، وحاول الملك ني نثر استرداد الدلتا ولكنه لم يتمكن من استردادها ودحر الغزاة. ولما اعتلى برايب سن العرش اتخذ الإسم الحوري «سخم ايب» الذي يعنى قوى القلب، وتلقب بلقب «برن ماعت» الذي يعني الذي خرج للعدالة. ويدل هذان الإسمان على أن الملك كان شجاعاً وأن حروبه لم يكن الغرض منها هو مجرد الحرب وسفك الدماء بل كان يبغي تحقيق العدالة المتمثلة في تطهير البلاد من المعتدى الأثيم، وانتسب الملك لإله آخر هو الإله رع الذي ظهر على بعض أختام الملك مع إسمه المنتسب لست.

ويتضح من ذلك أن الملك سخم ايب قد أراد خوض غمار هذه الحروب تحت رعاية بعض آلهة مصر الكبار حتى تمنحه تلك الآلهة النصر المؤزر على أعدائه، ولم تؤد جهوده إلى تطهير البلاد من الغزاة، فكان على خليفته خع سخم مواصلة الجهاد لتحرير البلاد وقد نجح في تحقيق ذلك.

أما عن الأدلة التي يعتمد عليها في عدم حدوث ثورة دينية أو صراع سياسي بين الشمال والجنوب فتمثل في حقيقة العثور على الأختام الخاصة بالملك والتي تحمل إسمه الحوري في المقبرة التي تنسب إليه بأبيدوس جنباً إلى جنب مع الأختام التي تحمل إسمه منتسباً لست، فلو كانت هناك ثورة دينية ضد



(شكل ٩) الإسم الحوري واسم ست للملك بر إيب سن .

حور لما احتفظ الملك بأختامه التي يظهر فيها منتسباً إليه . ويستدل من الألقاب التي ظهرت في هذا العصر أن الملوك كانوا مرتبطين دائماً مع حور وست فكان من بين الألقاب التي اتخذتها الملكات في هذا العصر لقب «التي ترى حور وست» كما ظهر على بعض الآثار لقب آخر يجمع بين حور وست وهو لقب «ساق حور وزراع ست» مما يوضح أنه لم توجد عداوة بين الشمال الجنوب في ذلك العهد، ولم يوجد عداء ديني بين الجانبين، بل استمرت شعائر برايب سن تقام في سقارة أكبر جبانات الوجه البحري حتى عصر الأسرة الرابعة. وصور زوسرا الإله ست في أحد معابده، ذلك الإله الذى افترض أن الملك برايب سن قد انحاز له ضد معبود الشمال حور، واعترف أحد رجال الأسرة الثالثة الكبار بالكهانة له[1].

سياسة مصر الخارجية في عصر الأسرتين الأولى والثانية :

يرى كثير من الباحثين أن وجود علاقات وثيقة منتظمة بين مصر والأقطار المجاورة لها في الفترة السابقة أو التالية لتوحيد البلاد مباشرة هو أمر بعيد الاحتمال. وتوضح الأدلة الأثرية وجود معاملات تجارية غير ثابتة وحملات مصرية للدفاع عن حدود البلاد ولتأمين الحصول على السلع غير المتوفرة في وادي النيل، ومن ثم فقد كانت علاقة مصر بالشعوب المحيطة بها يسودها

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٥٤ - ١٥٨.

السلام طالما لم تحاول تلك الشعوب تهديد أمن وسلامة وادي النيل. وعلى ذلك فقد كانت سياسة ملوك هذا العصر لا تقوم على أساس الغزو الخارجي بل على أساس التبادل الاقتصادي مع جيرانهم وتأمين حدود البلاد من أي معتد قد تسول له نفسه انتهاكها، ولقد أثبتت الأدلة الأثرية وجود علاقات بين مصر والنوبة وفلسطين والساحل السوري وجزر البحر المتوسط، وكذلك جنوب العراق القديم خلال هذا العصر.

أولاً ـ علاقة مصر بالجنوب:

فيما يتعلق بعلاقة مصر بالنوبة خلال هذا العصر فقد كانت في أساسها علاقات سلمية تعتمد على التبادل التجاري بينهما فاستورد المصريون من هناك الأبنوس والعاج وربما حجر الأبسيدان، وذلك في مقابل بعض المنتجات المصرية مثل الأواني الفخارية والحجرية، وبالإضافة إلى ذلك قام ملوك مصر الأوائل ببعض العمليات العسكرية في بلاد النوبة وصلت حتى الجندل الثاني.

ولقد بدأ الملك حور عحا سياسة تأمين حدود مصر الجنوبية فقام بحملة عسكرية على النوبة أحضر فيها العديد من الأسرى، وتمكن من مد حدود مصر الجنوبية حتى الجندل الأول. وتوضح الأدلة الأثرية مواصلة خليفته الملك جر لسياسته نحو الجنوب فوصل بجيوشه حتى الجندل الثاني حيث سجل عند النهاية الجنوبية لقمة جبل الشيخ قرب وادي حلفا نصاً صخرياً سجل قيامه بحملة عسكرية في النوبة[1]، ولا يمكن إبداء رأي حاسم فيما إذا كان هذا النقش يسجل انتصاراً فعلياً للملك جر في النوبة أم أنها كانت مجرد حملة تأديبية كان الهدف منها حماية التبادل التجاري مع بلاد النوبة أو السودان وحماية بعثات التعدين التي تعمل في مناجم الذهب في وادي حلفا. ويلاحظ أن المصريين قد أطلقوا على النوبة إسم «تاستي» وإسم «تابجت» (أرض القوس) وذلك لكون القوس السلاح الرئيسي لسكانها.

---

(١) Arkell, A. J., "Varia Sudanica", in Journal of Egyptian Archaeology, vol. 36, 1950, PP. 27-30.

ثانياً ـ علاقة مصر بالغرب :

توضح الأدلة الأثرية قيام الفراعنة بالعديد من الحملات التأديبية ضد سكان المنطقة التي تسمى «التحنو»، ويلاحظ أن هذا هو الشعب الليبي الوحيد الذي ذكر على الآثار المصرية حتى نهاية «الأسرة الثانية». ويبدو من مناظرهم المصورة على الآثار المصرية أنهم كانوا ذوي قرابة شديدة للمصريين، وتوضح العديد من الأدلة الأثرية التي عثر عليها الملك نعرمر قيامه بحملات تأديبية في هذه البلاد وقد عاد منها بالعديد من الغنائم. كما توضح الأدلة الأثرية كذلك قيام كل من الملك جر والملك قع بحملات التأديب ضد الليبيين. ورغم تلك الحملات التأديبية فقد تمكن الليبيون من احتلال الدلتا في عهد الملك برايب سن لفترة من الوقت إلى أن تمكن الملك خع سخم من طردهم منها[1].

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقات بين مصر وليبيا خلال هذا العصر لم تكن كلها علاقات عسكرية، إذ يبدو مرجحاً من الأدلة الأثرية أن الملك دن قد أحضر زيت الزيتون من أرض التحنو بالطرق الودية ـ إذ لا تشير الآثار التي عثر عليها لهذا الملك قيامه بالحرب في أرض التحنو.

ثالثاً ـ علاقة مصر بالشمال الشرقي :

أما عن طبيعة العلاقات بين مصر وسوريا وفلسطين خلال هذا العصر، فقد كانت علاقة سلمية أساسها التبادل التجاري بين الطرفين، فلقد كان الدافع الاقتصادي هو الدافع الرئيسي المباشر في تلك الصلات أثناء هذا العصر.

وتؤيد الأدلة الأثرية المختلفة وجود صلات بين مصر وسوريا منذ عصور ما قبل الأسرات وتتمثل تلك الأدلة في العثور في أرضية معبد في جبيل

---

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٨٠ ـ ٨١. وكذلك:
Gardiner, A. H., Op. cit., P. 417.

يؤرخ بعصر الدولة الوسطى على العديد من الأشياء المصرية الطابع مثل السكاكين المصنوعة من الظران وبعض اللوحات والتمائم الحيوانية الصغيرة، وكذلك بعض الأواني الحجرية التي من أهمها قطعة من آنية حجرية مصقولة عليها إسم الملك خع سخموي آخر ملوك الأسرة الثانية، وقد أحضرت هذه الآثار مع عمليات النشاط الاقتصادي وعثر عليها أما في ودائع الأساس أو في الطبقات المعاصرة.

وكان الهدف الرئيسي من هذه الصلات هو الحصول على أخشاب الأرز من هذه المنطقة، وقد عثر على بعض قطع منه في مقابر البداري، كما استخدم هذا الخشب كذلك في تشييد المصاطب في أبيدوس وسقارة وغيرها وأحضر المصريون من هذه البلاد كذلك الزيت والراتينج الذي جلب في أوان فخارية عثر عليها في مصر، وهي توضح الملامح السورية في زينتها وشكلها[1].

وفيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وفلسطين فتوضح بعض الأدلة الأثرية وجود علاقات اقتصادية بينهما منذ عصر ما قبل الأسرات الأخير، ويتمثل ذلك في العثور على عدد من الأواني الفخارية ذات الأيدي المموجة في المعادي وجرزة ونقادة والذي يرجع في أصوله إلى فلسطين. كما عثر كذلك في تل الشيخ جنوب فلسطين على شقفة من الفخار تحمل إسم الملك نعرمر مما قد يدل على وجود صلات اقتصادية وحضارية بين البلدين[2].

ويتضح من ذلك أن علاقة مصر مع سوريا وفلسطين في عصر الأسرتين الأولى والثانية كانت علاقات سلمية أساسها التبادل التجاري، وإن نشاط الفراعنة العسكري في شرقي البلاد كان قاصراً على تأمين طرق القوافل التجارية والبعثات الاقتصادية التي تعمل في المحاجر والمناجم في الصحراء الشرقية وسيناء.

---

(١) رشيد الناضوري: أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، الإسكندرية، ١٩٦٨.

(٢) Petrie, W. M. F., The Royal Tombs of the First Dynasty, I. London, 1900, PP. 161 - 18.

رابعاً ـ العلاقة بين مصر وجزر البحر المتوسط:

توضح الأدلة الأثرية احتمالية وجود علاقات تجارية معينة بين مصر وجزر البحر المتوسط خاصة جزيرة كريت منذ عصر ما قبل الأسرات، إذ عثر في البداري على بعض الأواني ذات النمط الإيجي وهي تتميز برقبتها الضيقة وبأن لها أربع أياد عمودية حول الوسط، ولقد عثر في أبيدوس على عدد من هذه الأواني التي نسبت إلى أصل إيجي في المقابر التي تنسب لكل من الملكين جروسمرخت، كما عثر في المقبرة التي تنسب للملك جت في سقارة على آنيتين من هذه الأواني ويتجه البعض إلى الاعتقاد بأن مصر كانت تصدر لكريت معدن النحاس في مقابل النبيذ والزيت الذي ربما يكون قد جلب في هذه الأواني التي عثر على نماذج منها في مصر[1].

ومن ناحية أخرى فقد عثر في أنقاض المنازل التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث الأخير أسفل البهو الرئيسي لقصر مينوس في كريت على قطع لأوان حجرية تشبه في صناعتها الأواني المصرية التي ترجع إلى هذا العصر ويحتمل أن المصريين هم الذين قاموا بهذه الرحلات خاصة وأنهم قد وصلوا إلى سواحل فينيقية من قبل. أو أن يكون أهل كريت هم الذين قاموا بها خاصة وأنهم قد اعتادوا الملاحة بين جزر بحر إيجه أو أن يكون كلاً من الطرفين قدتقابلا على الساحل في ميناء جبيل[2].

خامساً ـ العلاقة بين مصر والعراق:

يتجه بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأنه قد وجدت صلات تجارية وحضارية بين مصر وجنوب العراق القديم في الفترة المبكرة لهذا العصر، والفترة السابقة له. وتوضح تلك الصلات حقيقة العثور على بعض نماذج الصناعة العراقية في بعض المواقع المصرية ويتمثل ذلك في مجموعة من الأواني الفخارية ذات الصنابير المائلة والأواني ذات الآذان المثلثة عثر عليها

---

(١) Emery, W. B., Archaic Egypt, P. 18.

(٢) جان فركوتيه: قدماء المصريين والإغريق، ص ٢٠ ـ ٢١ وكذلك سيد الناصرى: الإغريق، تاريخهم وحضارتهم، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٣.

في موقعي مستجدة والبداري في مصر وتنتمي تلك الأواني إلى عصر حضارة جمدة نصر في العراق القديم .

وتتمثل نماذج الصناعة العراقية كذلك في حقيقة العثور على أربعة أختام إسطوانية في كل من جرزة ونجع الدير وهي تنتمي إلى عصر حضارة الوركاء وعصر حضارة جمدة نصر في العراق القديم[1] . إلا أنه يلاحظ أن المصريين قد استخدموا الاسطوانات لأغراض لا شبيه لها في بلاد ما بين النهرين فقد استخدمها المصريون كأختام تكتب عليها أسماء الموظفين وألقابهم ، وكذلك بعض أسماء الملوك ، بينما كانت الأختام العراقية تحمل رسوماً لا نقوشاً ، كما أن الأختام المصرية كانت تصنع عادة من الأخشاب وهو المادة التي لم تستعمل في بلاد النهرين[2] .

ويوضح تلك الصلات كذلك بعض نماذج التشابه الفنى بين مصر والعراق في هذه الفترة المبكرة ويتضح من وجود بعض الأشكال الزخرفية والأساليب الفنية العراقية على بعض الآثار المصرية ، ويظهر ذلك واضحاً على سبيل المثال في نقوش يد سكين عثر عليها فى جبل العركي بالقرب من نجع حمادي ، ويظهر في هذه النقوش رجل يفصل بين أسدين ، ومثل هذا المنظر مألوف في العراق ولكنه نادر في الآثار المصرية . كما يظهر ذلك أيضاً في نقوش لوحة الملك نعرمر الاردوازية التي نقش فيها حيوانان خرافيان مركبان ، فقد يكون الجسد جسد أسد ولبؤة والرقبة رقبة ثعبان والرأس رأس فهد[3] . ومما هو جدير بالذكر أن تأثر مصر بهذا الأسلوب الفني كان تأثراً مؤقتاً ومحدوداً إذ اختفى من مصر لحد كبير بعد بداية الأسرة الأولى بينما استمرت هذه المظاهر في العراق القديم حتى آخر أيامه .

ويرى بعض العلماء كذلك أن مصر قد اقتبست من العراق القديم ظاهرة

(١) Edwards, I. E. S., In Cambridge Ancient History, Vol.I, Part II, 1971, PP. 42 - 43.

(٢) Frankfort, H., The Brith of Civilization in the Near East, London, 1951, P. 101.

(٣) Edwards, I. E. S., Op. Cit., P. 41.

الفجوات المنتظمة في العمارة وهي الظاهرة التي ظهرت أول أمرها في مصطبة نيت حتب بنقادة. ويبنون رأيهم على أساس أنه يمكن تتبع أصل هذه الظاهرة المعمارية في العراق بينما لا يمكن تتبعها في مصر[1].

ويتجه بعض العلماء كذلك إلى القول بأن فضل اختراع الكتابة الهيروغليفية المصرية يرجع إلى تأثير سومري وذلك على اعتبار أن مصر قد أخذت عن العراق القديم فكرة الكتابة. إلا أنه يمكن تتبع الكتابة الهيروغليفية المبكرة منذ عصر ما قبل الأسرات الأول في نقادة وذلك قبل ظهور التأثيرات السومرية. كما يتفق العلماء على أن الكتابة الهيروغليفية المصرية في مرحلتها التصويرية قد عبرت عن مظاهر البيئة المصرية الصميمة ولم يظهر فيها أي أثر أو دليل يوضح أن فكرتها ترجع إلى أصل سومري.

ويرجح أن تكون تلك المؤثرات قد وصلت إلى مصر إما بواسطة الطريق البحري عن طريق البحر الأحمر ثم أحد الأودية التي تربط بين البحر الأحمر ووادي النيل مثل وادي الحمامات الموصل بين القصير وقفط أو وادي الطميلات الموصل بين جنوب شرقي الدلتا والبحر الأحمر أو أن الإتصال كان يتم في أحد موانيء البحر الأحمر مثل السويس أو القصير وأن تكون تلك المؤثرات قد وصلت عن طريق سوريا خلال الهلال الخصيب[2] أو أن يكون الاتصال بين الطرفين قد تم في المناطق التي يجلب منها البخور في جنوب الجزيرة العربية أو الشاطيء قد تم في المناطق التي يجلب فيها البخور في جنوب الجزيرة العربية أو الشاطيء الصومالي[3]. ولا يمكن إبداء رأي حاسم في هذا الموضوع قبل عمل مسح أثري لمنطقة سواحل الجزيرة العربية حتى يمكن معرفة المحطات التي اتبعت في وصول هذه المؤثرات.

---

(١) Wilson, J. A., The Cultures of Ancient Egypt, P. 37.

(٢) Engelbach, R., "The Advent of the Dynastic Race", in ASAE, vol. XLII, 1943, P. 208.

(٣) Frankfort, H., op. cit., PP. 110-111.

الفَصْلُ الثَّالِث

الدَولة القديمة

الدولة القديمة

(عصر بناة الأهرام)

٢٧٨٠ ق. م - ٢٢٣٠ ق. م

تعرف عصور الدولة القديمة عادة بتعريفين إصطلاحيين وهما: «العصور المنفية» للدلالة على استقرار فراعنتها وحكوماتهم المركزية في مدينة منف، وبلغت وحدة البلاد أتمها خلال هذا العصر. ولم يعد هناك نزاع بين الصعيد والدلتا، مما أدى إلى تركيز السلطة في أيدي الملوك، الأمر الذي ساعدهم على النهوض بالبلاد من النواحي الداخلية والخارجية، وبلغت الحضارة المصرية مراحل متقدمة من النضج والتحضر.

ويطلق على هذا العصر كذلك «عصر بناة الأهرام» نظراً لما تميز به هذا العصر من تشييد أهرامات فخمة، فقد اعتاد الملوك أن يشيدوا لأنفسهم أهراماً يدفنون فيها على حافة الصحراء الغربية في الجيزة وسقارة وميدوم ودهشور وأبي صير ودهشور. وتعتبر هذه الأهرامات مفخرة لعصر الدولة القديمة ودليلاً على ما وصلوا إليه من تقدم وكفاية.

وتتكون الدولة القديمة من الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة. ونبدأ بالأسرة الثالثة.

الأسرة الثالثة

تبدأ عصور الدولة القديمة بعصر الأسرة الثالثة. وتجابه المؤرخ في دراسة عصر هذه الأسرة عدة أمور رئيسية تتصل بنشأتها وترتيب ملوكها وسياستهم الداخلية والخارجية وسنحاول دراسة هذه الموضوعات فيما يلي:

أولاً ـ نشأة الأسرة الثالثة:

يرتبط تأسيس الأسرة الثالثة بثلاثة ملوك: هم: سانخت ونب كا ونثررخت، وهناك العديد من الأدلة الأثرية التي تحمل أسماء هؤلاء الملوك الثلاثة. وقد اختلفت آراء المؤرخين حول ترتيب هؤلاء الملوك وبيان تتابعهم على العرش ومن منهم ينسب إليه فضل تأسيس الأسرة الثالثة. ويمكن تحديد تلك الآراء في اتجاهين: يرى أصحاب الاتجاه الأول أن الملك نثررخت هو أول ملوك هذه الأسرة بينما يرى أصحاب الاتجاه الثاني أن الملك سانخت هو الذي قام بتأسيس الأسرة الثالثة ويوحد أصحاب الرأي الملك سانخت مع الملك نب كا[1].

يعتمد أصحاب الاتجاه الأول في تأييد رأيهم على بعض الأدلة الأثرية ومنها طبعات الأختام التي عثر عليها في كل من أبيدوس وبيت خلاف والتي توضح الصلة المباشرة بين الملك نثررخت والملك خع سخموي آخر ملوك الأسرة الثانية عن طريق الملكة ني ماعت حب. فقد عثر على انطباع ختم طيني في مقبرة الملك خع سخموي بأبيدوس كتب عليه إسم الملكة مرتبطاً بعبارة «أم

(١) انظر عن هذه الاراء: أحمد أمين سليم: دراسة تاريخية لنشأة الاسرة الثالثة وتطورها السياسي والحضاري، رسالة دكتوراه، الإسكندرية، ١٩٨١.

أبناء الملك»[1] وعثر كذلك على انطباع ختم طيني في المقبرة التي تنسب إلى الملك نثرخت في بيت خلاف -والتي عثر فيها على طبعات أختام خاصة به كتب عليها إسم الملكة ثلاث مرات وفي كل مرة كان يذكر بعد إسمها لقب من ألقابها. وأولى هذه الألقاب التي ذكرت «أم ملك مصر العيا والسفلى» وهو الأمر الذي يرجح كون الملكة ني ماعت حب زوج خع سخموي وأم نثرخت.

ومن بين الأدلة التي يسوقها أصحاب هذا الرأي كذلك ما ذكره كورت زيته من وجود وجه شبه قوي بين طبعات أختام الملك خع سخموي التي عثر عليها في أبيدوس وبين طبعات أختام الملك نثرخت التي عثر عليها في بيت خلاف، مما يرجح وجهة نظره في كون عهود هذين الملكين متقاربة وان أحدهما قد خلف الآخر. ويرى أصحاب الرأي أيضاً أن تسجيل بردية تورين لإسم جسر بالمداد الأحمر دليل على أهميته كمؤسس لعصر جديد[2].

أما أصحاب الاتجاه الآخر الذي يذهب بأن الملك سانخت هو مؤسس الأسرة الثالثة فيرون أن الملك سانخت هو الأخ الأكبر للملك نثرخت، وأنه لم يقدر له الجلوس على عرش البلاد لفترة طويلة وعند وفاته لم يكن قد أنجب سوى بنت كانت عند وفاة والدها في سن صغيرة فخلفه على العرش أخوه نثرخت.

وبناء على الأدلة الأثرية والنصية فإنني أرجح الرأي الأخير، وهو كون الملك سانخت أول ملوك الأسرة الثالثة وذلك على اعتبار أن الملك خع سخموي قد تزوج من ثلاث سيدات أنجب من زوجته الرئيسية التي لم تعرف إسمها ابنته الأميرة حتب حرنبتي ومن زوجه الثانية التي لم يعرف إسمها أيضاً ابنه سانخت ومن زوجه الثالثة ني ماعت حب ابنه نثرخت. واكتسب «سانخت» الإبن الأكبر للملك خع سخموي الشرعية في حكم البلاد نتيجة

(١) Petrie. W. M. F, The Royal Tombs of the Earliest Dynasties. vol. II. P. 210.

(٢) Garstang. J., sethe. K., Mahsna and Bet Kallaf. London. 1903. PP. 7. 22 - 23.

زواجه من الأميرة حتب حرنبتي الوارثة الشرعية للعرش وأثمر زواجهما عن إنجاب الأميرة إنت كا ا س وعندما وافى الأجل الملك سانخت خلفه على العرش أخوه نثررخت الذي اعترف في بداية عهده بمكانة هاتين السيدتين زوج أخيه وابنتها ـ وعلو قدرهما ـ فنقش إسميهما مع إسمه على العديد من القطع الأثرية التي عثر عليها في بقايا معبده في مدينة أونو. ومن الأدلة الأثرية النصية التي ترجح هذا الرأي حقيقة العثور على طبعة الختم الخاص بالملكة ني ماعت حب في المقبرة التي تنسب إلى الملك نثررخت في بيت خلاف مع طبعات الأختام الخاصة بالملك نثررخت مما يشير إلى العلاقة الوثيقة بينهما. بينما لا توجد أدلة أثرية أو نصية تشير إلى وجود أية صلة بين الملك سانخت وبين ني ماعت حب مما يدل على أنه كان ابناً للملك خع سخموى من زوجة أخرى.

ويضاف إلى تلك الأدلة السابقة دليل أثري آخر يتصل بالتطور المعماري للمقابر التي تنسب إلى الأسرة الثالثة في بيت خلاف. فالجزء المتبقي من البناء العلوي للمقبرة التي تنسب إلى سانخت يوضح أنه قد بني أصلاً في هيئة درجات تشبه شكل الهرم المدرج ويمكن أن يستدل على طراز مقبرة سانخت لهذا الشكل من البناء الذين أخذ نثررخت فكرته وعدلها في بناء هرمه، مما يشير إلى أسبقية سانخت لأخيه الملك نثررخت في حكم البلاد. ويلاحظ من ناحية أخرى أن تطور مستوى بناء المقابر الملكية في عصر الأسرة الثالثة على هيئة أهرام مدرجة قد أدى إلى وجود خط متواصل يمكن إثباته للترتيب الزمني لتشييداتهم بدءاً من الملك نثررخت. ونظراً لعدم العثور حتى الآن على بناء هرمي يمكن نسبته إلى الملك سانخت غير المقبرة التي تنسب إليه في بيت خلاف فإن وضعه على رأس الأسرة قبل نثررخت يصبح أمراً مرجحاً.

ويتجه العديد من المؤرخين إلى توحيد الملك سانخت بالملك نب كا، ولقد كان كورت زيتة هو أول من اقترح امكانية توحيد الملك سانخت بالملك نب كا وذلك من واقع فحصه لطبعات الأختام التي عثر عليها في المقبرة التي تنسب إلى سانخت في بيت خلاف. ويعتمد أصحاب هذا الرأي كذلك على ما ذكرته قائمة ملوك أبيدوس وبردية تورين من أن الملك نب كا قد سبق

الملك نثرخت في الجلوس على العرش، ونظراً لأن الملك سانخت قد سبق الملك نثرخت في الجلوس على عرش البلاد ـ وهو الرأي الذي نرجحه ونأخذ به ـ فعلى ذلك يصبح توحيد الملك الذي ذكرته آثار عصره بالإسم الحوري سانخت بالملك الذي ذكرته القوائم بإسم «نب كا» أمراً مرجحاً.

ترتيب ملوك الأسرة الثالثة:

يمكن محاولة ترتيب ملوك هذه الأسرة بالاعتماد إلى حد كبير على الأسس الأثرية التي من أهمها تتبع خط التطور المعماري الذي تم خلال عصر هذه الأسرة، وتمثل في تشييد المقابر الملكية على هيئة إهرامات مدرجة ويمكن ترتيبهم على أساس ذلك على النحو الآتي:

١ ـ سانخت (نب كا).
٢ ـ نثرخت.
٣ ـ سخم خت.
٤ ـ خع با.
٥ ـ نب كارع.
٦ ـ حو (حوني).

وأوضحنا من قبل الأدلة التي تؤيد أسبقية سانخت كمؤسس للأسرة جاء بعده الملك نثرخت. وفيما يتصل بالملك الثالث وهو سخم خت فإن اسمه يفيد معنى «قوي الجسد» وقد بدأ تشييد هرم مدرج له إلى الجنوب الغربي من هرم نثرخت إلا أنه لم يتمكن من إتمام بنائه[1]، كما ترك نقشاً في وادي مغارة بسيناء. ويعتمد ترتيب الملك سخم خت بعد نثرخت على أساس أن هرمه قد شيد على هيئة بناء مربع له صفة الإهرامات المدرجة، وقد اتخذ هذه الهيئة منذ أول مرة بعكس هرم الملك نثرخت الذي تعدل تصميمه أكثر من مرة أثناء بنائه.

---

(١) Mohamad Zakaria Ghoneim ,The Buried Phyramid , London, 1956.

ومن هذه الأدلة كذلك العثور على قطعة من إحدى لوحات الحدود الخاصة بالملك نثررخت والتي تحمل اسمه الحوري في جدار هرم سخم خت ، وقد أعيد استخدامها كمادة بناء مما يؤكد أسبقية عهد الملك نثررخت لعهد الملك سخم خت.

وفيما يتصل بالملك خع با فقد عثر على اسمه منقوشاً على ثمانية أوان مصنوعة من المرمر في إحدى المصاطب المشيدة من اللبن بجوار الهرم الذي ينسب إليه في زاوية العريان[1] ، ويتشابه هرم هذا الملك مع هرم سخم خت بشكل كبير مما دعا إلى القول بأنه شيد بعد هرم سخم خت مباشرة.. ونظراً لعدم الكشف حتى الآن عن أي آثار ملكية أخرى يمكن نسبتها إلى الأسرة الثالثة وتوضع بين هذين الملكين ، فإن خع با يكون هو خليفة الملك سخم خت مباشرة. ومن ناحية أخرى فإنه يلاحظ وجود شبه بين هؤلاء الملوك الأربعة (سانخت ـ نثررخت ـ سخم خت ـ خع با) يتمثل في التشابه في نقوش أختام الأواني التي تحمل الأسماء الحورية لهؤلاء الملوك مما قد يشير بطريقة غير مباشرة إلى تتابع هؤلاء الملوك على العرش وعدم وجود فترات زمنية متباعدة تفصل بينهم.

أما خامس ملوك الأسرة وهو نب كارع فينسب إليه هرم إلى الشمال من هرم خع با في زاوية العريان[2] ويستدل من تخطيطه وأبعاده وقطاعاته أنه أكثر تطوراً من أهرام أسلافه.

أما آخر الأسرة وهو الملك حوني فقد ورد اسمه في كل من قائمتي تورين وسقارة كآخر ملوك الأسرة الثالثة ، وقد شيد لنفسه هرماً في ميدوم[3]

---

(١) Barsanti, A., "Ouverture de la Pyramide de Zaouiet - el - Aryan", in ASAE, vol II, 1901, PP. 92 - 94.

(٢) Barsanti, A., "Foilles de Zaouiet - el - Aryan" in ASAE, tom - 7(1906), PP. 260 - 286., Tom. 8 (1907) PP. 201 - 210., Tom. 12 (1912), PP. 57 - 63.

(٣) محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧

ويعتبر تصميمه المعماري مرحلة انتقال بين الهرم المدرج والهرم الحقيقي والذي ظهر في عصر الأسرة الرابعة ، ويكون الجزء الواقع فوق سطح الأرض نواة البناء أضيفت إليها ثماني طبقات من المباني في كل من الجهات الأربع جعلت منه هرماً مدرجاً ذا ثماني درجات من طراز الهرم ذي الطبقات وكسيت كل درجة بكساء من الحجر المنحوت ثم مليء ما بين المدرجات ثم كسيت بالحجر الجيري الناعم ليصبح شكله كهرم حقيقي ويحيط به أقدم مجموعة هرمية كاملة تم الكشف عنها حتى الآن ، ومن ثم فإن هذا الهرم يمثل المرحلة النهائية في تطور الهرم المدرج وأنه يكاد يكون من المؤكد أنه يسبق أهرام سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة مباشرة ، وتقدر مدة حكم الملك حوني بحوالي أربعة وعشرين عاماً .

السياسة الداخلية في عصر الأسرة الثالثة :

توضح المادة الأثرية المتبقية من هذا العصر والمتمثلة في مقابر الملوك المشيدة على هيئة إهرامات مدرجة مبنية بكتل الحجر الجيري المحلي والمكسوة بالأحجار الجيرية وجود تنظيم إداري قوي ومنظم تمكن من تشييد هذه العمائر الضخمة لأول مرة في تاريخ البشرية .

وكان الملك على رأس الجهاز الإداري الذي اتخذ من العاصمة منف مقراً له ، واتخذت الملكية في هذا العصر ألقاباً جديدة تتمشى مع تطور النظام الملكي ، وترتبط بالعقائد الفكرية المصرية ارتباطاً وثيقاً . ويتمثل ذلك في اتخاذ اللقب «رع نب» الذي يفيد معنى «الشمس الذهبية» ويشير من ناحية أخرى إلى انتساب الملك إلى رب الشمس وهو الإله رع ، وأول من اتخذ هذا اللقب الملك نثرخت .

وبالإضافة لهذا اللقب فإنه يستدل من بعض الأدلة الأثرية على احتمال اتخاذ الملك نثرخت للقب «حور نب» الذي يفيد معنى «حور الذهبي» ويشير إلى ارتباط الفرعون بهذا الإله . ويذكر هنري فرانكفورت إن استخدام علامة الذهب في الألقاب الملكية في عصر الأسرات الثلاث يشير إلى أن

هذا اللقب يعبر عن ألوهية الملك بتجسيده لحوز الذي لا يفقد لمعانه وتلك خاصية من خصائص الذهب وكذلك الشمس.

وتوضح الشواهد الأثرية والنصية التي ترجع إلى هذا العصر أن طريقة تركيز السلطة في يد الملك وأسرته ممن يرتبطون به برابطة الدم كما ظهرت فيما بعد في بلاط الملك خوفو لم تكن قد اكتملت بعد في عصر الأسرة الثالثة.

وأظهرت الأدلة الأثرية وجود عدد كبير من رجال الدولة الأكفاء المرتبطين بالحرف والأعمال العامة، وكان الطريق ممهداً أمامهم لتولي الوظائف الكبرى في الدولة[1]، فقد كانت الحاجة ماسة إلى هذه النوعية من الرجال الذين يتولون المناصب حسب كفاءتهم ومهارتهم وإمكانياتهم، وكان لهذه السياسة أثرها الكبير في تحقيق هذه الطفرة الكبيرة من التطور التي شهدها هذا العصر.

وفيما يتصل بمنصب الوزير فإنه يلاحظ من الأدلة الأثرية التي عثر عليها حتى الآن أنه لم يتلقب أحد من كبار رجال الدولة في هذا العصر بلقب «ثاتي» أي «وزير» وإن كان قد تقلد بعضهم من الوظائف والمهام ما يصل به إلى هذه الدرجة. ولا يعني ذلك أن هذه الوظيفة لم تكن قد عرفت بعد، إذ يبدو أنها قد وجدت على الأقل منذ عصر الأسرة الثانية.

وحفظت الأدلة الأثرية أسماء العديد من كبار رجال الدولة والوظائف التي كانوا يتقلدونها ومن أشهرهم ايمحوتب مهندس الملك نثرخت المعماري الذي وصل إلى درجة رفيعة في البلاط الملكي، فسجل اسمه وألقابه على قاعدة تمثال للملك نثرخت وحمل ايمحوتب العديد من الألقاب ومنها: حامل ختم ملك مصر السفلى، الأول بعد الملك في مصر العليا، مدير البيت الكبير، الأمير الوراثي. وسجلت المصادر المتأخرة بعض الألقاب الأخرى الخاصة به ومنها: المشرف على أعمال المباني في مصر

---

(1) Smith. W. S., in CAH., vol. I, part II, Cambridge, 1971, P. 160.

العليا والسفلى، المشرف على مدينة الهرم، الوزير، المشرف على الكهنة المرتلين لملك مصر العليا والسفلى.

ونعم ايمحوتب بسمعة طيبة كواحد من كبار الحكماء المصريين، وأعطت شهرته كحكيم انطباعاً عميقاً حتى أنها أصبحت تقليداً وطنياً لقرون عديدة، وتناولت الأجيال حكمته المتضمنة فلسفة الحياة التي علمته إياها التجارب التي عاشها وجعله المتعلمون في عصر الدولة الحديثة على رأس الحكمة والتعاليم واعتبروه من رعاة المثقفين، واعتبر في العصور المتأخرة كابن للإله بتاح.

ومنذ عصر الأسرة الرابعة اعتبر كطبيب نصف مؤله ثم عبد في العصر الفارسي كإله للطب. ويذكر مانيتون أن اليونان قد اعتبروه كاسكلبيوس نظراً لمهارته في الطب وبالإضافة إلى ذلك كله فقد ارتبط إسم ايمحوتب بعدد من المعابد التي شيدها البطالمة في مصر مثل معبد فيله ودير المدينة[1].

سياسة الأسرة الثالثة الخارجية:

لا تعطي المادة الأثرية التي كشف عنها لملوك هذا العصر حتى الآن صورة واضحة عن طبيعة علاقات مصر الخارجية، وربما يوحي عدم العثور على أدلة مباشرة تشير إلى قيام فراعنة هذه الأسرة بحملات عسكرية للدفاع عن حدود البلاد إلى أن مصر قد نعمت في هذا العصر بأمن خارجي ناجم عن استقرار حكومتها وقوتها في الداخل فلم يتجرأ أحد على انتهاك حرمتها وتدنيس ثراها المقدس..

وقد يستدل من نص متأخر يرجع إلى العصر البطلمي على أن حدود مصر الجغرافية في عهد الملك نثرخت قد امتدت في الجنوب إلى ما بعد الجندل الأول وحتى جزيرة ضرار أو جزيرة قرنة التي تقع أمام بلدة المحرقة جنوب الدكة.

---

(١) انظر:

Hurry, J. B., Imhothep, the Vizier and physician of king zoser, Oxford, 1928.

ويمكننا أن نرى في هذا النص إشارة إلى ضم بلاد النوبة بالفعل إلى مصر، وقد سجل هذا النص في العهد البطلمي حوالي نهاية القرن الثاني ق. م على صخرة عالية بجزيرة سهيل جنوبي أسوان. ويشير هذا النص إلى حدوث مجاعة في مصر في عهد نثر رخت نتيجة انخفاض مياة النيل لمدة سبع سنوات.

واختلفت آراء المؤرخين حول هذا النص، فرأي بعضهم أنه كتب في عهد بطليموس الخامس حوالي عام ١٨٧ ق. م وأنه يعكس الأحوال السيئة التي مرت بها البلاد في هذه الفترة، وعن عودة الأقاليم إلى سيادته بعد أن استقلت مؤقتاً في عهد سلفه وبداية عهده.

ويتجه بعض المؤرخين إلى القول بأن للقصة أصلاً قديماً وأن الأسلوب الذي كتب به لا يخلو من تعبيرات ترجع إلى عصر الدولة القديمة، وأنه يحتمل أنه كان للقصة أصل قديم تعرض للتلف فلما زار أحد الملوك البطالمة المنطقة أمر بنقشه من جديد[١].

وبالإضافة إلى تلك الإشارة المتأخرة والمتصلة بحدود مصر الجنوبية، فإنه لا توجد لدينا من هذا العصر أية أدلة أثرية معاصرة سوى قطعة من الجرانيت الأحمر نقش عليها خرطوشان للملك حوني عثر عليها في الفنتين، وقد سجل عليها تأسيس بناء يرجح أن يكون إشارة إلى الاستحكام الذي شيده الملك حوني في هذه المنطقة لتأمين حدود مصر الجنوبية.

وتوضح نقوش وادي مغارة بسيناء قيام فراعنة الأسرة الثالثة الأوائل بحملات تأديبية في هذه المنطقة لتأمين طرق القوافل التي تتجه إلى هذه المناطق لاستخراج الأحجار الكريمة الموجودة محاجرها بها. وتشير هذه النقوش إلى اهتمام فراعنة الأسرة الثالثة بهذه المنطقة واستغلالها لحماية مرور القوافل بها.

(١) انظر:

Barguet, P., la Stele de la Faminc a Sahel, Cairo, 1953., Wilson, J., "The Tradition of Seven Lean Year in Egypt", in ANET, 1966, PP. 31 - 32.

فترك أول فراعنة الأسرة سانخت في وادي مغارة بسيناء نقشين يوجد أحدهما في المتحف المصري بالقاهرة والآخر في المتحف البريطاني، وهما يمثلان الملك وهو يقوم بتأديب البدو.

وحذا الملك نثرخت حذو سلفه في تأمين هذه المنطقة من غارات البدو، وتوضح نقوشه التي تركها بجوار نقوش سلفه قيامه بتأديب أحد سكان هذه المنطقة، ونهج الملك سخم خت نفس المنهج فقام بحملات التأديب في سيناء التي سجلها في نقوشه التي تركها بجوار نقوش سلفيه. وقد مثل الملك مرتين وهو يرتدي تاج الجنوب، ومرة وهو يرتدي تاج الشمال. وظهر في نقشين منهما وهو يحمل في إحدى يديه مقمعة والأخرى عصا. وظهر في النقش الثالث وهو يقبض بناصية أسير راكع أمامه ويهم بضربه بالمقمعة.

الأسرة الرابعة
(من حوالي ٢٦١٣ إلى ٢٤٩٤ ق . م)

يلاحظ أنه ابتداء من الأسرة الرابعة يصبح الإسم الحوري أقل أهمية من الإسم الشخصي للملك الذي أصبح يكتب حينئذ بانتظام داخل خرطوش. وابتداء من عصر هذه الأسرة أيضاً يتطور تصميم المقبرة الملكية إلى الشكل الهرمي الكامل، كما تلحق بها (بانتظام) مجموعة جنزية تتمثل في المعبد الجنزي الذي يقع عند الجانب الشرقي من الهرم ومعبد الوادي وهو على امتداد المعبد الجنزي في اتجاه الشرق وعند حافة الوادي، والطريق الضيق الذي يصل بين المعبدين والذي يطلق عليه إسم الممر الصاعد. وأول ملوك هذه الأسرة هو الملك سنفرو.

سنفرو:

ارتقى سنفرو العرش بعد موت حوني وتنسب إليه بردية نورين مدة حكم قدرها ٢٤عاماً وبدأ مانيتون الأسرة الرابعة بملك أطلق عليه «سوريس» وهو سنفرو (نب ماعت)[١] ولقد أسس«سنفرو» أسرة ملكية، وأصبح مركزه شرعياً لاعتلاء عرش البلاد بزواجه من الأميرة «حتب حرس» التي كانت تحمل لقب «إبنة الإله» وكان لها حق وراثة العرش، على أساس أنها الوريثة المباشرة لخط الدم الملكي.

وقد اتخذ سنفرو من العدالة شعاراً له، فاتخذ لقباً معناه (سيد أورب العدالة) «نب ماعت». وظلت ذكراه طيبة لعدة قرون بعد وفاته، فكان يشار إليه بعدة صفات توضح هذه الذكرى الطيبة، ومنها «الملك المحسن» و «الملك الرحيم» و «الملك المحبوب» و «الملك الفاضل»، كما صورته

---

(١) Gardiner, A. H., Egypt of thePharaohs, P. 77.

الوثائق متواضعاً يميل إلى المعرفة، ويكرم العلماء، ويحسن الاستماع، ويكتب بنفسه، ولا يبالي أن يسأل عما لا يعرفه. كما اختار بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة ـ بعد وفاته بحوالي سبعة قرون ـ نفس المنطقة التي دفن فيها، لتكون مثواهم الأخير، تيمناً به، وتقديساً له[1]. ولسنفرو هرمان من الحجر في دهشور، يشتهر الهرم الجنوبي منهما بإسم الهرم المنحني أو المنكسر إذ ينكسر بعد منتصف ارتفاعه تقريباً بميل أكثر نحو القمة. ويعلل بعض الباحثين هذا الانكسار بالرغبة في الإسراع في إنجاز البناء بتقليل الارتفاع، أو أن يكون هذا الانكسار لتخفيف ضغط ثقل بناء الهرم فوق الحجرات الداخلية. وقد أقيم هذا الهرم على قاعدة مربعة يبلغ طول ضلعها حوالي ٦٢٠ قدم ويصل ارتفاعه إلى ٣٢٠ قدم، وللهرم مدخلان يقع أحدهما في جانبه الشمالي، ويقع الآخر في جانبه الغربي. وكشف حديثاً عن المعبد الجنزي ومعبد الوادي لهذا الهرم والممر الواصل بينهما. أما الهرم الشمالي ويشتهر بالهرم الأحمر فيقدم أول مثال للشكل الهرمي الكامل للمقبرة الملكية دون أية أخطاء[2].

هذا وتسجل حوليات سنفرو على حجر بالرمو إرسال حملات ضد النوبيين ويمكن القول أنها بلغت الجندل الثاني وكذلك إلى التحنو الليبيين أسفرت عن غنائم كثيرة من الماشية والأسرى، كما يرد في هذه الحوليات أيضاً ذكر سفن محملة بخشب الأرز خاصة، ووصول أربعين سفينة من بيبلوس محملة بخشب الأرز[3]. كذلك قام سنفرو باستخراج النحاس من منطقة سيناء. كما اهتم أيضاً بإقامة الحصون للدفاع عن الحدود الشرقية للدلتا مما يرجح أن هذه المنطقة لم تكن آمنة تماماً، وربما كانت مصدر خطر نتيجة تسرب بعض العناصر البدوية. وقد خلدت التشييدات البنائية اسمه مدة ألف وخمسمائة سنة تقريباً بعد وفاته. فظلت بعض نقط الحراسة تعرف باسمه «ساق حور ـ نب ماعت» حتى أيام الدولة الوسطى[4].

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) أحمد فخري: الاهرامات المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) Breasted, J. H., Ancient Records of Egypt, Vol. I, Chicago, 1905, Parag., 146.

(٤) Ibid., Parag. 168.

خوفو: (خنوم خو إف وي)

ارتقى العرش بعد موت أبيه سنفرو، وتزوج من أخته «مريت إيتس» (الزوجة الرئيسية)، وقد أطلق على نفسه بعد اعتلائه العرش لقباً صعبت قراءته قراءة سليمة، وربما قرىء «حور مجرو»، والذي قد يعني «حور سيد المرمى» أو «حور الدرء» (الحصين)» وبعد ذلك انتسب إلى الربتين «نخبت» إلهة الصعيد و«وادجيت» إلهة الدلتا بنفس كلمة «مجرو». وبالإضافة إلى ذلك فقد تلقب بلقب آخر يمكن أن يقرأ «حوري نب رخو» بمعنى الملك الحوري رب المعرفة أو «حوروى نب رخو» بمعنى رب العلماء، المنتسب إلى الصقرين (حور وست» أو «حورى نب رخيتيو» بمعنى رب الشعب، المنتسب إلى الصقرين[2].

ويشتهر الملك خوفو في التاريخ ببنائه الهرم الأكبر بالجيزة وهذا الهرم يغطي مساحة تزيد على الثلاثة عشر فدانا (٥٤ ألف متر مربع)، وكان ارتفاعه حوالي ١٤٦م، لم يستطع الزمن أن يزيل منها سوى التسعة أمتار العلوية واستخدم في بناء الهرم حوالي مليونين وثلاثمائة ألف حجر، ومتوسط وزن الحجر الواحد طنان ونصف. ولقد قيل أنه إذا صنع من الأحجار مكعبات طول كل ضلع منها قدم ثم وضعت جنباً إلى جنب فإن طولها يغطي ثلثي محيط الكرة الأرضية. ويقل ارتفاع الأحجار كلما ارتفعت في البناء، فارتفاع أحجار المدماك الأول متر ونصف، وارتفاع أحجار المدماك الثاني متر وربع، ويتراوح ارتفاع معظم الأحجار بعد ذلك بين تسعين وخمسة وسبعين سنتيمتراً، وارتفاعها بالقرب من القمة نحو خمسة وخمسين سنتيمتراً[3]. وتواجه الجوانب الأربعة لهذا الهرم الجهات الأصلية الأربع.. ويبلغ طول

---

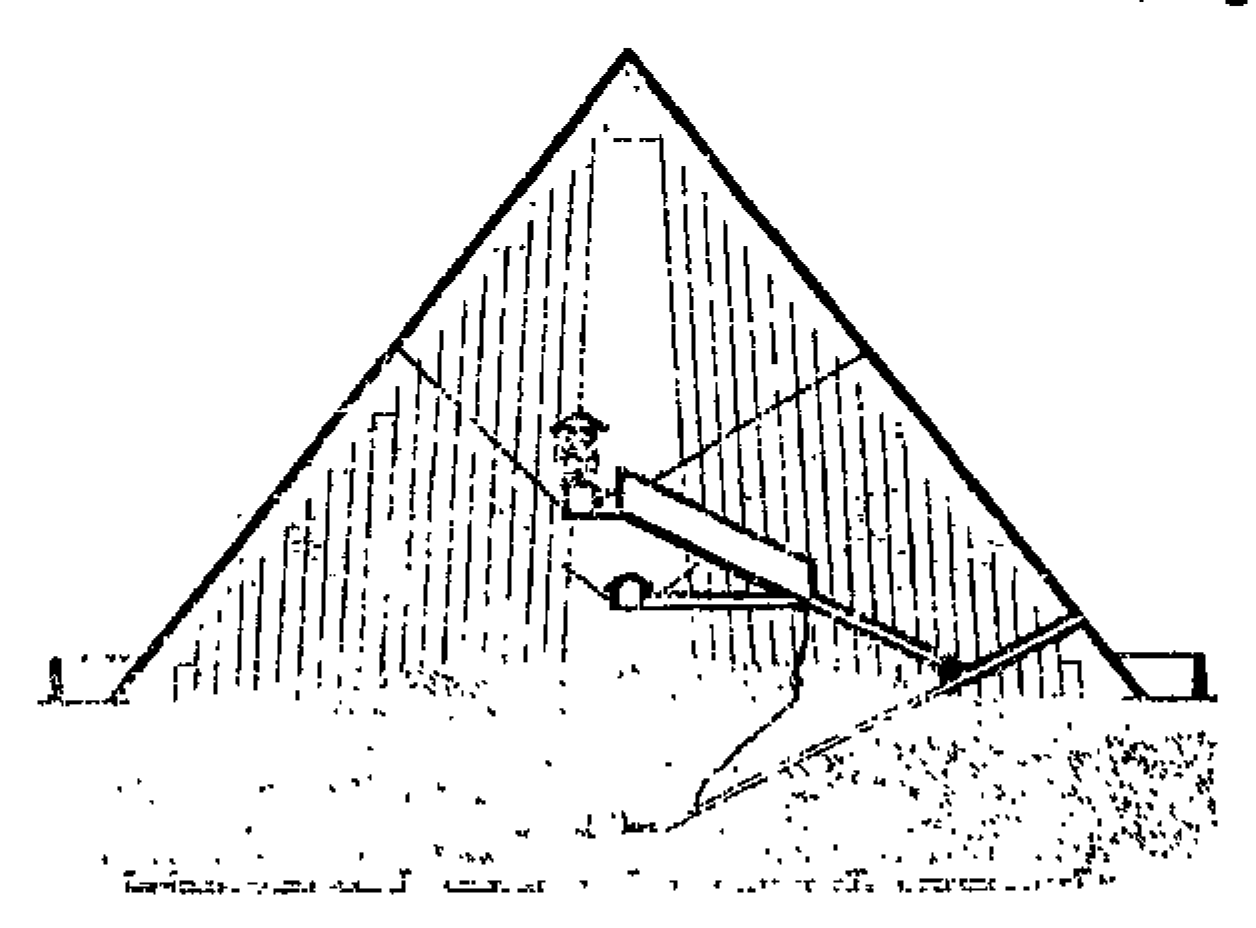
(١) Ibid., parag. 168.

(٢) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٤٤.

(٣) محمد أنور شكري: المرجع السابق، ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

كل جانب من قاعدة الهرم ٢٣ متراً تقريباً .

ويقع مدخل الهرم في الجانب الشمالي ، ويبدأ من هذا المدخل ممشى نازل إلى باطن الأرض ويؤدي إلى حجرة ربما أعدت أصلاً لتكون حجرة الدفن ، ثم عدل ذلك بتصميم حجرة الدفن في قلب الهرم الذي يعلو سطح الأرض . والوصول إلى حجرة الدفن يتم عن طريق تفرع الممشى النازل بعد حوالي ٦٠ قدماً من المدخل ويطلق عليه الممشى الصاعد وينتهي إلى قاعة كبيرة تؤدي إلى حجرة الدفن التي تتضمن التابوت ، وسقف هذه الحجرة مسطح ويتكون من تسع كتل من الجرانيت تبلغ حوالي ٤٠٠ طن ، ويعلوها خمسة أقسام منفصلة لكل منها سقف مسطح عدا القسم العلوي سقفه مدبب إلى أعلى والغرض من هذه الأقسام تحمل ضغط بناء الهرم وتخفيفه عن حجرة الدفن ، وأسفل حجرة الدفن حجرة أخرى يطلق عليها أسم حجرة الملكة ويعتبرها بعض الباحثين مشروعاً آخر لحجرة الدفن ، وعدل عنه بينما البعض الآخر يرى إنها صممت لتتضمن تمثالاً للملك لم يقدر له أن يوضع فيها . (شكل ١٠) .



(شكل ١٠) هرم الملك خوفو

وعند الجانب الشرقي للهرم توجد حفرتان كبيرتان محفورتان في الصخر للسفن التي يطلق عليها إسم قوارب الشمس (ترجع التسمية إلى الاعتقاد بأن الملك يجتاز في هذا القارب المحيط المائي للسماء في ركب إله الشمس رع). وإلى الشرق من الهرم الأكبر يقع المعبد الجنزي للملك وهو متهدم تماماً. أما معبد الوادي فلم يكشف عنه بعد.

وبمقربة من المعبد الجنزي بنيت ثلاثة إهرامات صغيرة كمقابر للملكات، زوجات خوفو، وعند كل جانب من الجوانب الشرقية والغربية والجنوبية من الهرم توجد عدة صفوف من المصاطب تكون جبانات ضخمة دفن فيها أفراد أسرة خوفو والنبلاء والكهنة الذين كرسوا حياتهم للقيام بالخدمة اليومية في المعبد الجنزي.

وفي ضوء هذه الإنجازات الضخمة تحدثت الأساطير المتأخرة عن خوفو كطاغية مستبد، والواقع أن الأمر لم يتطلب استعباد ويمكن القول بأن السلطة المطلقة التي كانت لخوفو كفرعون إله يؤمن المصريين بقداسته مكنته من الاستخدام الكامل لموارد الثروة والطاقات البشرية في إقامة مبانيه.

وفيما يتعلق بسياسته الخارجية فهناك ما يشير إلى ازدهار التجارة بين مصر وفينيقيا على أيام خوفو، ويلاحظ أنه قد شيد في جبيل بلبنان معبد مصري، أضاف إليه من جاء بعده، كما تشهد ذلك أحجار هذا المعبد، التي تحمل إسم «خوفو» بل وأسماء من سبقوه على العرش، وبمن لحقوا به فراعين الدولة القديمة. وليس هناك ما يعرف حتى الآن عن الصورة الأولى التي نشأ عليها هذا المعبد، فقد يكون معبداً أموري الأصل، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه، وأهلوهم هدايا قيمة تحمل أسماءهم، ولم يمنعهم دينهم المصري من أن يتسامحوا مع معبودات جيرانهم، ويعملوا على إثراء معابدها. وقد يكون معبداً مصري الأصل شادته جالية مصرية تجارية أقامت في جبيل، وعكفت على عبادة أربابها المصريين، وسجلت أسماء ملوكها على مقتنياته. وقد يكون معبداً مصرياً أقامه أمراء جبيل أنفسهم مجاملة للمصريين وتقبلوا فيه بعض العقائد المصرية، كما تقبلوا له هدايا الفراعنة المصريين[1].

ومن ناحية الجنوب، فيلاحظ أن خوفو قد استعمل محاجر الديوريت التي تقع إلى الشمال الغربي من «توشكي». أما من ناحية الغرب، فلا تشير الأدلة الأثرية والنصية إلى قيامه بحملات عسكرية في هذه الناحية.

وقد أنجب خوفو الكثير من الأبناء أكبرهم كاوعب الذي يبدو أنه مات في عهد أبيه، ومن أبناء خوفو أيضاً حورددف، ورع دف، خع اف رع. ولقد ظهر صراع بين فرعين رئيسيين من أبناء خوفو، بين «جدف رع» وبين «خع اف رع» وربما امتد هذا الصراع إلى صفوف الكهنة والشعب. وقد أدى ذلك إلى اضطراب ترتيب ملوك الأسرة الرابعة بعد خوفو. وسنتناول فيما يلي المعالم الرئيسية لسياسة مصر الداخلية والخارجية في عهد خلفاء خوفو.

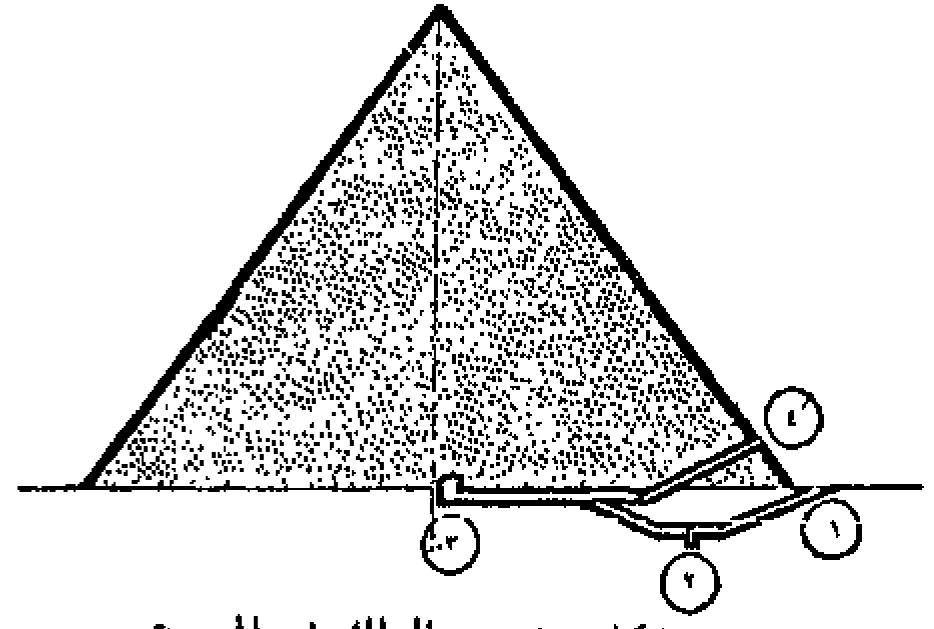
خع اف رع:

يبدو أن حزباً من الأمراء أنهى حكم حور ددف الذي اعتبر مغتصباً وأقام «خع اف رع». على العرش، وقد اتخذ بعد اعتلائه العرش لقب «حور سخم إيب» بمعنى «الجسور» و«حور سخم نب» بمعنى «حور الذهبي الشديد» و«حور نفر» بمعنى «حور الخير» و«نثر نفر» بمعنى «الإله الطيب»[٢].

وقد شيد خع اف رع الهرم الثاني من إهرامات الجيزة والذي يصغر قليلاً عن هرم خوفو (شكل ١١)، وهذا الهرم يبدو أعلى من الهرم الأكبر لإقامته على أرض أكثر ارتفاعاً نسبياً، لكن ارتفاعه الحالي هو ١٣٦ م، أي أقل من الارتفاع الحالي لهرم خوفو ويقدر الارتفاع الأصلي لهرم خع اف رغ بـ ١٤٣,٥م، كما يقدر طول كل جانب من جوانبه عند القاعدة بحوالي ٢٦٥م.

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ١٠٦، وكذا: محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٢) Gardiner, A., op. cit., PP. 87 - 89.



(شكل ١١) هرم الملك خع اف رع

ويتميز هرم خع اف رع بأن له مدخلان أحدهما في جانبه الشمالي والآخر أسفل المدخل السابق مباشرة، وكلا المدخلين يؤديان إلى حجرة الدفن المنحوتة في صخر أرضية الهرم. وكشف في هذه الحجرة عن تابوت لم يعثر على جثمان الملك فيه.

وعند القاعدة الشرقية لهرم خع اف رع يوجد معبده الجنزي المتهدم والذي عثر بالقرب من الحائط الشمالي والجنوبي له على خمس حفر لقوارب الشمس لم يعثر فيها على أي أثر لهذه القوارب، هذا بالإضافة إلى حفرة أخرى في الصخر كذلك، تقع شمال شرق المعبد، وربما كان الهدف منها أن تكون مكاناً لمركب سادسة[1].

أما معبد الوادي الخاص بخع اف رع فهو من أحسن الأمثلة الباقية لهذا النوع من المعابد، وللمعبد بابان في جانبه الشرقي وقد عثر في حفرتين به على تمثالين من الديوريت لخع اف رع يعدان من أحسن الأمثلة للنحت في عصر الدولة القديمة.

وقرب معبد الوادي لخع اف رع يوجد تمثال أبي الهول الشهير بجسم أسد رابض ورأس بشرية هي رأس الملك خع اف رع على الأرجح. ومفهوم

(١) محمد أنور شكري: المرجع السابق، ص ٣٢٥ - ٣٣٦.

الأسد الرابض في شكل أبي الهول يعني وفقاً للمعتقد المصري القديم حمايته للأماكن المقدسة التي يوجد عند مداخلها وهي عادة المعابد والجبانات، ولذلك يعني تمثيل خع اف رع في شكل أبي الهول حمايته للجبانة خلفه، واعتبر المصريون أبو الهول إلهاً أطلقوا عليه «حور - إم - آخت» أو «حور الأفق». وأما تسمية أبو الهول، فربما جاءت من المقارنة بين إسم «حور - إم - آخت» وبين إسم إله الحيثيين الذين أقطعهم الملك آي (١٣٣٩ - ١٣٣٥ ق. م) ضيعة في هذه المنطقة، وهو الإله «حورون» فأطلقوا عليه «بر حول» أي «بيت حول» التي حورت فيما بعد إلى «أبو الهول»[١]. ويرى بعض الباحثين أن كلمة Sphinx في اللغات الأوروبية مشتقة من «شسب عنخ» أي الصورة الحية وهي فقرة ربما تتطلب أن يضاف إليها «لرب العالم» أو «الإله أتوم» التي نلتقي بها أحياناً[٢]. ولا يتسنى تحديد مدة حكم خع اف رع بالضبط، لكن يبدو أن هذه المدة لم تقل عن ٢٥ عاماً.

من كاورع :

ارتقى العرش بعد خع اف رع، ويشتهر ببناء الهرم الثالث من اهرامات الجيزة ويقع هذا الهرم في الركن الجنوبي الغربي من الهضبة ويصغر عن هرمي سلفيه بكثير إذ يبلغ ارتفاعه الحالي ٦٦,٥ متراً، وكان أصلاً يزيد عن ذلك بأربعة عشر قدم، كما يشغل مساحة تقل عن نصف مساحة الهرم الأكبر، ويبدو أن خلفه شبس كا اف هو الذي أتم بناء المعبد الجنزي، ومعبد الوادي الخاصين به.

ولهرم من كاورع مدخلان أحدهما منحوت في الصخر عند أرضية الهرم ويؤدي إلى حجرة الدفن في باطن الأرض أسفل بناء الهرم، والمدخل الثاني

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، حـ ١، الإسكندرية، ١٩٦٥، ص ١٧٤.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٤٠٩.

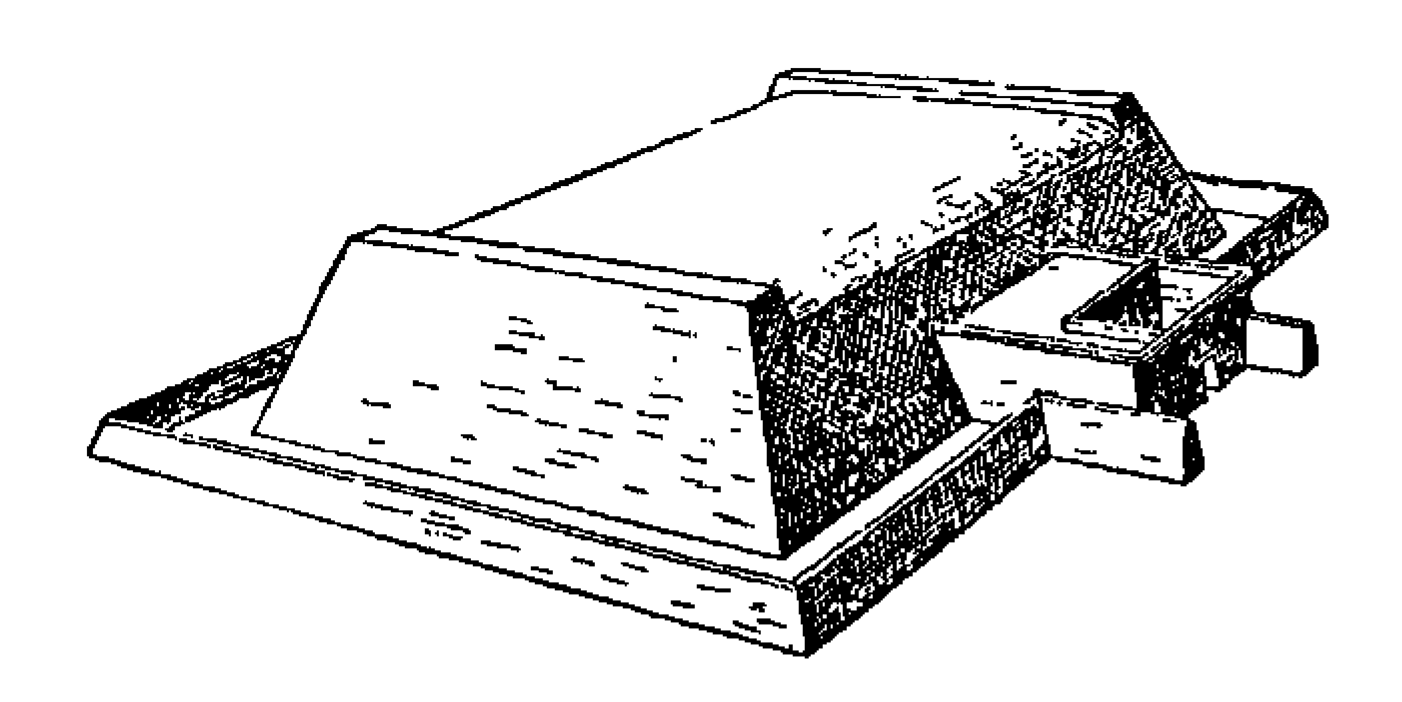
في الجانب الشمالي للهرم وممره أسفل ممر المدخل الأول ويؤدي إلى نفس الحجرة. وأسفل حجرة الدفن توجد حجرتان إحداهما مخزن للأشياء التي أراد الملك المتوفي أن تكون بقربه. والأخرى حجرة دفن ثانية يمكن الوصول إليها عن طريق منحدر يصلها بحجرة الدفن الأولى التي تعلوها. وفي حجرة الدفن السفلية عثر على تابوت من البازلت ربما كان يحوي جثمان من كاورع، وعثر في حجرة الدفن العلوية على بعض العظام البشرية وغطاء تابوت من الخشب، ومن الصعوبة إثبات أن هذه الأشياء خاصة بالملك من كاورع» ويمتاز هرم الملك من كاورع بذلك الكساء الفخم من الجرانيت الذي كان يغطي جزءاً من الهرم لا يقل عن المداميك الستة عشرة الأولى، بدلاً من الحجر الجيري الأبيض.

وإلى الشرق من الهرم شيد المعبد الجنازي، ويتميز بتصميمه المعقد، وقد بدىء في بنائه بأحجار ضخمة هائلة، ولكن لم يتم بنائه في عهد منكاورع، فقام خليفته الملك شبسس كا اف بإتمام بنائه بالطوب اللبن. ويصل المعبد الجنازي بمعبد الوادي طريق صاعد رصفت أرضيته بالحجر، ولكنه لم يتم فأكمل فيما بعد باللبن. أما معبد الوادي فقد بنى من اللبن على مقربة من جبانة نزلة السمان الحالية، وإن بنيت قواعد الأعمدة وبعض أجزاء من الأرضية وعتبات الأبواب من الحجر الجيري، وبالقرب من هرم من كاورع توجد ثلاثة أهرامات صغيرة في صف، ويرجح أن يكون أكبر هذه الأهرامات الثلاثة خاص بالزوجة الملكية العظمى.

شبسس كا اف:

يبدو أنه كان ابناً لـ (من كاورع) من زوجة ثانوية وتنسب إليه بردية تورين أربع سنوات من الحكم وخلال هذه المدة أتم أبنية أبيه من كاورع، ولم يحاول أن يبني لنفسه هرماً كأسلافه، وإنما بنى مقبرة في جنوب سقارة، في منتصف المسافة بين سقارة ودهشور، وهي تعرف الآن بإسم «مصطبة فرعون». ويختلف شكلها عن أشكال مقابر أسلافه، فما هي بالهرم ولا هي

بالمصطبة ، ولكنها على هيئة تابوت مستطيل مائل الجوانب ، ويبلغ طولها ١٠٠م وعرضها ٧٢م وارتفاعها ١٨م ، وترتفع جوانبها فوق مستوى السقف ، وأحيطت قاعدته بإزار من الجرانيت ، وكسيت جوانبه بأحجار جيرية بيضاء (شكل ١٢). وشيد بجوار المقبرة معبدين صغيرين يربط بينهما طريقاً صاعداً[1]. وقد أمكن التعرف على نسبة هذه المقبرة إلى شبسس كا اف عن طريق كسرة من تمثال عثر عليها بها ، تحمل خرطوشاً للملك.



(شكل ١٢) مصطبة الملك شبسس كا اف (مصطبة فرعون)

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٥٧.

الأسرة الخامسة

اختلف آراء المؤرخين حول نشأة الأسرة الخامسة ، وتدور هذه الآراء حول «خنت كاو إس» الملكة التي تجري في عروقها الدماء الملكية سليلة ملوك الأسرة الرابعة ، فيرى البعض أن «خنت كاو إس» كانت زوجة لـ «وسررع» ولما لم يكن ملكاً شرعياً من دم ملكي صار ابنهما «وسركااف» هو الملك الشرعي[1] . بينما يذهب البعض الآخر إلى أن «خنت كاواس» قد تزوجت من «وسركااف» مؤسس الأسرة الخامسة ، وأصبحت أماً لولديه اللذين حكما من بعده الواحد تلو الآخر.

وعلى ذلك فإن وراثة العرش ، في آخر الأسرة الرابعة قد انتهت إلى «خنت كاو إس» وأنها تزوجت من وسركااف الذي يرى فيه بعض المؤرخين حفيداً للملك جدف رع ابن الملك خوفو. وهكذا جمعت الأسرة الخامسة بين فرعي الأسرة الرابعة المتنافسين ، فرع خع اف رع الذي مثلته خنت كاوإس ، وفرع جدف رع الذي مثله وسركاف[2] .

ويصعب التوفيق بين الحقائق التاريخية المستمدة من النصوص المعاصرة وبين ما تعبر عنه الأساطير ، فتتحدث بردية (وستكار) عن قيام الأسرة الخامسة فتقول أن الإله رع اتصل بزوجة أحد كهنة رع وتدعى «رددت» وانجب منها ثلاثة أبناء هن وسركا اف ، وساحورع ونفرا ير كارع وأنه قدر لهؤلاء الأبناء الملكية منذ ولادتهم[3] ويمكن تفسير الأسطورة بأنها تعبير عن تفوق وسيادة إله الشمس في الأسرة الخامسة .

١ ـ وسركااف :

اتخذ وسركااف لقب «ايرماعت» الذي يفيد معنى «واضع النظام» أو

---

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

(٣) انظر : Blackman, A. M., In J. E. A, vol. 22 (1936) P. 42 FF.

«محق الحق» وهو لقب يتناسب مع صاحبه كمؤسس أسرة جديدة. ويشير حجر بالرمو إلى تشييده للعديد من المعابد في مختلف أنحاء البلاد.

ولقد شيد هرمه إلى الشمال الشرقي من هرم تثرورخت بسقارة، وعلى الجانب الشرقي من هذا الهرم كان يوجد هيكل صغير تقدم فيه القرابين للملك المتوفي، وإلى الجنوب من الهرم وجد بناء ضخم يبدو أنه جزء من المعبد الجنزي الذي كانت تقام فيه عبادة الملك كما كشف عن أطلال معبد الشمس الذي شيده هذا الملك في أبي صير، وهو في حالة متهدمة للغاية لا تسمح بتقديم وصف له، ويعبر بناء هذا النوع من المعابد عن سيادة عبادة الشمس، وتفوق نفوذ كهنتها.

ولا نعرف الكثير عن عهد وسركااف الذي دام سبع سنوات طبقاً لبردية تورين، ولقد عثر على إناء عليه إسم هرمه في جزيرة عند طرف البلوبونيز، ويمكن أن نتبين من هذا وجود صلات تجارية على الأرجح بين مصر وجزر شرقي البحر المتوسط[1].

٢ ـ ساحورع :

خلف ساحورع (نب خاعو) وسركااف على العرش، وتذكر بردية تورين أنه حكم مدة اثنتي عشر عاماً وقد بدأ ساحورع تشييد الجبانة الملكية للأسرة الخانسة في أبي صير شمال سقارة بقليل، والأهرامات من عهد ساحورع وما يليه لم تكن بنفس صلابة البناء، والخامات الثقيلة التي كانت تستخدم في الأهرامات السابقة.

وأهم آثار ساحورع النقوش المسجلة على حيطان القاعة الكبرى أمام معبده الجنزي. فعلى الحائط الغربي لهذه القاعدة تصور إلهة الكتابة سشات وهي تسجل أعداد الغنم والماعز والماشية التي غنمها الملك من غارة على القبائل الليبية في الصحراء الغربية، ويرد على الحائط الشمالي لهذه القاعة منظر آخر يماثل نقوش سيناء التي يظهر فيها الملك ممسكاً بأحد زعماء البدو ويشار في هذا المنظر إلى أن العدو هم جيران مصر الآسيويين في الشمال

(١) Smith, W. S., In CAH., vol. I, part II, P. 181.

الشرقي ويرجح أن هذا المنظر لا يشير إلى حملة أو حملات حربية ضد آسيا، بل البدو المتسربين إلى سيناء من المنطقة الآسيوية المجاورة، إذ نجد منظراً آخر على الحائط الشرقي تصور فيه سفن في البحر مجهزة بالمصريين وفي هذه السفن جماعة من الآسيويين يمثلون كزعماء يرفعون أذرعهم في مديح الملك، ويتبين من هذا أن الموضوع خاص ببعثه تجارية عائدة إلى مصر ربما من جبيل بعد أن أحضرت منتجات سوريا وأهمها خشب الأرز.

هذا وقد ترك ساحورع في وادي مغارة بسيناء أثراً تذكارياً عن بعثة أرسلها هناك لضرب البدو كما عثر على لوح حجري يحمل إسمه في محاجر الديوريت في الصحراء غربي توشكي[1].

وخلف ساحورع نفرا يركارع ثم شبسكارع الذي تلاه، نفراف رع، ولا تتميز عهودهم بأحداث هامة. ولقد خلفهم على العرش ني وسررع.

ني وسررع:

خلف ني وسررع (ست إيب تاوي) نفراف رع، ويشتهر ببناء الهرم الثالث بأبي صير، وهو يقع بين هرمي «ساحورع» و«نفر إير كارع»، وقد عثر في معبده الجنزي على تمثال لاسير مقيد مما يشير إلى نشاط حربي له ولو أنه غير محدد ويتأكد هذا أيضاً من تمثيله بشكل أبي الهول يطأ أعداءه، وقد ترك الملك نقشاً على الصخر في وادي مغارة بسيناء يسجل زيارته لهذه المنطقة ويمثل فيها في الوضع الظافر بقرب أحد زعماء البدو[2].

وأهم آثار ني أو سررع معبده الشمسي في أبو غراب شمالي سقارة الذي أقامه بمناسبة احتفاله بيوبيله الثلاثيني، وقد ألق عليه التسمية «بهجة رع» (شكل ١٣) ويظن أن هذا المعبد يشبه في مخططه معبد الشمس في هليوبوليس والمعبد من طراز خاص يتفق وعبادة الشمس التي تؤدي في وضح النهار ويهدف تصميمه إلى إبراز الطاقة الكاملة لإله الشمس يغمر بالضياء مكان العبادة. ويبدأ المعبد بمبنى على حافة الوادي، ويؤدي المبنى إلى ممر صاعد

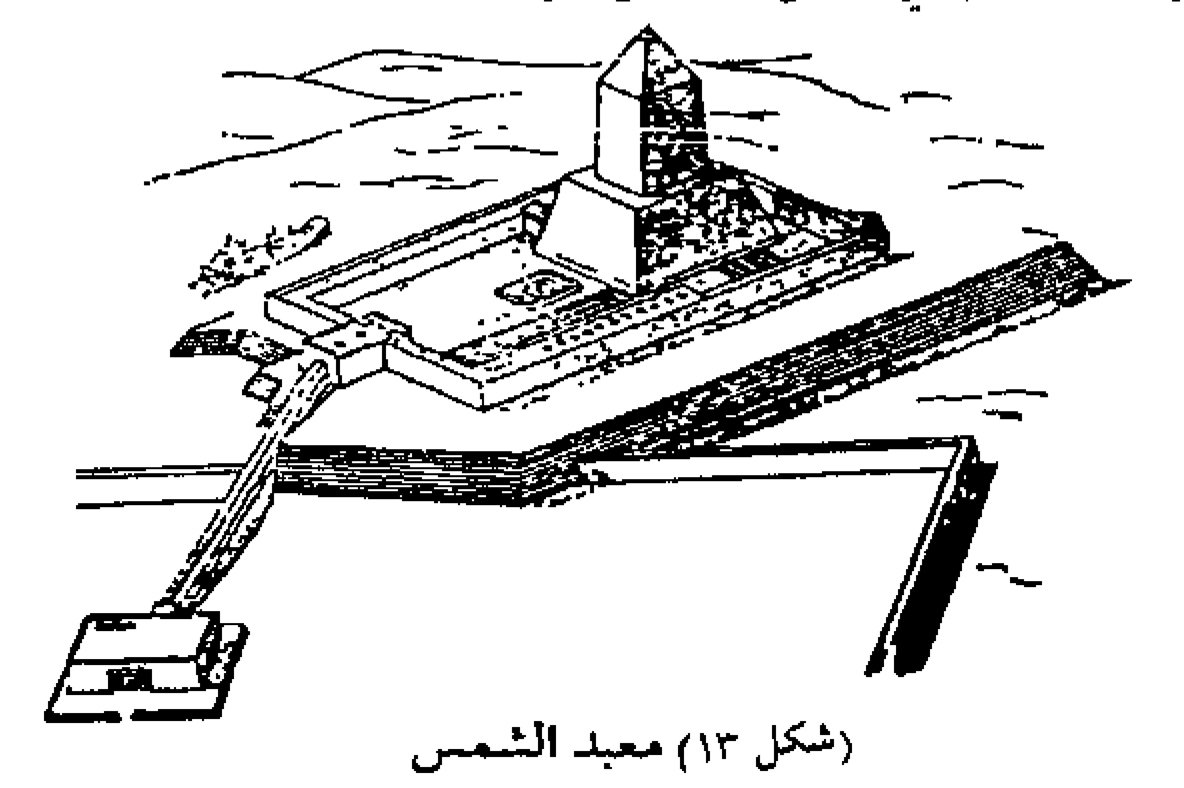
(١) Ibid., PP. 182 - 183.

(٢) Breasted, J. H., op. cit., parag. 350.

يزيد طوله على مائة متر وهو مسقوف يدخل إليه الضوء من فتحات في السقف على أبعاد منتظمة يصل هذا الممر الصاعد إلى مدخل المعبد المقام على ربوة مرتفعة ويؤدي هذا المدخل إلى فناء مكشوف تقوم في مؤخرته قاعدة ضخمة يبلغ ارتفاعها حوالي ٢٠ م. وتعلوها مسلة كبيرة يبلغ ارتفاعها حوالي ٣٦ متراً، وقمة هذه المسلة ذات شكل هرمي، ويرجح أنها كانت مغطاة بالالكتروم (خليط من الذهب والفضة) وأمام قاعدة المسلة توجد مائدة قرابين ضخمة كما يوجد على يمين الفناء مذبح ترتفع أرضه عن أرض الفناء قليلاً ويتصل بعشرة أوان كبيرة كانت تجري إليها دماء ما يضحى به من الحيوانات. وقد حفرت في الصخر خارج المعبد في جهته الجنوبية حفرة كبيرة بنيت فيها باللبن مركب طولها نحو ثلاثين متراً يرجح أنها تمثل أحد قوارب الشمس[1].

ومن الوصف السابق لتصميم معبد الشمس يتبين أن هذا التصميم هدف إلى إبراز الطاقة القادرة لإله الشمس بكل قوتها إذ أن الداخل إلى المعبد كان يمر بمراحل من الظلام التدريجي ثم يفاجأ بالنور الساطع في الفناء المكشوف وتألق إله الشمس على قمة المسلة رمزه المقدس.

وخلف ني أو سررع الملك من كاوحور ثم الملك جد كارع، ولا تتجاوز أحداث عهدي هذين الملكين عن إرسال بعض بعثات التعدين إلى



(شكل ١٣) معبد الشمس

(١) محمد أنور شكري: المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٥.

منطقة سيناء وتسجيل ذلك في نقوش صخرية بوادي مغارة. وشيد جد كارع اسس هرم يعرف بإسم «الهرم الشواف» وهو يقع إلى الجنوب قليلاً من سقارة.

ونيس :

كان ونيس (واج تاوي) آخر ملوك الأسرة الخامسة وتنسب إليه بردية تورين ٣٠ عاماً من الحكم. وللملك ونيس هرم شيده في الركن الجنوبي الغربي من هرم ثررخت في سقارة، وقد كشفت الحفائر الحديثة عن حفظ جزء كبير من الممر الواصل بين المعبد الجنزي ومعبد الوادي لهذا الهرم أكثر من أية بقايا أخرى لمثل هذا الممر. وعلى الحيطان الداخلية لهذا الممر نقشت مجموعة من المناظر بعضها يوضح نقل الجرانيت من أسوان بالسفن لبناء الأعمدة في المعبد الجنزي كما تتناول مناظر أخرى بعض الصناع وهم يقومون بصنع وصقل أواني من الذهب والنحاس والحجر وهناك مناظر أخرى للصيد تتضمن العديد من الحيوانات المعروفة مثل الأسد والنمر والذئب كما تتضمن بعض الحيوانات النادرة مثل الزرافة. وأبرز هذه المناظر وأكثرها تعبيراً هو منظر المجاعة التي تصور أجساد ضحاياها بما لا يزيد على هياكل عظيمة يكسوها الجلد، ومن سؤ الحظ أن هذا المنظر ليس كاملاً[١].

وأهم ما يتميز به هرم ونيس النقوش الهيروغليفية التي تغطي حيطان الروهة وحيطان حجرة الدفن وهي التي يطلق عليها إسم «متون الأهرام»، وترد متون الأهرام أيضاً في أهرامات بعض ملوك الأسرة السادسة وتهدف متون الأهرام إلى تحقيق حياة سعيدة للملك أو الملكة في العالم الآخر عن طريق القوة السحرية للكلمات المكتوبة في نطقات هذه المتون وعددها سبعمائة نطقة والتي ظن أن لها القدرة على تحقيق المعنى الذي تعبر عنه. وتقدم متون الأهرام صورة واضحة للفكر الديني القديم خاصة معتقدات المصريين في العالم الآخر كما تتضمن العديد من أسماء الآلهة والأناشيد الدينية. ومتون الأهرام ليست من استحداث الأسرتين الخامسة والسادسة بل هي تجميع لمعتقدات المصريين منذ أقدم العصور[٢].

(١) Vercouter, J.,.In The Near East The Early Civilizations, London, 1967, P. 297.

(٢) Ibid -, P. 297.

الأسرة السادسة

(من حوالي ٢٣٤٥ إلى ٢١٨١ ق . م)

تتي :

يصعب التعريف بوضوح عن الأسباب التي أدت إلى الانتقال من الأسرة الخامسة إلى الأسرة السادسة وإلى ارتقاء تتي العرش ، ونظراً لعدم دخول إسم رع في تركيب إسمي ونيس آخر ملوك الأسرة الخامسة وتتي أول ملوك الأسرة السادسة ، تنادي إحدى النظريات بأن الانتقال إلى الأسرة السادسة كان للتخلص من نفوذ كهنة رع الذي ظهرت بوادره من أواخر عصر الأسرة الخامسة . ولكن هذه النظرية تفتقر إلى ما يدعمها .

وتشير ألقاب الملكة «ايبوت» زوجة تتي وأم ببي الأول إنها كانت من الدم الملكي الخالص ، بما يفيد أن تتي تزوج بها ليكتسب شرعية في الحكم . وربما كانت هذه الملكة ابنة لاوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة . ولو أن هذا ليس مؤكداً .

ولا يتبين من الأدلة الأثرية أن الأسرة السادسة استحدثت أسلوباً جديداً في الحكم ، بل استمرت في تكريم الموظفين من الأسرة السابقة وبخاصة كاجمني الذي كان موظفاً في عهد وناس وأصبح وزيراً في عهد تتي ، ولعل أشهر موظفي تتي هو «مرروكا» الذي كان حاكماً للعاصمة وزوجاً لابنة الملك وهو صاحب أجمل وأضخم مقبرة في سقارة . وقد بنى «تتي» هرماً في سقارة إلى الشمال الشرقي من هرم «وسركااف» بقليل ، وبالقرب من هرمه شيد تتي هرمين أحدهما لزوجته الملكية العظمى «ايبوت» والآخر لزوجة ثانوية اسمها «خوبت» .

ويرد إسم تتي في كسرات آنية حجرية عثر عليها في بيبلوس على الساحل السوري[1]، كما يوجد تسجيل لإحدى بعثاته إلى النوبة على صخور توماس على الشاطىء الغربي للنيل، وله أيضاً نقش على الصخر في محاجر المرمر بـ «حتنوب» يسجل فيه العام التالي للإحصاء السادس للماشية، ويستدل منه ما يفيد أنه حكم ما لا يقل عن اثني عشر عاماً.

وأشار المؤرخ المصري مانيتو إلى أن «تتي» لم يمت ميتة طبيعية، وإنما قتل بيد حراسه، وليس هناك ما يدحض هذا الرأي، نظراً لتعرض مؤسسي الحكم الجديد لانتقام الأسر السابقة التي أبعدوها عن الحكم، ومما يؤيد ذلك أن خليفة «تتي» على العرش وهو الملك «وسركارع» لم يبق في الحكم إلا سنوات معدودة، ولم يخلف وراءه آثاراً تذكر، والأكثر من ذلك، أن نقوش خلفائه لم تشر إليه، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه من البيت الحاكم القديم[2].

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المصير الذي آل إليه «تتي» كان راجعاً إلى الصراع بين كهنة رع في أيون (هليوبوليس) وكهنة بتاح في منف، وأن هذا الصراع يمتد إلى أواخر الأسرة الخامسة، حتى حسمه كهنة رع، وتولى، وسركارع العرش بعد التخلص من تتي[3].

وسر كارع:

خلف تتي طبقاً لما ورد في قائمة أبيدوس حيث اعتبرته قائمة سقارة ومانيتون مغتصباً للعرش، وليس لهذا الملك أية أدلة أثرية معاصرة مما يشك في وضعه ما عد بعض النقوش في وادي الحمامات. ويفترض بعض الباحثين أن ببي الأول كان طفلاً عندما مات أبوه تتي، وإن وسر كارع ارتقى العرش لفترة

---

(1) Dunand, M., Fouilles de Byblos (1933 - 1938), II. Paris, 1954, P. 258.

(2) أحمد فخري: مصر الفرعونية، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(3) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٣٠٥.

وجيزة عندما كانت ايبوت تحكم نيابة عن ابنها الطفل .

ويرى بعض الباحثين إلى أنه كان ابناً للملك «تتي» من زوجته خويت» وأنه لم يستطع أن يلي الحكم غير فترة قصيرة لا تتجاوز أربع سنوات ، دب النزاع بعدها بينه وبين أخيه غير الشقيق «ببي» ، والذي انتهى آخر الأمر باستيلاء «ببي» على العرش ، ربما لأنه ابن الملكة «ايبوت» ابنة «ونيس» التي نقلت شرعية الحكم إلى أبيه عن أبيها[1] .

مري رع، ببي (الأول) :

هو ابن تتي مؤسس الأسرة من الزوجة الملكية ايبوت . وقد اتخذ في بداية عهده التسمية «نفر ساحور» ثم اتخذ اسماً انتسب فيه إلى رع وهو «مري رع» تقرباً منه إلى كهنة إله الشمس رع ، كما تلقب بلقب «مري تاوى» أي «حبيب الأرضين» .

وقد سميت «منف» باسم هرمه «من نفر» عندما شيد «ببي الأول» حياً اطلقوا اسمه عليه ، فأصبح إسم ذلك الحي منذ الأسرة السادسة يطلق على المدينة بأكملها ، وإن كان هناك من يرى أن ذلك قد تم في عهد الأسرة الثامنة[2] وحرف الإغريق الإسم إلى «ممفيس» ثم كتبها العرب «منف» وهي تقع الآن تحت وبجوار قرية «ميت رهينة» بمركز البدرشين بمحافظة الجيزة[3] . وتمتع ببي الأول بحكم طويل بلغ قرابة الخمسين عاماً وفقاً لما سجلته نقوشه . وقد عثر في ابيدوس على لوح حجري ظهر فيه زوجتان لببي الأول تحمل كل منهما الإسم «مري رع عنخ إن إس» وأخ لهما يدعى «جعو» كان وزيراً في عهد ببي . ويحدثنا النص بأن إحدى هاتين الملكتين كانت أم الملك «مران رع» خلف ببي ، وإن الأخرى كانت أماً للملك «ببي الثاني» . كما يرد ذكر هاتين الملكتين أيضاً وصفتهما كأمين للملكين السابقين في مرسوم مسجل

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢) أحمد بدوى : فى موكب الشمس ، حـ ٢ ، ص ٦٣٢ .

(٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ .

في معبد أبيدوس ويختص بإقامة تماثيل لهما وأخيهما جعو في هذا المعبد.

ويتبين من ألقاب هاتين الملكتين أنهما لم يكونا من دم ملكي خالص بل من نبلاء طينة، ولذلك يرجح أن زواج ببي من هاتين الملكتين كان زواجاً سياسياً يهدف إلى ضمان ولاء هذه العائلة الإقليمية القوية.

ويذكر أحد الموظفين المعاصرين ويدعى «أوني» في نقوش مقبرته بأبيدوس أنه كان حدثاً في عهد تتي وتقلد وظائف بسيطة، ثم أصبح قاضياً في عهد ببي الأول، ويتباهى بأن الملك كلفه وحده بإجراء تحقيق ضد ملكة لم يذكر اسمها ولكن يشار إليها باللقب «ورت حتس» بما يفيد أنها كانت الزوجة الملكية العظمى. ويمكن من ذلك استنتاج أن إبعاد هذه الزوجة الملكية العظمى تبعه زواج ببي من «مري رع عنخ ان اس» أم «مران رع» التي لم تكن من الدم الملكي. ويرجح أن زواج ببي من «مري رع عنخ ان اس»، الشقيقة الثانية وأم ببي الثاني، حدث في أواخر عهد ببي الأول، إذ يظهر ببي الثاني شاباً صغيراً عند اعتلائه العرش.

ويحدثنا «أوني» في نقوش مقبرته أيضاً، إنه في عهد ببي نظم أكثر من حملة ضد البدو في الشمال الشرقي، وإنه جمع جيشاً من كل أنحاء مصر ومن قبائل النوبة في الجنوب. وتبع ذلك القيام بحملة في فلسطين تطلبت نقل القوات بالسفن إلى مكان يدعى «أنف الرئم» يظن بأنه عند جبل الكرمل[1].

ويرجح أنه في أواخر عهد ببي الأول أشرك معه ابنه مران رع في الحكم، ويشير إلى ذلك دليلان أثريان بالمتحف المصري أحدهما قطعة ذهبية تحمل أسماء وألقاب الملكين معاً، والآخر تمثال من النحاس لببي الأول كشف عنه في نخن وكان بداخله تمثال صغير لطفل في حوالي السابعة يرجح أنه يمثل مران رع[2]. والتمثالان معروضان منفصلين ومتجاورين بالمتحف المصري.

---

(١) Gardiner, A. H., op. cit., PP. 95 - 96.

(٢) Smith, W. S., The Art and Architecture of Ancient Egypt, Harmondsurorth, 1965, P. 80.

مران رع، عنتي أم سا اف (الأول):

خلف أباه الأول في الحكم. ويبدو أنه كان صغيراً عند ارتقائه العرش، إذ أن مومياءه التي عثر عليها داخل تابوت في هرمه بجوار ببي الأول إلى الجنوب قليلاً من سقارة كانت لشاب في مقتبل العمر له خصلة شعر جانبية تشير إلى الصبا.

ويشار في نقش له في محاجر حتنوب إلى العام التالي للإحصاء الخامس للماشية في عهده (أي العام العاشر)، كما يشار في نقش آخر له عند الجندل الأول، بمناسبة استقباله زعماء النوبة عند الحدود الجنوبية، إلى الإحصاء الخامس من عهده[1]. وسبق أن رجحنا أن مران رع اشترك مع أبيه ببي الأول في الحكم وهو لا يزال طفلاً في السابعة من عمره، فإذا ما أضفنا إلى ذلك عشرة أعوام يرجح أنها مدة حكمه (التي ربما يدخل فيها أيضاً فترة اشتراكه في الحكم مع أبيه، لتبين لنا أنه مات في ريعان الشباب بما يتفق وحالة مومياه.

هذا وقد استمر «أوني» في الخدمة الوظيفية في عهد مران رع. ويحدثنا في نصوص مقبرته بأبيدوس أنه في عهد مران رع أصبح حاكماً للجنوب، وقام ببعثتين إلى الجندل الأول لإحضار التابوت وأحجار الجرانيت لهرم الملك. وفي أول هذه البعثات أمضى عاماً في شق خمس قنوات في منطقة الجندل الصعبة للملاحة، وفي بناء سفن لنقل أحجار الجرانيت.

ومن كبار الموظفين من عهد مران رع «حرخوف» الذي كان حاكماً على إقليم اليفانتين وله مقبرة منحوتة في الصخر في أسوان. وفي نقوش هذه المقبرة[2] يصف حرخوف البعثات التجارية إلى الجنوب التي كان بعضها يتم عن طريق النيل وبعضها الآخر بقوافل الحمير، لإحضار منتجات هذه البلاد من البخور والعاج والأبنوس وجلد الفهد وهي من المنتجات التي لها تقدير كبير في مصر، ولا يشار بالتحديد إلى أي مدى استطاعت هذه البعثات

---

(١) Smith, W. S., In CAH., vol. I, part II. P. 193.

(٢) Breasted, J. H., op. cit., parag. 333 - 336.

التجارية التوغل جنوباً وأين تقع بلاد «يام» التي وصل إليها حرخوف ، ولكن يرجح بعض الباحثين أنه كان هناك مركز تجاري مصري في كرما عند الجندل الثالث ، في ضوء العثور على بعض قطع آنية من المرمر هناك تحمل أسماء ببي الأول ومران رع وببي الثاني .

نفر كارع، ببي الثاني :

سبق أن أشرنا إلى أنه ابن ببي الأول من الشقيقة الثانية «مري رع عنخ ان اس» ، التي تزوج بها ببي الأول في أواخر عهده . ويخبرنا مانيتون أن ببي الثاني ارتقى العرش في حوالي السادسة من عمره وعاش حتى بلغ المائة أي أنه حكم ٩٤ عاماً . وقد بدأ حكمه تحت وصاية أمه ، حيث أسند منصب الوزارة إلى خاله «زعو» ولا شك في أن ببي الثاني تمتع بحكم طويل لم يقل عن اثنين وستين عاماً وفقاً لما أفادت به نقوشه ، ويتبين من نص خطاب أرسله الملك إلى حرخوف نقشه الأخير في مقبرته بأسوان ، مدى غبطة الملك كطفل ، من قزم يرقص رقصاً مقدساً أحضره له حرخوف بعد عودته من بعثته التجارية إلى الجنوب .

والواقع أن مدة الحكم الطويلة لببي الثاني أدت إلى نهاية عصر الدولة القديمة ، إذ نشعر بمدى الضعف الذي آلت إليه السلطة الملكية في نهاية عهده ، ومما لا شك فيه أن هذا كان راجعاً إلى إنهاك موارد الثروة الملكية التي أثقلتها المصروفات الباهظة في تشييد الأبنية والهبات الجنزية التي لا تحصى والمعفاة من الضرائب . فضلاً عن أراضي التاج التي منحت لحكام الأقاليم تقديراً لخدمتهم كملك خاص لهم يورث إلى أبنائهم ، مما أدى إلى تفتيت هذه الأراضي إلى وحدات أصغر فأصغر . إن كان ما سبق يعبر عن ضعف الملكية ، فإنه يفيد من ناحية أخرى زيادة نفوذ حكام الأقاليم على حساب ذلك .

وقد استمر ببي الثاني في إرسال البعثات التجارية كما فعل أسلافه كما أرسل مثلهم البعثات إلى مناجم سيناء ومحاجر حتنوب . ويرجح أن النوبيين

وبدو الصحراء الشرقية كانوا مصدر اضطرابات في هذا العهد، في ضوء ما تشير أليه بعض فقرات النصوص التي ترجع إلى عهده.

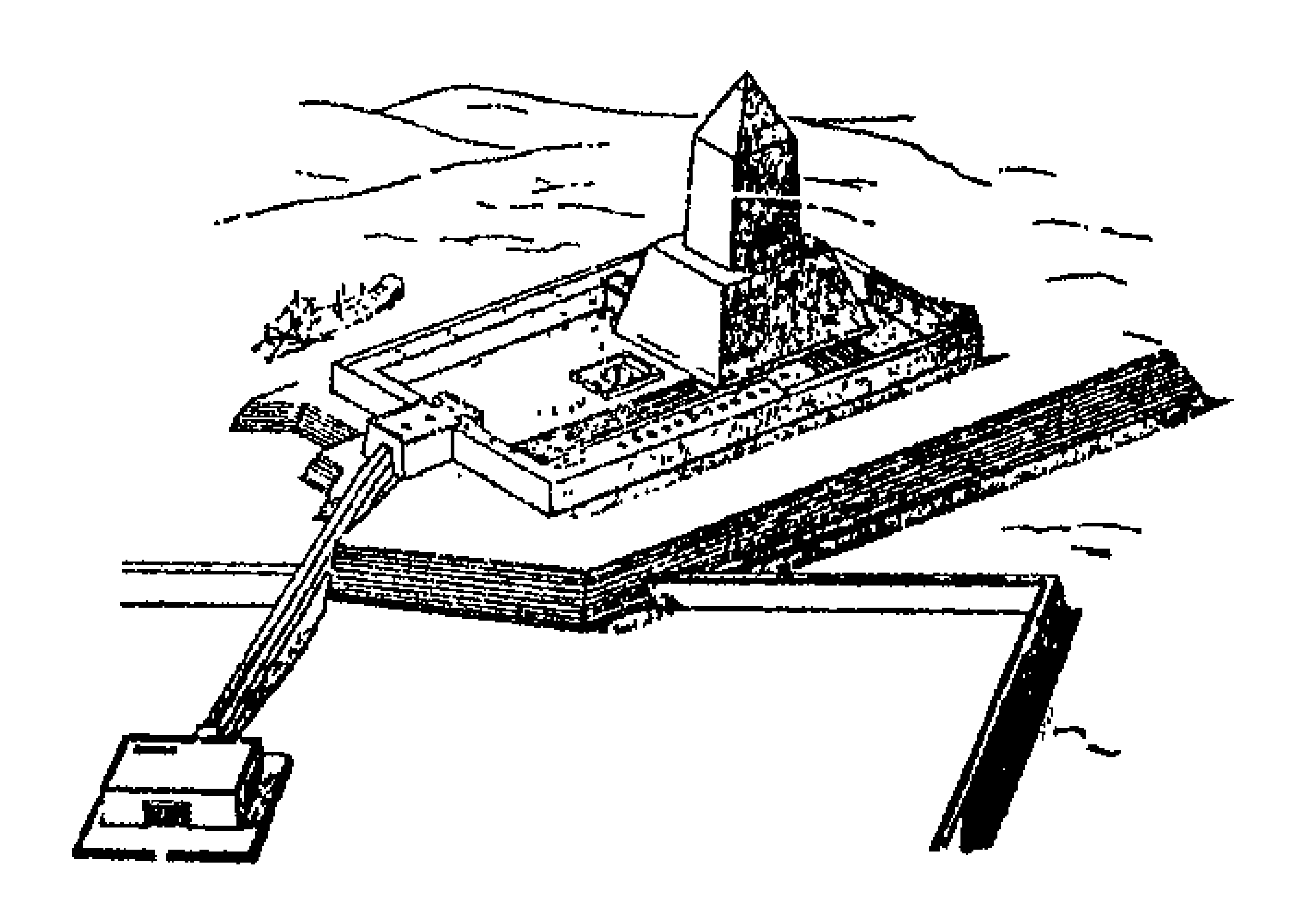
فيحدثنا حقاً ايب في نقوش مقبرته بأسوان بأنه كان عليه أن يقوم بحملة من أسوان ليخضع قبيلة نوبية في الجنوب كانت مصدر قلق لحرخوف في بعثته التجارية الثالثة كما كان عليه أن يقوم بحملة أخرى إلى البحر الأحمر لإعادة جثمان أحد الضباط هاجم بدو الصحراء الشرقية فرقته عندما كانت تقوم ببناء سفن إلى بونت[1].

هذا وقد شيد ببي الثاني هرمه في جنوب سقارة، إلى الجنوب قليلاً من هرمي سلفيه ببي الأول ومران رع، وإلى جوار هذا الهرم توجد ثلاثة إهرامات صغيرة دفنت فيها ثلاث من زوجاته.

مران رع، عنتي أم سا اف (الثاني):

خلف ببي الثاني على العرش أكبر أبنائه الأحياء مران رع الثاني، الذي لم تتجاوز مدة حكمه عاماً واحداً وفقاً لما ورد في بردية تورين. وبانتهاء عهد هذا الملك نصل في الواقع إلى نهاية الأسرة السادسة وبداية العصر الذي يطلق عليه إسم «عصر الثورة الاجتماعية الأولى» أو «عصر الانتقال الأول» ولكن معظم القوائم المتأخرة تشير إلى سيدة بإسم «نيتوكريس» حكمت كآخر ملوك الأسرة السادسة، ويرى بعض الباحثين أن نيتو كريس هي الملكة «نايت» زوجة ببي الثاني ولكن هذا الرأي يفتقر إلى الأدلة التي تدعمه.

(١) Gardiner. A. H., op. cit., P P. 99 - 101.



رشكل ١٢ / معبد الشمس

الفصل الرابع

عصر الثورة الاجتماعية الأولى

يطلق المؤرخون على عصر الثورة الاجتماعية الأولى أسماء عديدة منها: «عصر الانتقال الأول» وذلك على أساس أنه مرحلة انتقالية بين عصرين عظيمين وهما عصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى. ويطلق عليه كذلك «عصر الفوضى الأولى» أو «عصر المرض الأول» وذلك للفوضى السياسية التي عمت البلاد خلاله وعدم وجود حكومة مركزية قوية قادرة على تصريف شؤون البلاد. ومن الناحية الفكرية والاجتماعية فإنه يعتبر وكما أطلق عليه جيمس هنري برستد «عصر في الضمير».

ويتكون عصر الثورة الاجتماعية الأولى من الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، وينتهي في عهد «منتوحتب الأول»(نب حبت رع) الذي تمكن من القضاء على الفوضى السياسية وأعاد توحيد البلاد مرة ثانية بعد توحيدها الأولى في بداية التاريخ المصري عند بداية الألف الثالث قبل الميلاد.

وفيما يتصل بالأسرة السابعة فيلاحظ أن راوية مانيتون حول هذه الأسرة قد ورد بها أن ملوكها كانوا سبعين ملكاً حكموا لمدة سبعين يوماً في منف، وحاول بعض المؤرخون الذين اعتقدوا فيما أورده مانيتون أن يجدوا تبريراً لذلك، فذهب بعضهم إلى أن هذه الحكومة كانت حكومة طارئة شكلت من الصفوة الممتازة من الحكام الذين تبقوا من سلاله ملوك الأسرة السادسة أو من كبار الموظفين وحكام الأقاليم الذين كونوا من أنفسهم هيئة حاكمة أدارت شؤون البلاد محل الملكية المنهارة في أخريات الدولة القديمة.

ولم يوافق البعض الآخر على ما أورده مانيتون وأعطوا سنوات حكم

متباينة لهذه الأسرة تراوحت ما بين شهور عدة إلى خمس وسبعين سنة ، ومهما كان الأمر فإن هذا الاختلاف البين يوضح مدى الضعف والانهيار الذي عانت منه مصر خلال هذه المرحلة .

أما عن الأسرة الثامنة فيرى معظم الباحثين أنها قامت في منف ، وأن رأى قلة منهم أنها قامت في ققط بمحافظة قنا ، وأسس هذه الأسرة الملك نفر كارع ، واتخذ معظم ملوك هذه الأسرة أسماء بعض ملوك الأسرة السادسة وهو الأمر الذي رجح معه بعض الباحثين وجود صلة قرابة بين الأسرتين وأنهم هم الورثة الشرعيون لهم . وفي عهد هذه الأسرة ازدادت أحوال البلاد سوءاً وتوقفت البعثات إلى المحاجر والمناجم ، وبنهاية عهد هذه الأسرة تنقسم البلاد إلى ثلاثة أقسام: في الشمال الأسيويون وفي مصر الوسطى ظهر بيت جديد للحكم في أهناسيا حكم البلاد في الأسرتين التاسعة والعاشرة وعرف بإسم «العصر الأهناسي» ، وفي الجنوب ظهرت قوة حكام طيبة .

ولقد أسس «خيتي الأول» (مري ايب رع) الأسرة التاسعةالأهناسية ، وهناك شك في أن حكمه قد امتد إلى الدلتا التي يرجح أنها بقيت في أيدي الأسيويين ، أما في الجنوب فقد امتد نفوذه حتى ثنى ، وأن وجد اسمه في نقوش عند الجندل الأول . ويصفه مانيتون بأن كان أبعث للرعب من كل من سبقوه من الملوك وأنه كان يفعل الشر في مصر كلها ، وربما كان ذلك راجعاً إلى شدة هذا الملك ومحاولته الدفاع عن حدود مملكته وتأييد ملكه في هذه الفترة المضطربة .

وبعد زوال حكم الأسرة التاسعة جاءت الأسرة العاشرة التي أسسها «مرى حاتحور» . ومن ملوك هذه الأسرة الملك «واح كارع» (اختوى الثالث» صاحب التوجيهات التي وجهت إلى ابنه الملك «مرى كارع» وهي ذات دلالات سياسية عظيمة وأشار فيها إلى الحرب الأهلية بين طيبة وأهناسيا والتي كان ميدانها في أبيدوس .

ولم يدم الحال بالملك «مرى كارع» طويلا إذ لم يحكم سوى سنوات قلائل مات بعدها ودفن في منف ، وفي تلك الفترة تمكن حكام طيبة من القضاء على

البيت الأهناسي ثم تمكنت من إخضاع مصر لها وبدأت الأسرة الحادية عشرة بتوحيد مصر، حيث دخلت البلاد مرحلة جديدة تتميز بالازدهار والتقدم السياسي والحضاري وهو ما يعرف باسم «عصر الدولة الوسطى».

وسنقوم فيما يلي بدراسة الأسباب والعوامل التي أدت إلى قيام الثورة الاجتماعية الأولى، وبعد ذلك نستعرض في إيجاز بعض القطع الأدبية التي وصلتنا خلال هذه المرحلة ووصفت الأحوال التي عاشتها مصر إبان هذه المرحلة، وبعد ذلك نورد أهم النتائج التي ترتبت على قيام الثورة الاجتماعية الأولى.

ويختلف المؤرخون في الوقت الذي قامت فيه الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، فبينما يرى فريق منهم أنها تقع في نهاية عهد «ببي الثاني» يرى فريق آخر أنها تقع في عهد خليفتيه الضعيفين، ويرجح أن عهد «ببي الثاني» قد مهد لقيام الثورة، وأعطاها مبرراتها، ولكنها لم تقم في عهده، وإنما في عهد آخر خط الملوك المنفيين، فربما قامت في عهد «مرى أن رع» وإنه دفع حياته ثمناً لها. وربما قامت الثورة في عهد «نيتوكريس» نفسها، وربما كان انتقامها لأخيها، حين احتالت على قتلته حيث حبستهم في قصرها، ثم أطلقت عليهم ماء النهر فجأة، ثم انتحرت بعد ذلك. وربما أدى ذلك إلى أن ينتهز الشعب فرصة خلو العرش من شاغليه، وانتقاماً للكثيرين الذين قتلوا من المصريين. فكان ذلك سبباً مباشراً للقيام بالثورة بجانب أسبابها الأخرى الأصلية، ومع ذلك فهذه كلها افتراضات، إذ أنه من المستحيل أن نقرر في أية لحظة حدث الاضطراب الخطير، وأما حدوثه فأمر ليس فيه شك[1].

أسباب الثورة الاجتماعية الأولى

ويمكن إيجاز الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الثورة إلى أسباب

(١) محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى، (رسالة ماجيستر)، الإسكندرية، ١٩٦٦ ص ١١٨ - ١١٩.

اقتصادية وأسباب اجتماعية وأخرى سياسية وخارجية .

وفيما يتصل بالأسباب الاقتصادية فهي كثيرة ، فلقد أدت التراكمات المتعددة إلى انحدار الاقتصاد القومي بالتدريج ، حتى وصل إلى ذروة الانحطاط عند نهاية الأسرة السادسة ، وتعددت هذه الأسباب ومنها تشييد مبان تهدد الاقتصاد القومي ، وتشييد أهرام لكل ملك جديد ، ولقد كان بناء الإهرامات وغيرها من المباني الدينية ، نتيجة سطوة الدين على المصريين وأثره في حياتهم وتفكيرهم . فالدين كان ولا يزال وسيظل أكبر قوة في حياة الإنسان ، وهو الذي أوحى إلى المصري القديم بفكرة الخلود ، أو الحياة بعد الموت ، وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا المصريون القدامى عدداً هائلاً من المقابر والأهرامات والمعابد لا يمكن حصرها ، غير أن هذه العقيدة وما نتج عنها من مبان ضخمة هائلة أرهقت الاقتصاد القومي ، وألقت عبثاً ثقيلاً على خزائن الدولة ، وحملها ما لا تطيق ، خاصة في أخريات الدولة القديمة عندما وصلت مواردها إلى حد أن أصبحت حكومتها شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها ، وممارسة حقوقها ، وتحمل تبعاتها ، ومع ذلك لم ينسى الفراعين أن يقيموا لأنفسهم أهراماً يدفنون فيها ، مما أرهق الشعب أيما إرهاق ، وجعل بوادر السخط تتجمع ضدهم ، وهكذا يمكن أن يقال إن ما أنفق من أموال على هذه الجبانات الضخمة إنما كان واحداً من عوامل الثورة[1] .

وأدى إلى سوء الأحوال الاقتصادية ، العبء الناتج عن تخصيص هبات دائمة للصرف منهل على العناية بمقابر الملوك والملكات ، فضلاً عن الأمراء والنبلاء ، ومن ثم فقد كان الملوك يبعدون تدريجياً جزءاً من الأراضي التي أعفيت أيضاً من الضرائب عن أراضي الدولة ، وتبع ذلك إلقاء تبعات ثقيلة على الأراضي الأخرى[2] ، وأدى ذلك بالتدريج إلى إرهاق الاقتصاد القومي وتقلص موارده ، وفي نفس الوقت زادت المعاناة على أفراد الشعب .

---

(١) محمد بيومي مهران : دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ، جـ ١ مصر ، الكتاب الاول ، ص ٩٤٦ - ٩٩٩ .

(٢) Wilson, J.A., The Culture of Ancient Egypt Chicago, 1963. P. 98.

وسار حكام الأقاليم على سنة ملوكهم، فقاموا بخت قبورهم في صخور أقاليمهم وخاصة في مصر العليا والوسطى، وكان ذلك عبئاً جديداً على الخزينة، كلف الكثير من المال.

ومما زاد من سوء الأوضاع الأقتصادية عبء مشترى الولاء من حكام الأقاليم المصرية البعيدة عن العاصمة، ،وذلك حين بدأ هؤلاء الحكام يتباعدون عن الملوك، ويشيدون مقابرهم في عواصم أقاليمهم، وبذا تولدت لديهم نزعة فردية دفعتهم إلى أن يتباهوا بما فعلوه. وكلما مر الزمن، ونتيجة لضعف الملوك، زاد حكام الأقاليم في تباهيهم بما نجحوا فيه، مما اضطر الملوك آخر الأمر إلى أن يعملوا على اكتساب رضاهم، وإقطاعهم الأراضي لربط دخلها على مقابرهم التي كانوا يقومون ببنائها من خزائن الدولة. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل سمح الملوك بأن يرث الأبناء آباءهم في إقطاعياتهم، وعلى ذلك فقد توزعت ثروة البلاد بين الأسر القوية، في الوقت الذي تناقصت فيه ثروة الملوك تدريجياً، ولجأ الفراعنة إلى وسائل عدة لاسترداد سلطانهم، إلا أن ذلك كله لم يغير من الوضع شيئاً، ولم ينجح الملوك في كسب الحكام الذين أخذوا يستقلون عن الفراعين بأقاليمهم، مما أدى آخر الأمر إلى قيام حكومة متنافسة أحياناً، ومتعاونة أحياناً أخرى. وحين تأزم الموقف للغاية، عمت الفوضى البلاد، وبالتالي قامت الثورة الاجتماعية الأولى.

وأخيراً فقد كان لانقطاع أو احتمال انقطاع الموارد التي كانت تأتي من التجارة الخارجية، والتي كانت حكراً ملكياً، فقد كانت مصر على علاقات تجارية مع بلاد غربي آسيا، ومع جزر البحر المتوسط ومع النوبة وليبيا، وتدلنا نصوص أواخر الدولة القديمة على وجود اضطرابات في تلك البلاد الأجنبية التي كانت تتجر معها مصر، مما استدعى بعض إجراءات حربية في النوبة والسودان[1].

أما عن الأسباب الاجتماعية التي ساعدت على قيام الثورة، فيلاحظ أن

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٥٠١ـ٥٠٢.

الفرعون قد تمتع في المجتمع المصري القديم بوضع خاص بين طبقات المجتمع ، فقد اعتقد المصريون أنه ليس واحداً من البشر وإنما هو إله ، ورغم تلك الألوهية التي أصبغها على نفسه وآمن بها رعاياه ، فهناك بعض النصوص التي تكشف عن وجود الكثير من المشاعر الإنسانية الطيبة لدى بعض هؤلاء الملوك ، ومن هذه النصوص ما يعرف باسم «بنوءة نفرتي» والتي تتحدث عن «سنفرو» على أنه كان ملكاً محسناً ، وأنه كان حين يخاطب أحد رعاياه ، إنما يقول : (يا صاحبي) ، وحين يوجه حديثه إلى رجال بلاطه إنما يخاطبهم بقوله : (يا إخواني)[1] .

وارتبطت الطبقة الحاكمة بالملك بروابط كثيرة ، ويمكن تتبع ذلك منذ النصف الأول في الدولة القديمة حيث كان أمراء الأسرة المالكة يعينون في منصب الوزارة ، كما كانت هناك مصاهرات بين أفراد البيت المالك وآخرين من الشعب . وكان وجود أبناء الملك وأقاربه إنما يجعل الخط الفاصل بين الملك والطبقات الأخرى غير واضح المعالم ولكن من ناحية أخرى ، فإن هذه الطبقة إنما كانت بمثابة همزة الوصل بين الملك ورعيته ، وأنها تمتعت بالمناصب الكبيرة ، ثم الحصول على امتيازات كانت من قبل وقفاً على الملوك دون سواهم[2] .

وفيما يتصل بطبقة العامة فقد تضمنت التجار والصناع والعمال والفنانين والفلاحين . ويلاحظ أن التجار هم أصحاب التجارة الداخلية ، والتي كانت محدودة لدرجة كبيرة ، ومن ثم فإن النصوص لا تتحدث عن التجار ، مما يدل على أن التجارة الداخلية إبان تلك الفترة لم تلعب دوراً هاماً ومن ثم فإن التجار لم يقوموا بدور هام في الثورة أو في دوافعها .

وفي مقابل قلة عدد التجار وضآلة دورهم وأهميتهم ، فقد كان الصناع

---

(١) Erman. A., The Literature of the Ancient Egyptians. London, 1927. P. 112.

(٢) Wilson, J. A., op. cit., p. 76.

وكذا : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٥٠٤ .

والفنانون أكثر عدداً ، وأشد خطراً من التجار ، وذلك يرجع إلى حرفتهم نفسها وأهميتها بالنسبة إلى الحضارة المصرية القديمة ، ومع ذلك فليس هناك دليل على أن الصناع والفنانين كانوا يحيون في بحبوحة من العيش إن لم يكونوا فقراء كبقية الطبقة العاملة . وقد أطلق عليهم البعض تسمية «الطبقة الوسطى» ، وهي الطبقة التي تقوم على أكتافها في معظم الأحوال مهمة إيقاظ الشعوب من غفواتها والقيام بالثورات .

أما طبقة العمال ، وهم الذين كانوا يعملون في المناجم والمحاجر ، وفي بناء الإهرامات والمقابر والمعابد . وكانت الدولة هي التي تشرف على العمال ، بطريقة تضمن العناية بهم ، ولقد أسهمت طبقة العمال بنصيب وافر في تشييد العمائر المصرية الضخمة من أهرامات ومعابد ومقابر . ومع ذلك فيبدو أنها لم تعش حياة تتفق والجهد الذي كانت تقوم به ، ومع ذلك فقد كان النظام الدقيق الذي اتبع معهم ، قد أعطاهم بعض حقهم ، وضمن لهم مأكلاً وملبساً وربما كانوا أحسن حالاً من الفلاحين . أما دور هذه الطبقة في الثورة فربما كان أكثر أهمية من دور الفلاحين . وأقل خطراً من دور الصناع والفنانين .

وكانت طبقة الفلاحين تؤلف الغالبية العظمى من الشعب ، وكانت تتكون من فريقين الواحد يملك أرضه وحقله ، والآخر أجير عند الفرعون أو عند الأمراء أو حكام الأقاليم . ويبدو أن دور هذه الطبقة في الثورة كان أقل من غيرها .

وتجب الإشارة في هذا المجال إلى أنه لم يكن هناك نظام صريح ، يظل فيه النبلاء والصناع والفلاحون مرتبطين بطبقة معينة جيلاً بعد جيل ، فهناك أمثلة كثيرة انتقل فيها بعض المواطنين من أشخاص عاديين إلى موظفين كبار في الدولة ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك «وني» الذي يفهم من نصه الذي سجله على جدران مقبرته أنه كان رجل من أسرة بسيطة استطاع أن يرتفع إلى كثير من الوظائف المرموقة في البلاد . ومن ثم فقد كانت الفرصة متاحة لكل من

تتوافر فيه الصفات اللازمة لشغل هذه الوظائف العليا. وهكذا كانت هناك أسباب اجتماعية للثورة، ربما نتيجة تسلط طبقة خاصة على كل الوظائف الهامة في البلاد وربما استغلال هذه الوظائف الهامة استغلالاً سيئاً، ووجود فواصل كبيرة بين الطبقات وبعضها.

ولقد كان لضعف الملكية وتخاذلها أمام حكام الأقاليم، أثره في قيام الثورة ولقد بدأ هذا الضعف منذ منتصف الأسرة الخامسة، وبلغ ذورته على أيام ببي الثاني الطويلة، مما دفعه إلى أن يعين وزيرين، الواحد للصعيد، والآخر للدلتا، ورغم ذلك فقد استمر حكام الأقاليم في فرض الضرائب الفادحة واحتفظوا بها لأنفسهم وامتنعوا عن توريدها إلى بيت المال، حتى أصبحت الحكومة في منف شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها وممارسة حقوقها، فتوقف إرسال البعثات إلى المناجم، وتجدد خطر الهجرات الآسيوية وهو الأمر الذي ساهم وساعد على قيام الثورة فلقد استدعت الطبيعة الجغرافية لمصر وجود سلطة قوية قادرة على فرض إرادتها، وقوة السلطة تستمد من وحدانيتها من ناحية ومن مركزيتها من ناحية أخرى، وكل هذا بدوره اقتضى توافر حد أدنى من الاستقرار والاستمرار.

ونظراً للضعف الذي أصاب الملكية، وعدم قدرة الملوك على كبح جماح حكام الأقاليم الذين سخروا كل ما على اقطاعيتهم من بشر وأراض وموارد لمصالحهم الشخصية ومساهمة الكهنة في هذا الاستغلال أيضاً، أن شعر الناس بالظلم وأن عليهم تغيير هذه الأوضاع جميعها بدءاً من الملكية ذاتها، ويعبر هذا الأمر في نفس الوقت على بلوغ المجتمع المصري درجة من الوعي والإدراك جعلته يقرر رفع هذا الغبن الواقع عليه، وكان لهذا العامل أثره الفعال في دفع الناس للقيام بالثورة.

ونتيجة للانهيار الداخل الذي أصاب البلاد، فقدأصبحت الدولة عاجزة عن صد موجات التسلل الأجنبي من دخول البلاد، حتى أخذ هؤلاء الأجانب يعيثون الفساد في الدلتا، وعبر عن هذه الحالة الحكيم «ايبو ـ ور» بقوله «لقد

أصبح الأجانب أناساً في كل مكان. . . لقد أصبح الأجانب مهـرة في حرف الدلتا»[1].

وعبر المفكرون خلال عصر الثورة الاجتماعية عن الأحوال السيئة التي مرت بها البلاد وذلك في أسلوب أدبي بليغ. ومن هؤلاء المفكريت الحكيم «ايبو ـ ور» الذي عبر عن هذه الأحوال السيئة وذلك في سياق تقديمه النصح لملك الجالس على العرش طالباً منه العمل على انتشال البلاد مما هي فيه، ومما جاء فيها:

«. . . انظر الآن، لقد حدث شيء لم يحدث منذ وقت طويل، لقد سرق عامة الناس الملك وأخذوه. . . وأصبح الهرم خالياً مما فيه» (يشير بذلك إلى مهاجمة أهرام الملوك السابقين وسرقة مومياتهم وما كان معها).

«. . . انظر الآن، لقد وصل الأمر إلى أقصى درجات السوء، وحرمت البلاد من الملكية على يد فئة لا تعرف كيف تسير الأمور. . .

«انظر، لقد أصبحت النبيلات يعملن بأيديهن، ويعمل النبلاء في حوانيت الحرف، وصبح كل من ينام على حصير مالكاً لسرير.

«إنظر، إن من كان يرفل في الحلل أصبح يرتدي الأسمال، ومن لم ينسج شيئاً لنفسه أصبح الآن مالكاً لأغلى ملابس الكتان.

«انظر، إنه لم يعد هناك وجود للدواوين، وصار الناس أشبه بقطيع لا راعي له.

«انظر لقد ألقى بقوانين قاعة العدل ظهرياً، فصارت تدوسها الناس

---

(١) توجد بردية ايبو ـ ور حالياً في متحف ليدن بهولندا، وأول من أشار إليها من العلماء، العالم الهولندي لانجا وذلك في عام ١٩٠٣، وفي عام ١٩٠٩ قام سيرالن جاردنز بترجمتها ترجمة دقيقة، وقدم دراسة وافية لها وذلك في مؤلفه. وناقش جيمس هنرى برستد أهميتها وأحسن تحليلها في مؤلفه:

Gardiner, A. H The Admontionsof an Egyptian Sage, Leipzig, [1909, PP. 37 - 38.

Breasted, J. H., The Dawnof Conscience, New York, 1933, PP. 193 - 200.

بالأقدام في المحال العامة، والفقراء يفضونها على قارعة الطريق[1].

«انظر، فالرجل يضرب أخاه من أمه، فما العمل في ذلك؟

إن الرجل يذبح وهو بجانب أخيه. في حين يتركه أخاه لينجو بنفسه، والرجل ينظر إلى ابنه نظرته إلى عدوه، ويذهب الرجل إلى حقله وهو مسلح بدرعه.

«انظر، إن الماشية قد تركت ضالة في الطريق، ولا يوجد أحد يجمعها ويلم شتاتها. . .

«انظر، إن المتحلي بالفضائل يسير وهو محزون لما حدث في البلاد، ويقول آخرون: لو كنت أعلم أين يوجد الإله لقدمت له قرباناً، وفي الحق إن [العدالة] موجودة في البلاد باسمها فقط، وما يلقاه الناس حينما يلتجؤن إليها هو العسف. . .

وفي الحق، إن السرور قد مات، ولم نعد نتذوقه بعد، ولا يوجد في الأرض إلا الأنين الممزوج بالحسرات. . .

وفي الحق، إن كلا من العظيم والحقير صار يقول: ليتني كنت ميتاً، ويقول الأطفال الصغار: ليتنا لم يعلنا أحد ومتنا قبل هذا. . .

وفي الحق، إن قلوب كل القطعان صارت تبكي، والماشية تئن بسبب الحالة التي وصلت إليها البلاد».

ويبلغ التأثر بالحكيم ايبو-ور مبلغه حتى نجده يطلب من الله أن يقضي على كل شيء حتى يستريح من هذه الحالة الشاذة في تاريخ مصر القديم، وفي ذلك يقول:

«ليت الناس يفنون، فلا يحدث حمل ولا ولادة، وليت البلاد تخلو من الغوغاء حتى يقضى على الشجار».

(١) لقد كانت هذه فعلة شنعاء في نظر النظام المصري، إذ كان طلب الكتابات والوثائق من المصالح العامة للاستشهاد بها أو للإطلاع عليها من الأمور المنظمة تنظيماً دقيقاً.

وبعد هذه المقدمة التي أشار فيها ايبو ـ ور إلى الأحوال المتردية التي عاشتها البلاد ، فإنه أخذ يقدم نصحه للملك الجالس على العرش بلباقة وجرأة ، فعبر عن رأيه في مواصفات الحاكم المثالي وحدود سلطاته ومسؤولياته فقال :

إنه هو الذي «يطفىء لهيب (الحريق الاجتماعي) ، ويقال عنه ، إنه راعي كل الناس ، ولا يحمل في قلبه شراً ، وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فإنه يصرف يومه في جمع بعضها إلى بعض وقلوبها مجموعة (من الحزن)» .

وهناك بردية أخرى ، تصف لنا كذلك الأحداث المريرة التي مرت بها مصر في هذه المرحلة نتيجة انعدام السلطة المركزية ، وهي ما تعرف بإسم بردية «نفر ـ رهو»[1] ، وقد سجلت هذه البردية في أوائل عصر الأسرة الثانية عشرة بعد انتهاء هذه الأحداث ، ولكن كاتبها نسبها إلى فترة بعيدة ترجع إلى أيام الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ، ومما جاء فيها :

« . . . سأريك البلاد وقد أصبحت رأساً على عقب ، وحدث فيها ما لم يحدث من قبل ، سيمسك الناس بأسلحة القتال ، وتعيش البلاد في فزع ، وسيصنع الناس سهاماً من النحاس ، وسيسعى الناس للحصول على الخبز بإراقة الدماء . . .

«يضحك الناس ضحكة الألم ، ولن يكون هناك من يبكي على ميت ، أو يقضي الليل صائماً حزناً على من توافيه المنية ، ولن يهتم رجل إلا بنفسه . .

«لن يعنى أحد بشعره ، ويجلس الإنسان في مكانه لا يحرك ساكناً ، بينما يرى الناس يقتلون بعضهم البعض ، لقد أصبح الإبن ضد أبيه ، وصار الأخ عدواً لأخيه ، وصار الرجل يقتل أباه . . .

---

(١) توجد هذه البردية حالياً فى متحف لينينجراد في الإتحاد السوفيتي تحت رقم ١١١٦ ب ، وأول من قام بنشرها العالم الأثرى الروس جولينيشف W. Golenischeff عام ١٩١٣ ، وتلاه فى ذلك العديد من العلماء ومنهم سيرالن جاردز وأدولف إرمان .

«لقد انتهى كل شيء جميل ، وصار الناس يفعلون ما لم يفعلوه من قبل ، إنهم يأخذون أملاك الرجل ويعطونها للغريب . . .

« . . . أصبح للكلام في قلوب الناس وقع مثل وقع النار ، ولم يعد أحد يصبر على سماع النصيحة ، لقد قلت مساحة الأراضي ، ولكن عدد ملاكها تضاعف ، ومن كان يمتلك الكثير أصبح لا يملك شيئاً . . . . »

نتائج الثورة الاجتماعية الأولى

ولقد ترتب على قيام الثورة الاجتماعية الأولى نتائج هامة في المجالات السياسية والاجتماعية والدينية .

مـن النـاحية السياسية ، كان للثـورة نتائـج هامـــة من ناحية تغير مركز الفرعون فلم يصبح هو الملك الإله سليل الآلهة الذي تكرم فأقام على أرض مصر، بل أصبح الملوك عرضة للنقد، وأصبحوا معرضين مثلهم كبقية الناس للوقوع في الخطأ ، فلقد كان لسوء الأحوال التـي عاشتهـا مصـر إبـان هذه المرحلة أثرها في التقليل من قدسية الفرعون ، فأصبح إنساناً أكثر منه إله .

ونادي المفكرون خلال هذه الفتـرة بتـطبيق العدالـة الاجتمـاعية بين الناس جميعاً ، ومن هنا فقد احتلت العدالة [ماعت] مكانة كبرى في النفوس ، وأخذ الملوك يضعونهـا في ألقابهـم للإشـارة إلـى تمسكهـم بالعدالـة التـي أصبحت الضمير الخلقي الذي يحاسب عليه الإنسان في العالم الآخر وفي ذلك يشير الملك الأهناسي اختوى في نصائحه التي وجهها إلى ابنـه الملك مرى كارع[1] محذراً إياه من مغبة مخالفة القانون وعدم الالتزام بالعدالـة ، حيث يحاسب الإنسان في العالم الآخر على ما قدمت يداه . وفي ذلك يقول :

«إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبـون المذنـب لا يرحمـون الشقي يوم مقاضاته ولا ساعة تنفيذ القانون . . . ولا تتحدث عن طول العمر،

---

(١) كتب النص المحفوظ لهذه البردية فى الأسرة الثامنة عشرة ، وهـو موجـود حالياً في متحف لينجراد بالاتحاد السوفيتى ، وهناك ترجمات كثيرة لها ، منها ترجمة جاردنر انظر:

Gardiner, A. H.,In Journal of Egyptian Archaeology, vol. 1, (1914), PP. 20 - 36.

لأن القضاة ينظرون إلى مدة الحياة كلها كأنها ساعة ، فإن الإنسان يبعث ثانية بعد الموت وتوضع أعماله بجانبه كالجبال . إن الخلود مثواه هناك (يعني في الآخرة) والغبي لا يكترث لذلك ، أما الإنسان الذي يصل إلى الآخرة دون أن يرتكب خطيئة ، فإنه سيثوى هناك ويمشي مرحاً مثل الأبرار الخالدين . . . » .

وحدد المفكرون الصفات الواجب توافرها في الحاكم الذي يجلس على العرش ، وهي أن يكرس جهده في خدمة مصالح الدولة ، والعمل من أجل مصلحة رعاياه ، وأن يمتلأ قلبه بحبهم والعطف عليهم . ولقد ورد في شكاوى القروي الفصيح[1] ما يشير إلى مسؤوليات الحاكم تجاه شعبه ، فهو نصير المحتاجين والضعفاء ، وفي ذلك يقول : إن الحاكم هو : «أبو اليتيم ، وزوج الأرملة ، وأخ من هجره أهله ، ودثار من لا أم له» وفي الصفات التي يجب أن يتصف بها الحاكم يقول موجهاً كلامه للحاكم : «لاتنطق كذباً لأنك عظيم ، وأنت بذلك مسؤول ، ولا تكن خفيفاً لأنك ذو وزن ، ولا تتكلمن بهتاناً لأنك الموازين ، ولا تحيدن لأنك الإستقامة . إنك والموازين سيان ، فإذا مالت فإنك تميل كذباً ، إن لسانك هو المؤشر العمودي للميزان ، وقلبك هو المثقال ، وشفتاك هما ذراعاه ، فإذا سترت وجهك أمام الشر فمن ذا الذي سيكبحه» .

وحدد ابيو ـ ور صفات الحاكم ومسؤولياته ، في أنه هو الذي «يطفىء لهيب (الحريق الاجتماعي) ، ويقال عنه أنه راعى كل الناس ، ولا يحمل في قلبه شراً» .

ورأى المفكرون أنه حتى يثمر الإصلاح الثمرة المرجوة منه ، فلا بد من أن يساعد الحاكم الذي حددوا صفاته ومسؤولياته حكومة صالحة ، وتعددت

(١) لاقت هذه الشكاوى إقبالاً كبيراً أيام الدولة الوسطى ، إذ عثر على أربع نسخ لها ، عدا المقتطفات الأخرى ، وأهم هذه النسخ يوجد في متحف برلين ، وقد ترجمت عدة ترجمات ، منها ترجمة جاردنر ، انظر

Gardiner, A. H., In Journal of Egyptian Archaeology, vol. G (1923).

آراء المفكرين حول هذه الحكومة وتكمل هذه الآراء بعضها بعضاً، ويمكن إيجازها في أن تلك الحكومة يجب أن تتكون من جيل جديد من الموظفين الأكفاء الأمناء العدول، الذين يتولون وظائفهم حسب كفاءتهم الشخصية وليس على أساس الحسب والنسب.

ومن الناحية الاجتماعية، فقد كان للثورة نتائج هامة. لعل من أبرزها الدعوة إلى تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين، لا فرق بين مواطن وآخر إلا بعمله وجده وإخلاصه، وفي ذلك يقول الملك اختوى لابنه: «إياك أن ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع، بل اتخذ لنفسك الرجل من أجل كفايته».

ومن هذه النتائج كذلك في المجال الاجتماعي. الدعوة إلى المساواة التامة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، فقد أدى الوعي القومي في هذه المرحلة المبكرة من حياة الإنسانية إلى ظهور العديد من الأفكار التي تدعوا إلى المساواة، وكانت حججها في هذه المساواة قائمة على أساس خلقي مثالي نابع من الفكر المصري القديم، فالله قد خلق كل إنسان مثل الآخر تماماً في كل شيء فهم متساوون جميعاً في الخلق، كما جعل الأمور التي تتحكم في حياة الناس ملكاً جميعاً وهي المياه والهواء. وسجلت هذه الأفكار على متون التوابيت وجاء فيها: «إن الله خلق أربعة أشياء لمنفعة الناس، وساوى بينهم فيها، أولها، صنع الرياح ليتنفس منها كل إنسان مثل أخيه أثناء حياته. وثانيها صنع مياه الفيضان العظيمة وجعل فيها للفقير ما للعظيم من حق، وثالثها، خلق كل إنسان مثل أخيه ولم يأمرهم بفعل الشر ألا أن قلوبهم قد انتهكت ما أمر به، ورابعها، أنه خلق قلوبهم بحيث تفكر في الغرب (الآخرة) لكي تقدم القرابين للآلهة»[1].

أما من الناحية الدينية فقد كان لأحداث الثورة وما مر به المصريون خلالها من مرارة أثارها الكبيرة في عقائدهم الدينية، فظهر تيار يدعوا إلى

---

(1) Wilson, J. A., In ANET, PP. 7 - 8.

تعديل المعتقدات الفكرية السائدة في مقابل تيار آخر انتقد هذه العقائد بعنف، وفي نفس الوقت فقد بقى هناك من حافظ على عقائد السلف.

ومن أهم الأفكار التي ظهرت أن السعادة في العالم الآخر مرتبطة بالعمل الصالح، وفي ذلك يقول الملك «اختوى» لابنه: «أن فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الشرير».

كما اعتقد في هذه المرحلة في وجود محكمة بعد الموت يحاسب أمامها الناس جميعاً عن أعمالهم التي اقترفتها أيديهم في الحياة الدنيا، ولن تشفع الثروة أو الجاه أو المقابر الفخمة أمام هذه المحكمة، بل الشفاعة لعمل الإنسان الصالح وحده، فكل شخص أعماله موضوعة بجواره، وستقرر المحكمة مصير الموتى أجمعين.

واقترب المصريون في ذلك إلى حد ما من المبدأ الذي قررته الكتب السماوية وهو أن الآخرة إنما هي نتيجة عمل الدنيا فقال سبحانه وتعالى في سورة فصلت (الآية ٤٦) «من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد».

ورغم وجود هذه الأفكار السامية فقد قلل منها استمرار اعتقاد المصريين في أن إقامة المقابر الفخمة والانفاق عليها إنما يضمن سعادة المتوفي في العالم الآخر، ومنها كذلك انتشار السحر وزيادة الاعتماد عليه في عالم الآخرة، ومن ثم فقد لجأوا إلى التعاويذ التي رأوا فيها حماية للمتوفي من الأخطار التي تحف به في الآخرة، ومنها أيضاً اعتقادهم بأن المتوفي يمتزج في العالم الآخر بالإله أوزير، وكان ذلك من شأنه أن يقضي على الهدف من المحاكمة إذا أصبح مجرد هذا الاقتراح كفيلاً بأن يحقق براءة الميت، وأصبح كل ميت يلقب بالمبرأ، ولم يكن هناك مجالاً للاعتراف بأي ذنب اقترفه في حياته، إذ كان عليه أن يعلن براءته من كل ذنب وأن ينسب لنفسه مجموعة من الأعمال الطيبة[1].

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٥٧٢ - ٥٧٣ وكذا نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٣٨١.

الفَصْلُ الخَامِسُ

عَصر الدَولة الوسطىَ

الأسرة الحادية عشرة الطيبية

(من حوالي ٢١٣٣ إلى ١٩٩١ ق . م)

إن كانت سمة عصر الانتقال الأول هي الانقسام والتفتت الذي كانت عليه البلاد بعد انهيار السلطة المركزية بنهاية مركزية عصر الدولة القديمة ، فإن النصف الأول من عصر الأسرة الحادية عشرة الطيبية يدخل في نطاق عصر الانتقال الأول ، إذ تتحدد بداية عصر الدولة الوسطى بحدث معين هو إعادة توحيد البلاد على يد نب حبت رع منتو حتب الأول ، هذا ويلاحظ أن الملوك الأربعة الأوائل من الأسرة الحادية عشرة كانوا معاصرين للأسرة العاشرة في أهناسيا التي استمر حكمها من حوالي ٢١٣٠ إلى ٢٠٤٠ ق . م .

ولن نقدم دراسة تفصيلية عن كل ملك من الملوك السابقين للملك منتوحتب الأول ولكننا سنكتفي بعرض موضوع الصراع بين طيبة وأهناسيا حتى انتهى إلى إعادة توحيد البلاد .

وقد بدأ هذا الصراع في عهد الملك واح عنخ ، أنتف الثاني (من الأسرة الحادية عشرة) الذي خاض حرباً ضد الملك الأهناسي واح كارع ، خيتي الثالث ، ولا نتف الثاني لوح حجري[١] يصف فيه استيلائه على إقليم ثنى وتوسع طيبة شمالاً حتى إقليم أفروديتو بوليس (كوم أشقاو الحالية ، بمركز طهطا محافظة سوهاج) وهناك أدلة أثرية أخرى[٢] تشير إلى أن أنفراد طيبة في عهد هذا الملك شمل المنطقة من الفنتين جنوباً حتى القيس وافروديتوبوليس شمالاً ، هذا وقد أعقب حرب واح عنخ مع الإهناسيين سلام بين البيتين

---

(١) Hayes, W. C..In CAH., vol. I, Part II, P. 477.

(٢) Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs., p. 119.

المالكين سمح فيما يبدو باستئناف العلاقات التجارية بين الجنوب والشمال.

نب حبت رع (منتوحتب الأول) وإعادة توحيد مصر:

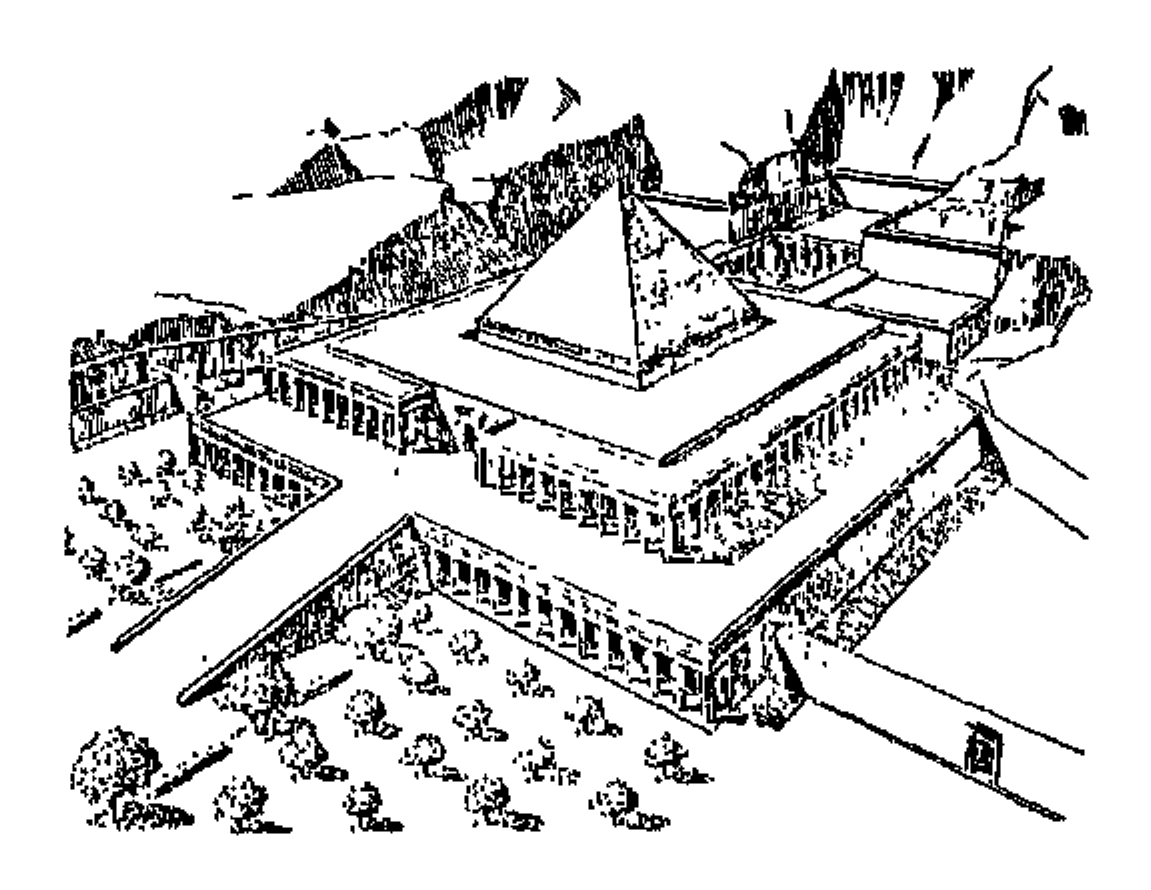
عندما ارتقى العرش، اتخذ (منتوحتب الأول) الإسم الحوريسي سعنخ ايب تاوى» (مجدد حياة قلب الأرضين) واحتفظ به حتى العام الرابع عشر من حكمه على الأقل، وفي هذا العام الرابع عشر حاول حزب مؤيدي البيت المالك في أهناسيا استعادة مدينة ثنى مما أدى إلى استئناف العداء بين طيبة وأهناسيا وبداية هجوم طيبي ضخم تحت زعامة هذا الملك أسفر عن سقوط أهناسيا نفسها وإعادة توحيد مصر. وفي نقش هيكل من الجبلين يرجح أنه يؤرخ بالفترة التي تسبق مباشرة سقوط أهناسيا يمثل منتوحتب الأول يطرح أميراً مصريا والنص المرافق لهذا النص يصف الملك بالظافر الذي على رأس الأرضين الذي أقام النظام في مصر العليا والدلتا... بما يفيد تغلبه على الإهناسيين ومؤيديهم وجعله أمراء مصر الوسطى والسفلى أتباعاً للحكومة المركزية في طيبة، وفي نقش آخر من معبد الملك بالدير البحري يظهر اثنان من الأمراء يلقبان «حاكمي الأرض الشمالية» يقومان بالخضوع أمام الملك.

وعلى ذلك، فلقد كان منتوحتب الأول أول ملوك الأسرة الحادية عشرة الذي أصبح ملكاً حقيقياً على مصر كلها، وعندما تم له ذلك اتخذ لقباً حورياً جديداً يعبر عن هذا الواقع، وهو لقل «سام تاوى» الذي يفيد معنى موحد الأرضين.

ولقد ظهر إسمه في بردية تورين وقائمة سقارة وقائمة أبيدوس، ووصفته قائمة الكرنك بأنه «الإله الطيب، رب الأرضين، ملك مصر العليا والسفلى، سيد القربان، نب حبت رع، المبرأ»، وتظهر مكانته البارزة بين فراعين مصر كمؤسس لعصر جديد وموحد للبلاد بين أقرانه العظام الملك «منى» موحد مصر ومؤسس أول ملكية بدأ بها عصر الأسرات، والملك أحمس الأول مؤسس الدولة الحديثة، وذلك في الرمسيوم، حيث ظهر الملوك الثلاثة «منى» و «منتوحتب الأول» و «أحمس الأول» بوصفهم المؤسسين للدولة

القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة[1] .

وقام منتوحتب الأول بالتخلص من العناصر غير الموالية لحكمه ، فعزل أمراء أسيوط المشاغبين من وظائفهم ، بينما أبقى على الأمراء الموالين له ، وقد عمل الملك على تركيز السلطة المركزية في طيبة وذلك بتعيين موظفيه الطيبيين في المواقع الهامة في الحكومة ، وشغل أحد هؤلاء الموظفين وظيفة حاكم مصر السفلى ، وهي وظيفة جديدة استلزمتها ظروف وجود العاصمة طيبة في الجنوب .



(شكل ١٤) منظور المعبد الجنزي للملك نب حبت رع منتوحتب

وانعكس أثر هذه الوحدة القومية في رخاء البلاد وتقدمها الحضاري ، فاستؤنف تشييد الأبنية وبخاصة معابد الآلهة ومقاصيرها ، فلقد عثر على تماثيل له في معبد الآلهة ساتت في اليفانتين وكذلك في أساسات معبد الآلهة نخبت في

---

(١) Hayes, W. C., op. cit., P. 181.

الكاب ، وفي الجبلين ، كما أعاد بناء معبد الإله مونتو في طود ، وأقام عدة مقاصير في دندرة وأبيدوس .

ومن أهم تشييدات منتوحتب الأول المعمارية ، معبده الهرمي في منطقة الدير البحري في طيبة الغربية والذي يعد طرازاً فريداً في تصميمه ، والجديد هنا ، هو الجمع بين هرم الفرعون ومعبده في وحدة معمارية واحدة ، وتخير الفرعون لمشروعه حضن جبل مرتفع من جبال طيبة الغربية ، وصمم تحت الهرم مسطحين كبيرين يلي أحدهما الآخر ويعلوه ، ويشغل المسطح الأول فناء فسيح في مؤخرته صفتان عريضتان ، في كل صفه صفان من أعمدة مربعة ، وبين الصفتين ممر صاعد يؤدي إلى المسطح الثاني ، وكان يكتنف الممر صفان من شجر الجميز ، في كل صف أربعة أشجار ، وتحت كل شجرة جالس للملك . وتتوسط المسطح الثاني قاعدة مرتفعة كان يقوم فوقها هرم مسمط ، ويحيط بها بهو يتخلله ١٤٠ عموداً ذات شكل ثماني ، وكان يقوم أمام البهو وفي كل من جانبيه رواق يحتوي على صفين من أعمدة مربعة ، ويوجد في مؤخرة البهو ست مقصورات تعلو مقابر بعض نساء البيت المالك ، ويوجد وراء المقصورات فناء ثان يليه بهو يشتمل على ثمانين عموداً في عشرة صفوف ، ويوجد في جداره الخلفي قدس الأقداس محفور في الصخر[1] (شكل ١٤) .

وفيما يتصل بالسياسة الخارجية للملك نب حبت رع منتوحتب الأول ، فنجده بعد أن تمكن من إعادة توحيد البلاد ، عمل على إعادة نشاط مصر في الصحراء الشرقية فأرسل حملة إلى وادي الحمامات ، قضت على مصادر الشغب في هذه المنطقة ، كما أعاد فتح الطريق إلى مناجم الفيروز في سيناء .

وبالنسبة لحدود مصر الغربية فقد أرسل حملة إلى قبائل التحنو الليبية تمكنت من قتل قائد هذه القبيلة ، واتخذ الخطوات الكفيلة بالسيطرة على

(١) محمد أنور شكري : المرجع السابق ، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٩ .

الصحراء الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية[1] وفيما يتصل بالجنوب ، فهناك نقش يسجل قيام الملك منتوحتب الأول بالسفر إلى بوهن مقابل وادي حلف عبر النهر، وأنه قد عبر البلاد جميعاً أثناء رحلته البرية هذه ، وقد عاد منها محملاً بمعادن وأحجار كثيرة[2] .

وأدت حالة الأمن والاستقرار التي شهدتها مصر إلى استئناف إرسال القوافل التجارية إلى النوبة السفلى وشواطىء سوريا ، وربما إلى بونت كذلك . هذا وقد دام حكم منتوحتب الأول ٥١ عاماً وتوفي حوالي عام ٢٠٠٩ ق . م .

---

(١) Vercoultter, J., The Near East, the Early Civilizations, London, 1967, P. 350.

(٢) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٦٣٩ .

سعنخ كارع ـ منتوحتب الثاني :

ارتقى العرش بعد وفاة أبيه ودام حكمه اثنا عشر عاماً اتسمت بالسلام والرخاء، ورغم أنه يمثل في شبابه كمحارب في نقوش المعبد الجنزي لنب‌حبت رع بالدير البحري إلا أنه يبدو أنه كرس عهده في تشييد الأبنية، فقد ترك نقوشاً له في العديد من المعابد من الفنتين جنوباً حتى ابيدوس شمالاً، كما بدأ بناء معبده الجنزي ومقبرته على مسافة نصف ميل إلى الجنوب الغربي من معبد أبيه ولكن هذا البناء لم يكتمل.

ولعل خير شاهد على هدوء الأحوال في هذا العهد هو ما تمدنا به مجموعة خطابات عثر عليها في طيبة لشخص يدعى «حقا نخت» كان يعمل كاهناً جنزياً في مقبرة الوزير «ايبي» في عهد منتوحتب الثاني ثم استدعي في العام الثامن من حكم هذا الملك في عمل بالجنوب وكلف ابنه بالإشراف على المقبرة وعلى مزرعة يمتلكها في شمال طيبة وكانت تقيم فيها عائلته، والواقع أن حقا نخت لم يترك مجالاً في التوجيه إلا وطرقه سواء في توجيه ابنه لكيفية معاملة العمال أو في معاملة عائلته والخدم وتخصيص أعمالهم، ولا شك في أن هذه الحياة الزراعية الهادئة التي تقدم الخطابات صورة عنها إنما هي ثمرة الأمن والسلام الذي تمتعت به البلاد في هذا العصر.

وفي العام الثامن من عهد منتوحتب الثاني غادرت حملة وادي النيل قرب مدينة قفط على النيل واتجهت شرقاً عن طريق وادي الحمامات إلى البحر الأحمر وكان الهدف من هذه الحملة استئناف البعثات التجارية البحرية مع بونت، وتمكنت الحملة من التخلص من قبائل بدو الصحراء الشرقية كما قامت بحفر ما يقرب من خمسة عشر بئر ماء على طول الطريق لضمان تزويد البعثات التي تمر بهذا الطريق بالمياه وكانت هذه البعثة بقيادة «حنو»[1].

ولقد أشار «حنو» إلى وجود علاقات مع «الحاونبو» سكان جزر البحر

---

(١) Vercoutter, J., op. cit., pp. 351 - 352.

المتوسط وعلى الأخص جزيرة كريت، وتميزت هذه العلاقات على الأرجح بطابع الود[1].

نب تاوى رع منتوحتب الثالث:

لم يخلف هذا الملك من الآثار إلا القليل، وربما كان ذلك لقصر عهده، إذ تشير بردية تورين إلى فترة سبع سنوات فيما بين نهاية حكم منتوحتب الثاني وقيام الأسرة الثانية عشرة دون أن تحدد لها ملكاً معيناً، وربما يرجع ذلك إلى نقص الوثائق المتصلة بهذا الملك لدى كتبة هذه القائمة وكذلك قوائم الرعامسة[2].

ومن الأدلة الأثرية المتبقية من عهده، أو حفظت لنا اسمه، إناء حجري عثر عليه في اللشت على مقربة من هرم الملك أمنمحات الأول، وقد كتب إسمه على الإناء من الخارج وذلك على النحو التالي: «حور نب تاوى ابن رع منتوحتب» بينما كتب الاسم الحوري للملك امنمحات في داخل الإناء[3].

كما حفظت لنا الآثار إرساله البعثات في أعوام حكمه الأول والثاني لاحضار الأحجار من جنوبي أسوان وكذلك وادي الحمامات لقطع كتل حجرية للتابوت الملكي فضلاً عن تشييد معابد في الصعيد، وقد كانت هذه البعثة التي تكونت من عشرة آلاف رجل جمعوا من مصر العليا والسفلى تحت قيادة الوزير امنمحات الذي يذكر أنه كان مشرفاً على كل شيء في هذه الأرض كلها[4].

---

(١) فيما يتصل بالعلاقات بين مصر وكريت خلال عصر الأسرة الحادية عشرة، انظر:
سوزان عباس عبد اللطيف: دراسة تاريخية للعلاقات بين مصر واليونان منذ منتصف الألف الثاني ق. م وحتى منتصف الألف الأول ق. م.. (رسالة دكتوراه)، الإسكندرية ١٩٨٧، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) Vercoutter. J., op. cit., p. 353.

(٣) Hayes, W. S., op. cit., P. 167.

(٤) Breasted, J. H., op. cit., parg. 439.

ويرجح أن هذا الوزير هو الذي ارتقى عرش مصر بعد عودته من وادي الحمامات بقليل وأسس أسرة ملكية جديدة هي الأسرة الثانية عشرة. ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن امنمحات لم يستول على العرش بطريق القوة. ورغم الغموض الذي يكتنف نهاية الأسرة الحادية عشرة وبداية الأسرة الثانية عشرة، فإنه يمكن القول بأن انتقال العرش من الأسرة الحادية عشرة إلى الأسرة الثانية عشرة قد تم دون اتخاذ إجراء سياسي عنيف.

الأسرة الثانية عشرة

(من حوالي ١٩٩١ - ١٩٦٢ قبل الميلاد)

امنمحات الأول:

يرد في نبوءة «نفرتي»[1] كاهن تل بسطة في شرق الدلتا: «. . . كل خير قد ولى والبلاد تعاني من جراء البدو والغزاة الأعداء بيننا والأسيويين يدخلون مصر. . المالك أصبح في حاجة يسأل الناس وغدا الأجنبي غنياً. . . نقصت الأرض وتضاعف حكامها. . . إن المخلص سيأتي سيظهر ملك في الجنوب يدعى امنى (اختصار اسم أمنمحات). . . ابن امرأة من تاستي طفل من نخن سيستلم التاج الأبيض ويرتدي التاج الأحمر ويوحد القوتين. . . ».

ومن الواضح أن هذه النبوءة تهدف إلى تدعيم مركز الملك الجديد أمنمحات الأول وذلك بتقديم صورة بغيضة عن أحوال البلاد في الدلتا في أواخر الأسرة الحادية عشرة، ولو أن نفرتي يمثل في هذه النبوءة كمعاصر لسنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة، إلا أن هذا وحي خيال ولا شك أن نفرتي هذا من صنائع أمنمحات الأول.

وتبين من تلك النبوءة كذلك أن أم أمنمحات كانت من العامة «امرأة من إقليم الفنتين» (تاستي) أما أبوه سنوسرت فكان من العامة أيضاً، واعتبرته الأجيال التالية سلفاً للأسرة وأعطى اللقب أبو الإله سنوسرت.

ونظراً لافتقار امنمحات إلى الأصل الملكي فقد اتخذ ثلاثة أسماء في

---

(١) انظر:

Gardiner, A. H., In J. E. A., vol. 1 (1914), PP. 160 - 106.

ألقابه الملكية الجديدة ضمنها اللقب وحم مسوت (معيد الولادات) بما يشير إلى أن عهده كان عهداً جديداً في تاريخ البلاد. ويعني اسم امنمحات «امون في المقدمة» إنه كان من عباد الإله آمون، وتدلنا التسمية أنه رفع هذا المعبود إلى مرتبة الصدارة بين الآلهة الأخرى بجعله الإله الرسمي للدولة.

ولعل أهم أعمال امنمحات الأول الداخلية انشاؤه لعاصمة جديدة لمصر وذلك حين أدرك أن طيبة (الأقصر) لا تصلح عاصمة للبلاد فاختار مكاناً وسطا بين الدلتا والصعيد هذا فضلاً عن رغبته في أن تكون عاصمته على مقربة من الأسيويين وكذا على مقربة من منطقة خصبة يمكن استغلالها في مشاريعه الزراعية، وأخيراً ليكون على مقربة من أنصاره في مصر الوسطى وهكذا كانت «ايثت تاوى» على مبعدة ١٨ ميلاً إلى الجنوب من منف - ويعني اسمها القابضة على الأرضين عاصمة لامنمحات الأول وأسرته من بعده[١]، وبالقرب من العاصمة شيد امنمحات الأول هرمه وهو من اللبن وكساه بالحجر الجيري، وإلى الشرق من هرمه يقع معبده الجنزي.

هذا وقد اتبع سياسة جديدة بين أمراء الأقاليم منعت التنافس بينهم وذلك عن طريق إقامة حدود ثابتة بين كل إقليم وآخر كما سن قانوناً نظم به نصيب كل إقليم من مياه النيل الخاصة بري الأراضي الزراعية هذا فضلاً عن تحديد الكمية التي يقدمها كل إقليم من المواد الغذائية وعدد السفن اللازمة للأسطول وإعداد الرجال للجيش المرابط للتاج الملكي.

وفي بداية عهد هذا الملك أبحر مع «خنوم حتب» حاكم بني حسن في أسطول من عشرين سفينة حتى الفنتين، وقضى على ما تبقى من جيوب المقاومة لحكمه في هذه المنطقة المضطربة كما قام الملك بجولة تفتيشية في الشمال إلى الدلتا، ويبدو أنه دفع غارات جماعات البدو على حدودها الشرقية وأقام هناك موقعاً حصيناً للحيلولة دون غاراتهم المستقبلة أطلق عليه «حيطان الأمير»[٢].

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٥٩٠ - ٥٩١.

(٢) Vercoutter, J., op. cit., p. 361 - 362.

وفي العام العشرين من حكمه أشرك معه ابنه سنوسرت الأول في الحكم، وقد كان هذا تقليداً أتبعه ملوك الأسرة الثانية عشرة بعده ربما لدرء الأخطار التي قد تحيط بالدولة عند موت الملك إذا لم يكن الولي على العرش محدداً، وقد اشترك كل من امنمحات الأول وسنوسرت الأول في العرش مدة عشر سنوات وفي أثناء تلك الفترة فتحت بلاد النوبة السفلى واحتلتها القوات المصرية بقيادة سنوسرت.

وفي العام التاسع والعشرين من حكم امنمحات الأول امتد غزو النوبة جنوباً إلى كوروسكو وربما امتد هذا الغزو إلى أبعد من ذلك لأنه من المعتقد أن امنمحات الأول هو مشيد قلعة الحدود عند سمنة جنوب الجندل الثاني، ويفيد لوح حجري يؤرخ بالعام الرابع والعشرين من حكم امنمحات الأول انتصار جنود الملك على بدو الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء كما نعرف مالا يقل عن حملة قادها سنوسرت في عهد أبيه ضد التمحو الليبيين في وادي النطرون.

ومات امنمحات بعد حكم دام ثلاثين عاماً وقد اغتاله بعض المتآمرين الذين انتهزوا فرصة غياب ابنه سنوسرت في حملة في ليبيا للتخلص من هذا الملك العجوز واغتالوه ليلاً، ويرد وصف هذا الاغتيال في تعاليم امنمحات[1] إلى ابنه الأكبر، وولي عهده سنوسرت وفي نص أدبي شهير من هذا العصر هو قصة سنوهي[2] الذي كان مرافقاً لسنوسرت في حملته.

سنوسرت الأول:

تمكن سنوسرت الأول (خبر كارع) من القضاء على المؤامرة التي أدت إلى مقتل أبيه وقد اشتهر سنوسرت الأول بكثرة أعماله العمرانية. ففي مصر ما يقرب من ٣٥ منطقة وجدت بها آثار من عهده موزعة على الوادي من

---

(١) انظر. Wilson. J. A., In ANET. PP. 418, 419.

(٢) انظر Ibid., PP. 18-22.

الإسكندرية وحتى الجندل الأول جنوبي أسوان غير أن أهم أعماله في هذا المجال إنما كان تشييده من جديد لمعبد رع بمدينة هليوبوليس وليس هناك شك في أن اهتمام سنوسرت بمدينة هليوبوليس إنما كان لأسباب سياسية ودينية ذلك لأن الإله رع ـ معبود هليوبوليس ـ هو أكبر الآلهة المصرية وسيدهم ، كما أنه واحد من أقدمهم جميعاً . وكانت الأسرة الثانية عشرة تهتم كثيراً بإحياء العقيدة وسطوتها فضلاً عن إرضاء الكهانة المصرية جمعاء ، وكان سنوسرت شديد الرغبة في إعادة المقام الأرضي لهذا الإله ، وأخيراً فإن هليوبوليس إنما كانت تقع في مدخل الدلتا ، وكان معبدها من المراكز الكبرى للحج لكل سكان مصر السفلى ، ومن ثم فقد كسب «سنوسرت الأول» احترام الحجاج جميعاً ، عندما قام بتبجيل أون[1] .

وقد شيد سنوسرت جوسقا في الصرح الثالث في الكرنك ، ولقد أمكن إعادة بنائه نظراً للعثور على أحجاره كاملة . ويبدو أنه كانت تتوسط الجوسق منصه يعلوها عرشان ، وإن سنوسرت الأول قد احتفل فيه بيوبيله الثلاثيني[2] .

هذا وقد عني سنوسرت الأول عناية كبيرة باستغلال مناجم الصحراء فأرسل البعثات التي جلبت الفيروز والنحاس من سيناء ، والمرمر من محاجر حتنوب ، كما حصل على الديوريت من الصحراء النوبية .

هذا وقد اتبع «سنوسرت الأول» سياسة أبيه تجاه أمراء الأقاليم ، والذين كان الكثير منهم من أبناء أولئك الذين كانوا يحكمون أقاليمهم على أيام أبيه امنمحات الأول فظلوا موالين له بعد اغتيال أبيه ، ولم يتجاوزوا سلطان فرعون الذي منحهم حقوقهم الوراثية ، فضلاً عن ثرواتهم الشخصية ، كما كانوا يمدونه بفرق الجند التي كان يتكون منها الحرس الملكي .

واتبع سنوسرت الأول سياسة أبيه في نظام الحكم المشترك فأشرك معه ابنه امنمحات الثاني . هذا وقد بنى سنوسرت الأول مجموعته الهرمية على

---

(١) Vercoutter, J., op. cit., PP. 370 - 371.

(٢) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

مبعدة ميل ونصف إلى الجنوب من هرم أبيه امنمحات الأول.

وفي العام الثامن والعشرين من حكمه أرسل حملة لتسهيل فتح النوبة السفلى تمكنت من احتلالها والسيطرة عليها حتى بوهن عند الجندل الثاني، والتي عثر فيها على لوح من الحجر نقش فيه منظر الملك وهو يقف أمام إله الحرب مونتو ويرافق المنظر نص يرد فيه: «لقد أحضرت لك كل بلاد النوبة تحت قدميك أيها الإله الطيب»[1]. ويبدو أن السيطرة المصرية قد امتدت حت الجندل الثالث متضمنة أرض كوش التي يرد ذكرها لأول مرة في النصوص المصرية.

وفي الغرب أرسل الملك حملات تأديبية ضد التمحو والتحنو الليبيين، كما عمل على تأمين المواصلات مع الواحات، إذ كانت تمر بها القوافل التجارية ورسل الملك. ويتبين من قصة «سنوهي» إن سنوسرت الأول لم تكن له أية سلطة على سوريا التي لجأ إليها سنوهي بعد خروجه، وهو أمر يبدو مؤكداً إذا لم يعمل ملوك مصر على مد نفوذهم خارجها باستثناء النوبة قبل عصر الدولة الحديثة، وكل ما حققه الملك حينئذ لم يتعد إقامة علاقات طيبة مع رؤساء فلسطين وسوريا بما يفيد استمرار التجارة مع غربي آسيا وتنقل التجار والرسل المصريين في حرية تامة.

٣ ـ امنمحات الثاني:

اتبع امنمحات الثاني مع أمراء الأقاليم نفس سياسة أبيه، فقد أكد لبعضهم حقوقهم الوراثية مع الحفاظ على هيمنة العرش على أقاليمهم، ويبدو أن حياة الهدؤ والاستقرار التي عاشتها البلاد على أيامه قد أتاحت له فرصة الإشراف عليهم، يولي منهم من يشاء ويعزل من يشاء، ومع ذلك فهناك ما يشير إلى أن حاكمي إقليمي الأشمونين وبني حسن قد استعادوا كثيراً من سلطاتهم وبدأوا في منافسة الفرعون في الثراء والتفاخر.

(١) Breasted, J., In PSBA, vol. 23 (1901) PP. 230 - 235.

وقد شيد امنمحات الثاني هرمه إلى الجنوب الشرقي من هرم سنفرو الشمالي في دهشور بحوالي ثمانية كيلومترات، وقد شيد هرمه بالأحجار والطوب اللبن، وربما كان ذلك راجعاً إلى رغبته في خفض تكاليف البناء. ولقد عثر في مجموعته الهرمية على مجموعة من المجوهرات والأمتعة الشخصية وهي ما عرفت باسم «كنز دهشور»[1] وقد وجدت في مقبرة زوجة الملك وبناته. وهي تشتمل على عقود ذهبية وأحجار كريمة وأدوات مغطاة بصفائح الذهب، وتشهد دقة صناعتها وذوقها الفني بمقدرة الصانع المصري ومهارته.

ولم يبذل امنمحات الثاني جهداً حربياً يذكر. واقتصر نشاطه على بعض النواحي الداخلية. فاهتم باستغلال مناجم الذهب في النوبة وبإرسال البعثات التجارية إلى سورية وبونت.

٤ ـ سنوسرت الثاني:

يتميز عهد سنوسرت الثاني ببدء مشروع استصلاح الأراضى في إقليم الفيوم. وقد قام سنوسرت الثاني بنشاط عمراني في العديد من مناطق مصر، فأقام معبداً في أهناسية. كما عثر على آثار له في الكرنك وسرابيط الخادم ووادي الحمامات والقصير واللاهون واسوان.

ولقد شيد هرمه في منطقة اللاهون عند مدخل الفيوم جنوب العاصمة ايثت تاوى حوالي ٤٠ كيلومتر، وبنى الهرم فوق مرتفع من الأرض وفى وسطه صخرة ارتفاعها ١٢ متراً بنى حولها الهرم الذي شيد معظمه من الطوب اللبن. وكسى الهرم بكتل من الحجر الجيري، لا يكاد يوجد منه شيء في الوقت الحاضر.

وحتى يحمي هرمه من اعتداءات اللصوص، فقد جعل مدخله في الجهة الجنوبية، وهو عكس الاتجاه الذي تعود عليه ملوك مصر وهو الناحية

---

(١) Edwards. I. E. S. The Pyramids of Egypt. 1965, P. 235.

الشمالية. ولمزيد من الحيطة، فقد جعل المدخل يبدأ من بئرين رأسيتين خارج مبنى الهرم نفسه، وأخفوا البئر الرئيسية تحت أرضية مقبرة إحدى الأميرات، أما المدخل الثانوي فكان تحت أرضية بهو المعبد. وفي الجهات الجنوبية والشرقية والغربية من الهرم زرعت أشجار في حفرات مستديرة، وهو اتباع للتقليد الذي بدأ في الأسرة الحادية عشرة في معبد الملك نب حبت رع منتوحتب في الدير البحري[1].

وشيد سنوسرت الثاني على مقربة من هرمه مدينة صغيرة للمهندسين والموظفين والعمال الذين كانوا يعملون في بناء الهرم، ولتكون بيوتها بعد ذلك مساكن للكهنة الذين سوف يعهد إليهم بأداء الطقوس الجنزية في معبديه، وقد أطلق على هذه المدينة «حتب سنوسرت» أي «سنوسرت راضي». وترجع أهمية هذه المدينة إلى أنها أقدم مدينة مصرية حفظت لنا وتمكن علماء الآثار من التعرف على تخطيطها.

وفيما يتصل بعلاقات مصر الخارجية في عهد سنوسرت الثاني فإننا نتعرف من نقش ملون على أحد حيطان مقبرة خنوم حتب حاكم إقليم بني حسن في عهد سنوسرت الثاني. أن هذا الحاكم قد استقبل في إقليمه جماعة من البدو الأسيويين الذين ربما أتوا من فلسطين وكان على رأسها ابشا «حاكم الأراضي الجبلية»، وأحضروا معهم بعض هداياهم[2].

وتجدر الإشارة إلى أنه قد عثر في منطقة هواره ومدينة كاهون على أختام وأوان ذات زخارف تشبه الزخارف الكريتية التي شاعت في العصر المينوي الوسيط[3].

ولم يزد حكم سنوسرت الثاني عن تسع سنوات بما في ذلك الفترة التي

(١) أحمد فخري: الأهرامات المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣١٣ - ٣١٧.

(٢) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٨٠.

(٣) سوزان عباس عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٦٥.

اشترك فيها مع أبيه امنمحات. وعندما ترك العرش لابنه سنوسرت الثالث استقبلت مصر ملكاً كان مقدراً له أن يكون من أعظم ملوك مصر.

٥ ـ سنوسرت الثالث :

يعتبر عهد سنوسرت الثالث «خع كاورع» من أزهى العهود في عصر الدولة الوسطى، ويتميز بانجازين لهما أهمية بالغة تقتصر على عهده، بل أيضاً لمستقبل البلاد، وهذان الإنجازان العظيمان هما: القضاء على نفوذ حكام الأقاليم، وضم النوبة.

ففي عهد امنمحات الأول وخلفائه استعاد حكام أقاليم مصر العليا والوسطى الكثير من امتيازاتهم ونفوذهم، وبدأوا مرة أخرى ينافسون الملوك في الثروة والمظهر، ونظراً لأن سنوسرت الثالث كان يهدف إلى التمتع بحكم فردي مطلق، فإنه في النصف الأخير من عهده، جرد حكام الأقاليم من حقوقهم وامتيازاتهم ونفوذهم السياسي، ولا ندري تماماً كيف حقق الملك هذا. ولكن في عهد سنوسرت الثالث انتهى بناء المقابر الضخمة في الأقاليم ولم نعد نسمع عن «الحكام العظام» للمقاطعات، بدلاً من ذلك نجد أن مصر تقسم إلى ثلاث تقسيمات جغرافية كبيرة تضم مقاطعات مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا، ويدير كل منها قسم إداري تابع للحكومة المركزية. وكان يرأس كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موظف يساعده بعض المعاونين وعدد من الكتبة. وكانت الأقسام جميعاً تحت الإشراف المباشر للوزير. ونتج عن إلغاء طبقة النبلاء الإقطاعيين ظهور طبقة وسطى في المجتمع المصري تتكون من الحرفيين والتجار وصغار المزارعين وما شابه ذلك الذين يمكن التعرف على زيادة ثرواتهم وأهميتهم في بناء المجتمع المصري من العديد من التماثيل الصغيرة الخاصة من هذه الفترة. ومما لا حصر له من الألواح الحجرية التي أهداها هؤلاء الناس بالقرب من معبد أوزير في أبيدوس[1].

أما عن ضم النوبة، فيبدو أن قبائل الكوشيين قد نزحت شمالاً منذ عهد

(١) Vercoutter, J., op.cit., p. 374.

سلفيه امنمحات الثاني وسنوسرت الثاني وبدأوا يهددون أمن المنطقة بين الجندلين الأول والثاني ، وإزاء هذا التهديد قام الملك بشق قناة في صخور الجندل الأول لتكون طريقاً لسفنه الحربية عند اتجاهها إلى الجنوب ، وأطلق عليها اسم «جميلة هي طرق خع كاورع»[١] .

وفي العام الثامن من حكم الملك قام بحملته على بلاد النوبة مبحراً عبر القناة في طريقه لقهر «كوش التعسة» وفي أعقاب هذه الحملة الأولى أقام سنوسرت الثالث لوحة للحدود عند سمنة جنوب وادي حلفا بحوالي ٣٧ ميلاً ، ونتبين منها أن الكوشيين الذين أطلق عليهم المصريون القدماء تسمية الزنوج (نحسيو) كانوا يمثلون خطراً فعلياً عمل المصريون على درئه ببعض القيود التي قررها سنوسرت ، ومما يؤكد أن هؤلاء الكوشيين كانوا مصدر قلق للمصريين أن الملك اتبع حملة العام الثامن بما لا يقل عن ثلاث حملات أخرى ضدهم قادها الملك بنفسه في الأعوام الثاني عشر والسادس عشر والتاسع عشر من حكمه . وسجل نصره في هذه الحملات في لوحه النصر في سمنة .

ولحماية حدود هذا الإقليم الجديد (النوبة السفلى) حتى سمنة ، ولدرء أي خطر من الجنوب أقيمت سلسلة من ثماني قلاع بين سمنة في الجنوب وبوهن القديمة على البر الغربي للنيل في مواجهة وادي حلفا وينسب إلى سنوسرت الثالث تشييد وإعادة بناء ثلاث من هذه القلاع على الأقل هي قلعة سمنة على الضفة الغربية للنيل ، وقلعة سمنة في مواجهة القلعة السابقة على البر الشرقي للنيل ، وقلعة أوروناتي وهي إلى الشمال من القلعتين السابقتين على جزيرة في الجندل الثاني .

وقد قاد سنوسرت الثالث حملة في الشمال وصل فيها إلى «سكمم»[٢] ويرجح بعض الباحثين أنها «ششم» بجبل أفرايم في فلسطين ، ولم تستهدف

---

(١) Breasted, J. H., ARE, Vol. I, parag. 642 - 648.

(٢) Ibid., parag. 676.

تلك الحملة التوسع أو مد النفوذ المصري إلى هذه الجهات ، بل كانت تأميناً للحدود المصرية الشمالية .

وقد دام حكم سنوسرت الثالث خمسة وثلاثين عاماً ، وله هرم من الآجر في دهشور[1] . وقد شيد معبداً في أهناسية وآخر في أبيدوس كما اهتم بهذه المدينة المقدسة ، ومن ثم فقد أمر بترميم ما تهدم من معابدها وتنظيم أعيادها ، كما عثر له على تمثالين بين أطلالها ومعبد جنازي صغير .

هذا وقد اتبع سنوسرت الثالث سنة أسلافه وأشرك معه في الحكم ولده «امنمحات الثالث» في أخريات أيامه بفترة قصيرة .

امنمحات الثالث :

جنى امنمحات الثالث (ني ماعت رع) جهود أبيه الحربية ، فوجه جهوده لتنمية واستثمار الموارد الاقتصادية لمصر ، وظهر ذلك في زيادة أعمال التعدين في كل من الصحراء الشرقية والغربية فأرسل البعثات إلى سيناء لإحضار الفيروز والنحاس[2] ، كما أرسل البعثات إلى صحراء النوبة الغربية لإحضار أحجار الديوريت وغيرها من الأحجار من هناك .

ووجه امنمحات الثالث اهتمامه لاستغلال مياه فيضان النيل وعدم ضياعها سدى ، فأمر بتسجيل ارتفاع النهر في سمنة وقمنة ، ولقد اتخذ من بحيرة منخفض الفيوم خزاناً طبيعياً يحبس فيه مياه النيل الزائدة ، ومن أجل ذلك بنى سداً عند مدخل البحيرة في أضيق ممر ينفذ منه بحر يوسف الحالي ، وبذلك أدى إلى استصلاح ما يقرب من سبع وعشرين ألف فدان في هذه المنطقة . وأقام امنمحات على الشاطىء الشمالي من هذه المنطقة حاجزين

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ، ص ٣١٨ - ٣٢١ .

(٢) تزيد نقوشه التي عثر عليها في مناطق استخراج الفيروز والنحاس عن ٥٩ نقشاً وهي تبدأ من السنة الثانية وحتى السنة الخامسة والأربعين من عهده .

انظر : Gardiner, A. H., Peet, L. and Cerny J. The Inscriptionsof Sinai, vol I. London, 1952. P. 15 ff.

ضخميين أقام فوقهما تمثالين يمثلانه وهو جالس يبلغ ارتفاع كل منهما اثني عشر متر.

وشيد امنمحات الثالث لنفسه هرمين الأول في دهشور، والثاني في هوارة، وبجوار الهرم شيد معبده الجنائزي وهو يشغل مساحة تزيد على سبعين ألف متر مربع (٣٠٠ × ٢٤٠م[١]) وقد عده الإغريق من عجائب مصر وأطلق عليه «مبنى اللابيرانث» (قصر التية)، ولقد مات امنمحات الثالث دون أن يتم العمل فيه فأكملته «سوبك نفرو» آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة.

ولقد وصف اللابيرنث كل من هيرودوت وديودور واسترابو، ولقد ذكر هيروردوت [٢] إنه شاهده بنفسه وأنه يفوق الوصف، وأنه يفضل الهرم، وهو يتكون من اثني عشر بهواً مسقوفاً، أبوابها متقابلة، وأنه يتكون من ثلاثة آلاف غرفة نصفها تحت الأرض، و نصفها الآخر فوقها، وإن الغرف العليا تفوق ما أخرجه الإنسان من آثار، إذ أن سقوفها كلها قد شيدت من الأحجار، وكان يحيط بكل بهو أعمدة مصنوعة من الأحجار البيضاء. ويذكر هيرودوت أنه شاهد بنفسه الحجرات الموجودة فوق سطح الأرض، أما الحجرات الموجودة تحت سطح الأرض فيذكر أن المشرفين عليها لم يسمحوا لهم أن يدخلوها.

أما «ديودور» فقد وصفه بأنه يدعو للعجب لدقة صناعته، وأن من يدخله لا يجد طريقة إلى الخارج بسهولة، ويذكر أنه مربع الشكل، وبه بهو تحيط به الأعمدة التي تتكون من أربعين عموداً في كل جانب، أما سقفه فإنه منحوت بحجر واحد مزخرف بصور ورسوم مختلفة[٣].

ويصف «سترابو» [٤] اللابيرنت وكأنما هو يحتوي على عدد ضخم من

(١) محمد أنور شكري: المرجع السابق، ص ٣٨٤.

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمه محمد صقر خفاجه، ومراجعة أحمد بدوي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٧٩ - ٢٨١.

(٣) وهيب كامل: ديودور الصقلي في مصر، الفقرتان ٦١، ٦٢.

(٤) Kees. H., Ancient Egypt, London, 1961, P. 225.

الأبهاء المتصلة بعضها بالبعض الآخر عن طريق ممرات دوارة لا يستطيع الغريب أن يحدد مساره خلالها، وأنه يضارع الهرم ، وأنه قصر كبير مؤلف من قصور كثيرة بعدد أقاليم مصر في الزمن القديم، وهو عدد الأبهاء التي تحيط بالأعمدة، وكلها في صف واحد، وأمام المداخل أقبية طويلة متعددة يتصل أحدهما بالآخر بطرق متعرجة.

ومهما كان الأمر، فإننا لا نستطيع اليوم أن نتحقق من وصف المؤرخين اليونان نظراً لانتزاع أحجاره منه، ولم يبق منه غير أكداس من الأنقاض. ودام حكم امنمحات الثالث ٥٥ عاماً بلغ فيها النفوذ المصري أوج قوته وأشرك معه في الحكم ابنه امنمحات الرابع في العام الأخير من حكمه.

امنمحات الرابع :

لم يكن امنمحات الرابع (ماعت خرو رع) في همة أسلافه أو نشاطهم، أو مهارتهم السياسية والإدارية، لم يطل حكمه حسبما ورد في بردية تورين عن سنوات تسع وبضعة أشهر، وفي خلال هذه الفترة استمر إرسال البعثات إلى المحاجر في النوبة وفي وادي هودي للحصول على أحجار الأماتيست، كما أرسل البعثات لجلب الفيروز والنحاس من سيناء.

ومن الناحية المعمارية فقد وجد اسمه مسجلاً على جدران معبد مدينة ماضي جنوب عزب الفيوم، كما شيد لنفسه هرماً إلى الجنوب من الجيزة بحوالي ٣٠ كيلو متر وذلك خلف قرية مزغونة.

سبك ـ نفرو :

ينتهي بحكمها عصر ملوك الدولة الوسطى، وقد كتب أسمها بعدة مترادفات (سبك كارع، سبك نفرو رع)[1] والاسم الأخير هو الأكثر شيوعاً، ولقد حكمت حسبما ورد في بردية تورين ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وعشرون يوماً.

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، ص ١٨٣.

ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن سبك نفرو كانت الابنة الكبرى لامنمحات الثالث وذلك اعتماداً على ظهور اسمها إلى جوار اسم امنمحات الثالث على أحد العناصر المعمارية .

ومهما كان الأمر فأن حظها العاشر قد شاء أن يختل الأمن في عهدها ، فظهرت بوادر هجرات شعوبية وقلاقل وراء الحدود الشمالية الشرقية ، وبنهاية عهدها انتهى عصر الأسرة الثانية عشرة وانتقلت مصر إلى مرحلة حرجة في تاريخها ، وهو ما اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الانتقال الثاني .

وتضمن هذا العصر الأسرات من ١٣ ـ ١٧ ، وفيه منيت مصر بالاحتلال الأجنبي وهم الهكسوس الذين دنسوا أرض الكنانة ردحاً من الزمن حتى تمكن أحمس الأول من طردهم نهائياً منها ، وبدأ عصراً جديداً في تاريخ مصر وهو «عصر الدولة الحديثة» .

الفصل السادس

عصر الإنتقال الثاني

يتضمن عصر الانتقال الثاني الأسرات من الثالثة عشرة وحتى السابعة عشرة، وتواجه المؤرخ صعوبات جمة في دراسة هذه المرحلة. والسبب الرئيسي وراء هذه الصعوبات راجع إلى قلة المصادر التي ترجع إلى هذا العصر إن لم تكن ندرتها.

فقوائم ملوك سقارة وأبيدوس لم تشر إلى هذه المرحلة، بينما قدمت بردية تورين بعض الأسماء فقط. أما قائمة الكرنك فقد أمكن معرفة ثلاثين اسماً فقط منها، وللأسف فإنه لا يمكن معرفة تتابعها في الحكم، نظراً لبعثرة هذه الأسماء بين أسماء ملوك الدولة القديمة والدولة الوسطى.

وعلى ذلك، فإن المؤرخ لهذه الفترة، يعتمد على البقايا الأثرية المتخلفة عنها، وهي بصفة خاصة الجعارين التي تحمل خراطيش ملكية، إذ عزف المصريون القدامى عن تسجيل أحداث هذه الفترة وبخاصة عصر الهكسوس، بل أنهم قاموا بتدمير آثارهم. فلم ينج منها إلا قلة قليلة، ولم تظهر إشارة إلى هذا العصر إلا على أيام الملكة حتشبسوت[1].

ويبدو مرجحاً أن هذا العصر لم يستغرق أكثر من ٢٢٠ عاماً وربما أقل من ذلك، وقد حكم مصر خلاله عدداً كبيراً من الملوك، ويمكن تفسير ذلك على أساس أنه كانت هناك مجموعات تحكم في الشمال، وأخرى في مصر الوسطى وثالثة في الصعيد، وأن ذلك قد حدث في أوقات متعاصرة أو على الأقل متقاربة[2].

(١) Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs, PP. 147 - 149.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٦٧٦.

الأسرة الثالثة عشرة

انتهت الأسرة الثانية عشرة حوالي عام ١٧٨٧ ق. م، بالملكة «سبك نفرو» وربما كان ذلك راجعاً إلى عدم وجود وريث شرعي من الذكور يعتلي العرش بعدها، فانتقل الملك إلى أسرة أخرى هي الأسرة الثالثة عشرة، وحاول الباحثون معرفة الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف الشامل الذي أصاب مصر في هذه المرحلة، فذهب البعض إلى الاعتقاد بأن ذلك راجع إلى ظهور أعداء لمصر في سوريا وفلسطين وفي الجنوب، ويعتمدون في ذلك على حقيقة العثور على عدد غير قليل من الدمى والأواني التي ترجع إلى نهاية عصر الأسرة الثانية عشرة وقد كتبت عليها تعاويذ سحرية لسحق أصحابها[1]، وهذه اللعنات خاصة بأمراء من النوبة وآسيا وقفوا موقفاً عدائياً من مصر، وكان الاعتقاد أنها تستطيع أن تقضي على قوة هؤلاء الأعداء ويشير ذلك من غير شك إلى مدى الضعف الذي أصاب البلاد.

وهناك من يرى أن ذلك الضعف ربما كان راجعاً إلى أن نظام الإقطاع الذي قضى عليه الملك سنوسرت الثالث في أواسط الأسرة الثانية عشرة قد عاد من جديد، وأن هناك عدداً من الأسرات المحلية قد تقاسم حكم البلاد في وقت واحد، إلا أن هذا الرأي لا يوجد هناك من الأدلة ما يؤيده[2].

ويضاف إلى عوامل الضعف الداخلية العوامل الخارجية والتي تمثلت في قدوم بعض الشعوب الهندوأوروبية منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، من مواطنها الأصلية في أواسط آسيا إلى منطقة الشرق الأدنى القديم،

---

(١) جان يويوت: مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٩٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٨١.

فاستقرت في العراق وسوريا وبدأت في تهديد مصر منذ نهاية عصر الدولة الوسطى.

وفيما يتصل بملوك الأسرة الثالثة عشرة فقد قدمت بردية تورين ما بين خمسين إلى ستين ملكاً لها، بينما أشار مانيتون إلى أنهم ستين ملكاً حكموا لمدة ٤٥٣ عاماً وهي فترة مبالغ فيها إلى حد بعيد، أو أن حكم هذه الأسرة لم يتعد المائة والخمسين عام.

واتخذت الأسرة الثالثة عشرة من «إيثت تاوى» عاصمة لها كما كان الحال من قبل»[(١)]، وكان معظم ملوكها من طيبة ويفسر ذلك وجود معظم آثارها في منطقة طيبة. وأول ملك معروف لنا من هذه الأسرة هو الملك «امنمحات سبك حتب» (سخم رع خو تاوى)، ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنه يرتبط بملوك الأسرة الثانية عشرة عن طريق الزواج من الملكة سبك نفرو آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة.

وإن كان هناك من يرى غير ذلك وأنه قد تولى العرش بطريق الاغتصاب، وتشير الآثار المتبقية من عهده إلى اهتمامه بالجنوب، كما قام ببعض النشاط المعماري في بعض مناطق مصر.

وبنهاية عهده الذي استمر ما يقرب من أربع سنوات، بدأ النفوذ المصري في النوبة في التدهور وأن ظل قوياً في سوريا، إذ عثر على نقش في مدينة جبيل (بيبلوس) وهو يصور أميرها وهو جالساً أمام شخص عظيم اختفت صورته، ولكن النصوص المدونة إلى جانبه دلت على أنه الفرعون المصري «نفرحتب» (خع سخم رع)[(٢)]. وتوالى ملوك الأسرة الثالثة عشرة على العرش حتى سقطت منف في أيدي الهكسوس وذلك حوالي عام ١٦٧٤ ق. م وكان ذلك بمثابة النهاية لها رغم إشارة بدية تورين إلى أسماء أكثر من ستة ملوك

(١) Heyes, W. C., In J. E. A., vol. 33 (1947) PP. 10 - 11.

(٢) عبد العزيز صالح: مصر والعراق، ص ١٨٤ - ١٨٥.

بعد ذلك. إذ ربما كان هؤلاء الملوك مجرد أتباع للهكسوس أو حتى في أحسن الفروض حكاماً محليين لا يعدو حكم الواحد منهم أكثر من منطقة محدودة ربما لا تزيد في بعض الأحيان عن مدينة واحدة[1].

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٦٨٧.

الأسرة الرابعة عشرة

استغل أمراء منطقة سخا فرصة ضعف الأسرة الثالثة عشرة واستقلوا بإقليمهم متخذين من مدينة سخا بكفر الشيخ عاصمة لهم. ويذكر مانيتون أن عدد ملوك هذه الأسرة كان ستة وسبعين ملكاً حكموا لمدة ١٨٤ سنة، وتذكر بردية تورين ٢١ ملكاً منهم. وقد سقطت هذه الأسرة بعد نهاية الأسرة الثالثة عشرة بثلاثين عاماً. وهكذا تنازعت مصر في هذه الفترة ملوك الأسرة الثالثة عشرة في الجنوب وأمراء سخا في غرب الدلتا بينما كان الهكسوس في شرقها، ومهد ذلك الأمر للهكسوس أن يقضوا على قوتهم.

الهكسوس

تتركب كلمة «هكسوس» من كلمة «حقاو» و «خاسوت»، وهما يفيدان معنى «حكام الأقاليم الأجنبية». وكان هذا التعبير معروف في المصادر المصرية منذ عهد مبكر ويرجع إلى الأسرة السادسة وبقي مستعملاً حتى عهد البطالمة[1]. وترجم مانيتون هذه التسمية بمعنى، ملوك الرعاة وترجمها عنه يوسيفوس اليهودي بمعنى «الأسرى الرعاة» ووصل بينهم وبين العبرانيين كفئة تابعة لهم[2]. ولم يعثر في اللغة المصرية القديمة على كلمة وضعت علماً لأولئك الغزاة، فلقد أطلق عليهم في ورقة ساليية الأولى «الطاعون»، ويرجح أنهم كانوا يسمون «عامو» أي الأسيويين في عهد الهكسوس أنفسهم.. كما أطلق عليهم «ستتيو» في لوح كارنارفون[3].

(١) J. E. A., vol. 5 (1918), P. 38.

(٢) عبد العزيز صالح: ص ١٨٨.

(٣) سليم حسن: مصر القديمة، حـ ٤، عهد الهكسوس وتأسيس الأمبراطورية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٦١ - ٦٢.

ولقد اتخذ بعض ملوك الهكسوس لقب «حقا خاسوت» أي (حاكم البلاد الأجنبية) ومن هؤلاء الملوك، الملك خيا، وسمقن وعنات هر.

وكانت هجرة الهكسوس إلى مصر تالية لتحركات شعوبية هاجرت من أواسط آسيا، عرفها المؤرخون باسم عا م وهو اسم الآريين أو الهندو آريين، وعرفتهم مصادر بلاد النهرين باسم الكاسيين أو الكاشيين، وعرفتهم مصادر آسيا الصغرى باسم الخاتيين (ثم الحيثيين) وعرفتهم شواطىء الفرات العليا والمناطق السورية الشمالية الشرقية باسم الحوريين أو الخوريين، وعرفتهم المصادر الإغريقية باسم الأخيين، وعرفتهم المصادر المصرية باسم حقاو خاسوت الذي تحرف إلى هكسوس[1].

ومن المحتمل أنهم قد أخذوا طريقهم إلى مصر في أواخر الأسرة الثالثة عشرة نتيجة لتفكك عرى البلاد خلال هذه المرحلة ومن ثم لم يجدوا أمامهم مقاومة جدية. ولم يكن الهكسوس جنساً واحداً بل كانوا خليطاً من السكان الهندو آريين الذين جذبوا معهم بعض السكان من المناطق التي دخلوها في آسيا الصغرى وبلاد الشام، ويتضح ذلك من التحليل اللغوي لأسمائهم، وكذلك من الأسلحة التي تسلحوا بها والتي تكونت من السيوف المستقيمة والمقوسة والخناجر والحراب المصنوعة من البرونز والحديد، وهي تبين مدى الثروة في المعادن التي تميزت بها آسيا الصغرى. وأن وجودهم في مصر كان نتيجة تسلل بشري أكثر من نتيجة غزو حربي وأنه قد استغرق عدة أجيال، استطاعت العناصر المتسللة في نهايتها أن تسيطر على الدلتا ومصر الوسطى حتى القوصية جنوباً[2].

وفيما يتصل بملوك الهكسوس، فيبدو أن بردية تورين قد ذكرت جميع أسماء ملوك الهكسوس، ولكن للأسف فإن بعض أجزائها قد حدث فيها تلف شديد يتعذر معه معرفة ما تحتويه، وما بقي يمكن أن يعرف منه أسماء ستة ملوك حكموا لمدة مائة وثماني سنين، ولقد عثر على بعض الجعارين التي تحمل أسماء بعض ملوك الهكسوس الذين لم نكن نعرفهم من قبل، ولكن

---

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٦٩٦ - ٦٩٧.

تبقى مع ذلك مشكلة ترتيبهم حسب التسلسل التاريخي.

ويذكر مانيتون أن الهكسوس قد وجدوا عند دخولهم مصر مدينة مشيدة تدعى «أواريس» فاتخذوها عاصمة لهم، وأنهم قد أصلحوها وأمروا بتحصينها، وهي المدينة التي كان يعبد فيها المعبود «ست» منذ زمن سحيق في القدم. وجاء في فاتحة متن «ورقة ساليه» وصف يدل على أن الهكسوس قد اتخذوا من الإله «ست» معبوداً لهم. فلقد جاء فيها: اتخذ الملك «أبو فيس» لنفسه الإله «ستخ» (ست) معبوداً، ولم يقدس من آلهة البلاد كلها سوى الإله «ستخ» وقد أقام له معبداً بمثابة عمل جليل خالد بجوار مقر الملك، وكان يخرج كل يوم ليقدم القربان للإله «ستخ» في حين كان وجهاء القوم يحملون الأكاليل على غرار ما كان يفعله الناس في معبد الإله «رع حور آختي»[1].

وفيما يتصل بملوك الهكسوس وحكمهم في مصر، فإننا لا نعرف عن بداية عهد تسلط الهكسوس على مصر إلا النذر اليسير، وذلك نظراً لانعدام الوثائق التاريخية المتخلفة من هذا العهد، وكل ما لدينا هو أسماء عدة ملوك لا يمكن ترتيبها ترتيباً تاريخياً مسلسلاً. وقد حاول وليم فلاندرز بترى أن يرتب هؤلاء الملوك ترتيباً تاريخياً على أساس اختلاف صناعة الجعارين المنقوشة عليها أسماء هؤلاء الملوك، غير أن ذلك لم يجد نفعاً.

وقسم «مانيتون» ملوك الهكسوس إلى ثلاث أسرات: الأسرة الخامسة عشرة وتتكون من ستة ملوك، والأسرة السادسة عشرة، وعدد ملوكها إثنان وثلاثون ملكاً، ثم الأسرة السابعة عشرة وحكم فيها ثلاثة وأربعون ملكاً من الهكسوس، وعاصر هذه الأسرة الهكسوسية الأسرة السابعة عشرة الطيبية.

وفيما يتصل بملوك الأسرة الخامسة عشرة، فمن أشهر ملوك هذه الأسرة الملك خيان، الذي ورد اسمه في قائمة مانيتون باسم «يناس» ويتضح من الجعارين والأختام التي عثر عليها له أنه حمل العديد من الألقاب ومنها:

---

(١) سليم حسن: المرجع السابق، ص ٦٨ - ٦٩.

حاكم البلاد الأجنبية خيان[1]، الإله الطيب إن رع[2]، ابن الشمس ساوسر إن رع[3].

وقد عثر على آثار له في فلسطين وسوريا وهي عبارة عن جعارين، بينما عثر لدى أحد تجار الآثار في بغداد على تمثال أسد صغير ارتفاعه نحو ٢٥,٤ سم وطوله نحو ٤٨,٢سم وقد نقش على صدره «الإله الطيب ساوسر إن رع» (شكل ١٥). وفي أساس قصر كنوسوس الثاني في كريت عثر على غطاء آنية من المرمر نقش عليه «الإله الطيب ساوسر إن رع ابن الشمس خيان»[4].

ويشير وجود مثل هذه القطع المفردة إلى وجود علاقات تجارية لمصر مع هذه الجهات، إذ لو كان نفوذ الهكسوس قد امتد فعلاً إلى هذه الجهات، كما يرى بعض الباحثين، لكان من الضروري أن نجد في هذه المناطق قطعاً كثيرة تثبت هذه السيطرة وتؤكدها، ولكان من المنتظر كذلك أن نجد تأثيراً فنياً بابلياً أو كريتياً في هذه القطع، ولكنها في الواقع مصرية بحتة في صورها وصناعتها[5].

وجاء بعد «خيان» الملك «أبو فيس الأول» (عا وسررع)، وحكم أكثر من أربعين عاماً وقد عثر له على العديد من الآثار بجانب الجعارين، ومن أهم هذه الآثار لوحة خشبية عثر عليها في الفيوم وقد جاء فيها أنه ملك مصر العليا والسفلى عا وسررع ابن الشمس أبو فيس معطى الحياة مخلداً مثل رع كل يوم، وابن الملك من جسمه، والابن المحبوب من رع». كما عثر على قطعة أخرى من الحجر محفوظة بمتحف القاهرة وقد سجل عليها «يعيش الملك الطيب عاوسررع». وقد سجل عام حكمه الثالث والثلاثين على «ورقة رند الرياضية» وهو التاريخ الوحيد الذي حفظ لنا عن حكم ملك من ملوك

(١) Fraser, G., A Catalogue of the Scarabs Belonging to G. Fraser, London, 1900, NO. 178.

(٢) Ibid., NO. 176.

(٣) Ibid., N. 176.

(٤) سليم حسن: المرجع السابق، ص ٩٢ - ٩٣.

(٥) نفس المرجع السابق، ص ٩٤.

الهكسوس، وقد دون هذا التاريخ على النحو الآتي: «السنة الثالثة والثلاثون، الشهر الرابع من فصل الزرع . . . ملك مصر العليا والسفلى عا وسررع معطى الحياة»[1].

وعثر في مقبرة الملك «امنحتب الأول» من الأسرة الثامنة عشرة على إناء مرمري يحمل إسم الأميرة «حريت» ابنة «أبو فيس» وقد سجل عليه «ابن الشمس أبو فيس الملك الطيب عاوسررع والابنة الملكية حريت»، ويبدو أن هذا الإناء أخذ يتنقل جيلاً بعد جيل حتى استقر آخر الأمر في مقبرة الفرعون في طيبة، مما أدى إلى أن يفترض البعض زواج «حريت» من أمير معاصر من طيبة، ولعل هذا يشير إلى أنهم كانوا أكثر تسامحاً من تلك الآراء التي تعكسها المصادر المتأخرة وإن كان الأمر كله مجال حدس وتخمين[2].

ولا نعرف إلا القليل عن حكم الملوك الذين تلوا ملوك الأسرة الخامسة عشرة، كذلك لا نعرف كيف انكمش ملكهم وأصبح المصريون يتطلعون إلى طردهم - ومن المؤكد على أي حال أن المصريين برموا بهم وضاقوا بوجودهم بينهم حيث يبدو أن ظهورهم كان يصحبه اضطراب في أحوال الشرق الأدنى بصفة عامة وأدى إلى مرور مصر بفترة عصيبة فنزح بعض المصريين عنها إلى النوبة التي كانت حينئذ قد تخلصت من النفوذ المصري وأخذ يحكمها بعض أمرائها الذين استقلوا بأقاليمهم بينما أخذ الأمراء المصريون الذين أجبرتهم الظروف على مجابهة بعض الأخطار في أقاليمهم يستعينون بالكثيرين من أبناء النوبة الذين قدموا إلى مصر كجنود مرتزقة واستقرت غالبيتهم فيها في جاليات كبيرة، إذ عثر على جباناتهم ومقابرهم منتشرة في مصر العليا ووصل انتشارها شمالاً إلى مصر الوسطى. ولابد أن مصر والنوبة في نهاية عهد الهكسوس

---

(١) Daressy, G., In rec. trav., 14, 1892, P. 24.

(٢) Gardiner, A. H., "The EgyptianOrigeniof the Semetic Alphabet". In J. E. A., vol. 3 (1916) pl. I., P. 152. وكذا

محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٧٠١.

كانتا تنقسمان إلى الأقسام الآتية :

١ ـ مملكة طيبة (الأسرة السابعة عشرة المصرية) التي كانت تمتد من اليفانتين جنوباً إلى القوصية شمالاً .

٢ ـ مملكة الهكسوس وكانت تحكم مصر الوسطى والدلتا .

٣ ـ مملكة النوبة التي كان يحكمها أمير نوبي وكانت تمتد شمالاً إلى اليفانتين .

وحقيقة الأمر أن أحداً من الأمراء المصريين المستقلين لـم يجـرؤ على ادعاء الملك وتلقيب نفسه بألقاب الفراعنـة المصـريين كمـا كان الأمـر في الأسرة الثالثة عشرة . ومرت أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسـة عشـرة دون أن يكون هناك بين أمراء البلاد من يستطيع مقاومة نفوذهم ، ولكنهم في الأيام الأخيرة من حكمهـم بدأ بعض أمـراء الصـعيد يحسـون بقوتهـم وكان أكثرهم نفوذاً وسلطاناً أمراء طيبة الذين أخـذوا يتحالفـون مع جيرانهـم في شمالي طيبة وجنوبيها ، وجاء اليوم الذي رأى فيه هؤلاء الأمراء أنهم أصبحوا ذوي حول وقوة ، وأن قوة أعدائهم في الشمال أخـذت في الانحـلال فلـم يترددوا في اعتبار أنفسهم ملـوكاً لإقليمهـم ، وبـدأوا يكتبـون أسماءهم في خانات ملكية مسبوقة بألقابهم التقليدية بأنهم ملوك الوجهين القبلي والبحري ، وهؤلاء هم ملـوك الأسـرة السابعـة عشـرة الـذين كانـوا معاصـرين للملـوك المتأخرين من ملوك الهكسوس في الدلتا .

ولسنا نعرف على وجه اليقين مدى العلاقة بين هؤلاء الملوك الـطيبيين وملوك الهكسوس ، والوثيقة الأولى التي تتحدث عن بدء النزاع ليست وثيقة معاصرة وإنما هي وثيقة من عصر متأخر من عصـر الرعامسـة ـ وتعـرف تلك الوثيقة «ببردية ساليبه»[1] ـ ، ونعرف من سياق هذه البردية أن سقنن رع في ذلك الوقت كان حاكماً على طيبة ومعاصراً لملك الهكسوس «أبو فيس» وقد استقبل رسول أبو فيس بحفاوة عندما جاءه من أواريس ليبلغه بأن أفراس النهر في مياه طيبة تقلق نوم أبو فيس وهو في قصره في الدلتا ولهذا فهو يطلب منه إسكاتها ،

(١) Gardiner, A. H., Gunn, B., In J. E. A., vol. V (1918), PP. 40 - 45.

وأن تهجر أفراس النهر ذلك المكان ، وجمع سقنن رع رجاله لاستشارتهم . ولكن البردية ليست تامة لسوء الحظ. وإن كنا نستطيع أن نخمن أن السبب في كتابة مثل هذه القصة هو تسجيل انتصار الملك سقنن رع على عدوه . ومن فحص مومياء سقنن رع . وقد أبقى عليها الزمن وهي محفوظة الآن في المتحف المصري ، فنرى أن صاحبها مات متأثراً من جراح كثيرة في صدره وضربة فأس في رأسه مما يجعلنا نرجح أن يكون هذا الملك قد مات في الحرب . وهي تشير إلى بداية الجهاد المسلح في عهده .

وتولى زعامة طيبة بعده أنه الملك كامس وقد وصلت إلينا أخبار معاركه في سبيل تحرير مصر على لوحة صبي في أحد المكاتب أملاها عليه مدرسه كقطعة إملاء وهي تعرف باسم لوحة كارنارفون[1] ثم عثر على جزء من لوحة من الحجر الجيري في الكرنك عام ١٩٢٨ . وهي دون شك جزء من اللوحة الأصلية التي نقلت عنها لوحة كارنارفون ويبدأ هذا النص القديم بالتاريخ . فنعرف أن ذلك كان في السنة الثالثة من حكم الملك كامس . ويتضح من هذا النص أن النضال قد بدأ مرة أخرى ، ولم يكن هذه المرة دفعاً لتحرش كما حدث في أيام سقنن رع بل أن كامس قد رأى أنه لابد من تطهير البلاد مما تحمله أرضها من رجس وشر . ونفهم من باقي النص أن أول معركة خاضتها جيوش طيبة كانت في مدينة نفروس في إقليم الأشمونين وإن حاكمها المسمى تيتي بن بياوبي جعل من إقليمه عشاً للآسيويين أي أنه كان ممالئا لهم ، وكانت في بلده حامية للهكسوس ولكنه انتصر عليهم ، وعند هذا الكلام ينتهي النص .

كانت هذه هي كل معلوماتنا عن حرب كامس مع الهكسوس حتى شهر يوليه ١٩٥٤ ، إذ شاء الحظ الحسن أن يعثر رجال مصلحة الآثار أثناء ترميمهم لبعض آثار الكرنك على لوحة استخدمها القدماء لتكون بين أحجار الأساس التي يقوم فوقها أحد التماثيل الكبيرة لأحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين .

---

(١) Ibid., PP. 45 - 47.

وكانت اللوحة كاملة لحسن الحظ، وهي من الحجر الجيري وارتفاعها ٢٢٠ سم (ارتفاعها الأصلي ٢٣٥) وعرضها ١١٠ سم وسمكها ٢٨ سم وتغطي الكتابة أحد سطحيها وجانبيها وعليها ٣٨ سطراً من الكتابة تكمل لنا قصة كفاح كامس ضد الهكسوس. فينحى باللائمة على ملك الهكسوس ويذكر هزيمته أمامه وخوف الآسيويين من جيش مصر، وإن نساء أواريس لن يلدن بعد ذلك»، ويصف كامس دخوله إحدى المدن فيقول: «لمحت نساء العدو فوق دياره، يتطلعن من النوافذ، وحين رأينني لم يستطعن حراكاً، وأخذن يتلصصن من خلال الأبواب والجدران كأفراخ القطط في جحورها»[١] ثم يتحدث كامس بعد ذلك عن حرب خاضها على سطح الماء في معركة نيلية ويذكر انتصاره واستيلاءه على الكثير مما كان لدى عدوه وبخاصة ثلاثمائة سفينة مصنوعة من خشب الأرز. ويذكر كامس على هذه اللوحة أنه أسر رسولاً اتخذ طريق الواحات بعث به ملك الهكسوس إلى كوش يحمل رسالة مكتوبة بخطه يحرض فيها أمير كوش على مهاجمة مصر من الجنوب أثناء اشتغال كامس بحربه، ويعده بأن يتقاسم معه مدن مصر.

وخشي كامس أن يحدث هجوم عليه من طريق الواحات فأرسل حملة من رجاله احتلت الواحات البحرية لأنها على رأس الدروب الموصلة إلى مصر الوسطى. ثم يعدد كامس المدن التي استولى عليها، وفرح أهل طيبة بانتصاراته. واستيلائه على البلاد الواقعة بين الأشمونين وأطفيح، ولكن الاستيلاء على الوجه البحري كله وعلى أواريس عاصمة الهكسوس لم يتم على يديه بل تم على يد أخيه أحمس.

ولسنا نعرف كيف انتهت حياة كامس ولكننا نرى فجأة أمامنا البطل الثالث وهو الملك أحمس أخو كامس الذي تسلم منه راية الجهاد وأعلنها حرباً لا هوادة فيها فتم له النصر وأجلى العدو عن مصر كلها. ونستمد معلوماتنا عن حرب أحمس مع الهكسوس من مقبرة أحد قواده واسمه

---

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ١٩٤.

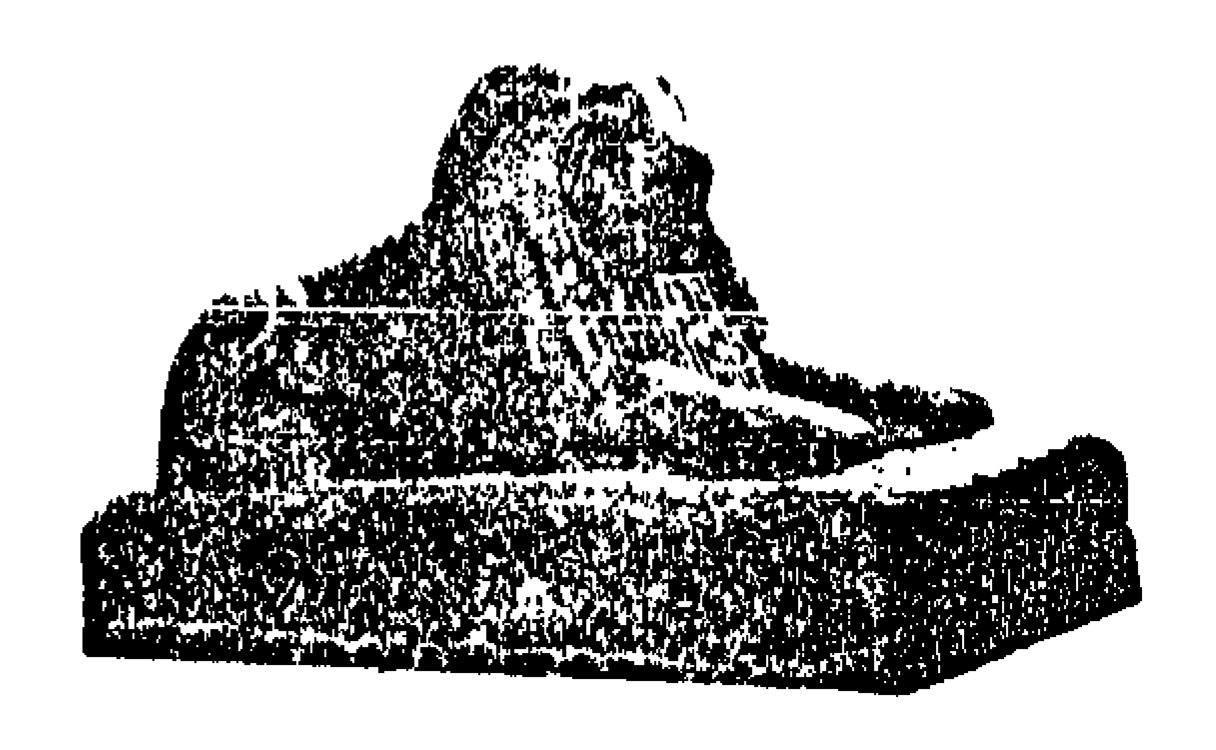
«أحمس بن ابانا» وهو من أهل الكاب، ويحدثنا هذا القائد عن تاريخ حياته وتنقله في الخدمة العسكرية كقائد لإحدى السفن، ويذكر لنا كيف تبع سيده الملك أحمس في حربه مع الهكسوس وكيف سقطت أواريس بعد حصارها وكيف فر الهكسوس إلى مدينة شاروحين في جنوبي غزة، وإن المصريين حاصروها ثلاث سنوات حتى سقطت فتم لهم النصر على أعدائهم ـ وبعد أن اطمأن أحمس تماماً إلى سحق أعدائه وجه همه إلى تنظيم بلاده. وهكذا خرجت جحافل جنود مصر من طيبة لمحاربة الهكسوس فلم تعد إلى وطنها إلا بعد القضاء عليهم ووضع الحجر الأول في صرح الأمبراطورية المصرية.

وبقي هنا أن نشير إلى دور كل من السيدتين نتي شرى أم سقنن رع، وأيعح حتب أم كامس في حرب التحرير، وقد وصفت تتي شرى في نصوص حفيدها أحمس بلقب العالمة أو العارفة، أما أيعح حتب فقد وصفت بأنها: «ربة الأرض، وسيدة الحاونبو، رفيعة السمعة في كل قطر أجنبي التي دبرت سياسة القوم. . .، القديرة الجليلة التي أحكمت شؤون مصر، وجمعت (صفوف) جيشها، ورعت أهلها، وأعادت الفارين، ولمت (شتات) المهاجرين، وهدأت (قلق) الصعيد، وأرهبت عصاته، الملكة ايعح حتب لها الحياة»[1].

وليس من شك في أن حكم الهكسوس لمصر كان العامل الأكبر الذي جعل الشعب المصري يدرك ما للقوة العسكرية من أهمية كبرى في حماية الوطن والذود عنه، وبات واضحاً للمصريين ضرورة الحرب عندما لاح لهم في آفاق الحياة خطر العدو، ونتج عن اشتراكهم في حرب التحرير تذوقهم طعم الحرب ولذة النضال والنصر، وعرف المصريون في ذلك الوقت أن الحروب تعود على المنتصر بالغنائم الكثيرة، وإن في ميادينها متسعاً لأعمال البطولة، وإن الحاكم يعترف بها ويكافأ عليها، فأصبح للجندية مكانة لا تعادلها مكانة أخرى وأصبحت الحرب وليست حرب الفرعون وحده، ولكنها

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

حروب الشعب كله ، حروباً اشترك فيها كل مواطن قادر على حمل السلاح في مصر .



(شكل ١٥) أسد عثر عليه في بغداد من عهد الهكسوس

الفصل السابع

عصر الدولة الحديثة

١ - الأسرة الثامنة عشرة
(١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق . م)

١ - أحمس الأول : -

كان أحمس الاول (نب بحتي رع) في حوالي السادسة عشرة من عمره عندما خلف شقيقه كامس على عرش الكنانة ، وقد تزوج أحمس من أخته التي كانت تحمل نفس الاسم (أحمس) ، وإن أضافت إليه لقب «نفرتاري» بمعنى الرقيقة الجميلة ، ولعل مما يثير الانتباه في هذا العصر شيوع أسماء أحمس وأيعح حوتب بين الملوك وكذا الأفراد مما يثير مشكلة من الصعب حلها بصفة نهائية ، وتعني هذه الأسماء : «القمر يولد» و«القمر راضي» على التوالي ، مما يجعل من المحتمل افتراض عبادة القمر في المنطقة التي جاء منها ملوك الأسرة السابعة عشرة ، ولقد كان عضو الثالوث الطيبي الثالث في الكرنك هو الإله «خونسو» أو «خونس» وأما لقب تحوتمس الذي حمله بعض فراعين الجيل التالي ، فيبين أن الصلة القمرية بأسلافهم كانت مع «تحوت» أكثر منها مع خونسو وقد أدى ذلك إلى أن يفترض بعض الباحثين أن هذه الأسرة ترجع إلى أصل هرموبوليتاني (أي إلى الأشمونين) ، بينما يفترض آخرون أن طيبة عقدت تحالفاً مع الأشمونين إبان حرب التحرير ، ومن هنا جاءت أسماء تحوت وايعح في أسماء العائلة الملكية في الأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة لأن الأشمونين كانت مركز عبادة القمر (اعح) وإله القمر «تحوت»[١] .

وشهد عصر أحمس الأول ثورة اجتماعية جارفة ، تهدف إلى تمجيد الجندية ، فلقد عرف المصريون في ذلك الوقت أن الحروب تعود على المنتصر بالغنائم الكثيرة ، وإن في ميادينها متسعاً لأعمال البطولة ، وإن فرعون كان

(١) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، جـ٢ ، مصر ، الكتاب الثاني ، التاريخ ، الإسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

يعترف بها ويكافىء عليها مهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها البطل المحارب، ومن ثم فقد سارع أبناء الطبقة الوسطى إلى الالتحاق بالجيش. هذا وقد عمل أحمس الأول على تخليد ذكرى سيدات الأسرة المالكة اللاتي أدين دوراً كبيراً في حرب التحرير، وأولى هذه السيدات هي «تتي شيري» زوجة سقنن رع تاعو الأول، وقد أدت دورها في حياة زوجها وولدها «سقنن رع تاعو الثاني» بل كتب لها أن تعيش إلى أيام حفيدَيها كامس وأحمس، فكانت بذلك على رأس سيدات الأسرة المالكة التي حررت مصر من الغزاة الهكسوس، وأما ثانية هؤلاء السيدات فهي الملكة «ايعح حوتب» وهي زوجة (سقنن رع - تاعو الثاني) الذي كافح في سبيل الاستقلال، وهي التي دفعت بولدها كامس إلى ساحة الوغى، ثم دفعت بابنها الثاني والبقية الباقية من رجال الأسرة، وأما ثالثة السيدات العظيمات هؤلاء: فهي الملكة «أحمس نفر تاري» وربما كانت ابنة كامس، أو حتى أخت غير شقيقة لزوجها أحمس الأول، وإننا لندرك من وراء مطالعة العديد من النقوش المعاصرة والمتأخرة التي يظهر فيها اسم هذه الملكة الشابة، إنه كان لها من الشهرة وذيوع الصيت ما لم يكن لغيرها في تاريخ مصر[1].

ولقد ظهرت في هذه المرحلة، وظيفة «زوجة الإله أمون»، وهي وظيفة جديدة أسندت إلى الملكات، كان الهدف من ورائها اصباغ الشرعية على أبنائهم من الملوك على اعتبار أنهم من ورثة الإله آمون، وكانت الملكتان، «ايعح حوتب وأحمس نفر تاري»، أول من شغلتا هذا المنصب الديني الهام[2].

ووجه احمس الأول عنايته لإعادة بناء المعابد الهامة التي أصابها الضرر، ومن هذه المعابد، معبد بتاح في منف، ومعبد أمون في طيبة. أما عن

(١) Gardiner, A. H., Egypt of the pharaohs, PP. 173 - 174.

(٢) Cerny, J., Ancient Egyptian Religion, London, 1962, P. 132.

مقبرته فهي غير معروفة ، وإن عثر على تابوته وموميائه في خبيئة الدير البحري (شكل ١٦) .



(شكل ١٦) مومياء الملك أحمس الأول

أما فيما يتعلق بسياساته الخارجية ، فقد استطاع أن يستولي على أفاريس عاصمة الهكسوس بعد حرب التحرير وأن يطهر أرض الكنانة من كل أثر للرعاة الهكسوس ، وأن يطردهم خارج البلاد ، حيث تحصنوا في شاروحين بجنوب فلسطين ، ويسارع احمس إلى محاصرتهم فيها فترة ، نجح

بعدها في إجلائهم عن الحصن ومطاردتهم حتى «زاهي»[1] وهو اصطلاح جغرافي استعمل في الدولة الحديثة للإشارة إلى سورية وفلسطين. وبعد طرد الهكسوس بدأ المصريون سياسة خارجية جديدة حيث أدرك فراعنتها إن السياسة الفعالة الوحيدة في مختلف العصور هي احتلال حربي لطرق الغزو في وديان العاصي والأردن أو سورية وكنعان ووضع قوة لمنع الاحتكاك عند مدخل ممر الغزو في إقليم حلب، بين الفرات والعاصي.

٢ ـ امنحوتب الأول:

جاء بعد أبيه احمس الأول، وهناك ما يشير إلى أن امنحوتب الأول قد أقام معبداً صغيراً في مكان الدير البحري هدمه سنموت ليقيم في مكانه معبد حتشبسوت المشهور كما نسب إليه البعض معبداً صغيراً في النهاية الشمالية لجبانه طيبة الغربية. وقد عثر على مقبرته في مكان مرتفع يشرف على ذراع أبو النجا في طيبة العربية. وبنى المعبد الجنازي بعيداً عن المقبرة، وعلى ذلك فهو يعد أول من فصل المعبد الجنازي عن المقبرة حتى يحتفظ بها آمنة من عبث اللصوص، إذ لم تحل الأهرامات الضخمة التي بناها فراعنة الدولة القديمة من نهبها، كما لم تثمر الممرات المتعددة والدهاليز التي اتبعها فراعنة الدولة الوسطى من سرقة اللصوص لها، حيث كان يشير البناء الهرمي إلى وجود المقبرة، ويدل عليها كذلك المعبد الجنازي، ومن ثم فقد لجأ فراعنة الدولة الحديثة إلى وسائل أخرى لصيانة مقابرهم ومن هذه الوسائل. كان الفصل ما بين المقبرة والمعبد الجنازي، وهي الوسيلة التي ابتدأها امنحتب الأول[2] كما حفر مقربته على عمق كبير في الصخر.

أما عن سياسته الخارجية فقد بدأت مصر على أيامه تتبنى سياسة جديدة هي سياسة «توسيع الحدود» وهناك إشارتان عن جهوده في آسيا، الواحدة عند بلاد «قدمى» وهي جزء من فلسطين أو شرق الأردن، والأخرى عند «ميتاني».

---

(١) Breasted, J. H., In ARE., vol. II, P. 8.

(٢) Gaediner, A. H., op. cit., pp. 174 - 175.

وفيما يتصل بالجنوب ، فبعد توليه العرش توجه إلى الجنوب بواسطة النيل ، ولقد عمل امنحتب على أن يجعل لبلاد النوبة السفلى شخصية واضحة في صلب الأقاليم المصرية ، فسلكها في وحدة إدارية واحدة تمتد من الجندل الثاني وتدخل في صلب الحدود المصرية متضمنة إقليم أسوان ليثبت عملياً أنها جزء من مصر يجري عليها ما يجري على الأقاليم المصرية نفسها ، وأصبح حاكمها يلقب بلقب حاكم المناطق الجنوبية[1] .

٣ ـ تحوتمس الأول :

جاء بعد امنحوتب الأول ولده «تحوتمس الأول» الذي يرجح أنه كان أول فرعون في الدولة الحديثة يشرع في بناء معبد أمون في الكرنك ، وأقام تحوتمس الأول مسلتين أمام مدخل المعبد من جرانيت أسوان الأحمر . كما أقام بهواً كبيراً فيه أعمدة مربعة على واجهتها تماثيل على شكل الإله أوزير[2] ، وكان تحوتمس أول من اختار وادي الملوك مكاناً لمقبرته التي حفرت في وادي قصي منعزل خلف الجبل المطل على النيل في غربي طيبة .

أما عن سياسته الخارجية فقد بدأ نشاطه العسكري في النوبة حيث سجل في عام حكمه الثالث نقشاً على الصخور المقابلة لجزيرة تومبوس[3] فيما وراء الجندل الثالث خلد ذكرى قيامه بحملة في هذه المنطقة وأنه قد أخضع رئيس كوش ووصل بالحدود المصرية إلى قرب الجندل الرابع ، وشيد تحوتمس الأول عدة حصون في منطقة تومبوس وعلى جزيرة ساي ، بالإضافة إلى إعادته بناء كثير من الحصون التي شيدت في عصر الدولة الوسطى ، وتم اختيار بوهن أمام وادي حلفا لتكون مركزاً للإدارة ومقراً لوحدات الجيش[4] .

غير أن شخصيته الحربية والسياسية الهجومية التي اتبعها إنما تتضح أكثر

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٢) Gardiner, A. H., op. cit., pp. 178 - 179.

(٣) Urkunden, VI, P. 82.

(٤) Arkell, A. J., in J. E. A., vol. 36 (1950) PP. 36 - 38.

في حملته الحربية التي اخترقت منطقة الفرات حتى بلاد «نهرين» حيث يحكم الـميتان، فـي شمال شرق الشام، وقرب نهر الخابور والفرات، حيث خرج الفرعون بقواته من «ثارو» على حدود الدلتا الشرقية، فعبر سيناء حتى وصل إلى جنوب فلسطين ثم اتجه شمالاً بامتداد الشاطىء حتى مدينة حلب الحالية، ثم اتجه إلى قرقميش عند منحنى الفرات على مقربة من حدود سورية بكردستان حيث أقام لوحة تذكارية عند قرقميش. وهكذا نجح تحوتمس الأول في مد حدوده من جبل البرقل والجندل الرابع في الجنوب وحتى أطراف مياه الفرات في الشمال[1].

٤ ـ تحوتمس الثاني :

جاء بعد تحوتمس الأول ولده «تحوتمس الثاني» تزوج من أخته غير الشقيقة حتشبسوت التي حملت في حياته الألقاب الآتية: «ابنة الملك وأخت الملك وزوجة الإله والزوجة العظمى للملك. وأهم منشآته إنما هي إقامة الصرح الثامن بالكرنك الذي أكمله تحوتمس الثالث فضلاً عن تمثالين له أقامهما أمام هذا الصرح، ، أما مقبرته فقد حفرت في وادي الملوك على مقربة من مقبرة أبيه.

أما عن سياسته الخارجية فهناك ما يشير إلى حملة قام بها إلى فلسطين ربما بسبب ثورة قامت في جنوب فلسطين وسورية للتخلص من الحكم المصري، وربما انتهزت بعض القبائل البدوية في شرق مصر هذه الفرصة لتقطع الطريق على القوافل، فهب تحوتمس الثاني على رأس جيشه لتأديبها، وإعادة الأمن إلى هذه المنطقة، وفيما يتصل بالجنوب، فقد سجل في عام حكمه الأول حدوث تمرد في النوبة وقيامه بالقضاء عليه[2].

(١) Wilson, J. A., op. cit., p. 234.

(٢) Gardiner A. H., op. cit., p. 180.

٥ ـ حتشبسوت :

جاء بعد تحوتمس الثاني ولده تحوتمس الثالث ، وكان صغيراً ومن ثم فقد وضع تحت وصاية زوج أبيه حتشبسوت التي أخذت تدير شؤون البلاد باسمه لمدة ثمان أو تسع سنوات ، وعندما اطمأنت إلى قوة مركزها وكثرة أعوانها ، نحته جانباً ، وانتحلت لنفسها ألقاب التاج المزدوج ، وحملت ألقاب الفرعون المصري كاملة ، وظهرت في أماكن كثيرة في الكرنك بزي الرجال ، ولم تكتف حتشبسوت بذلك ، وإنما زعمت لنفسها مولداً آلهياً ، من الإله أمون نفسه ، وسجلت ذلك على معبد الدير البحري[1] ، وقد نجحت حتشبسوت في أن تمسك بزمام الأمور في البلاد ، بعون من مجموعة مختارة من الرجال الممتازين ، اختص كل واحد منهم بناحية من مناحي الحياة المختلفة فأسهم في تقدم البلاد وازدهارها ، ومنحتهم المرأة الفرعون سلطات لم يعرفها الفراعين لموظفيهم من غير أبناء الأسرة المالكة . ومن أبرز رجالها «سنموت» الذي وصف نفسه بأنه (أكبر الكبراء في كل البلاد ، ورئيس الرؤساء في كل الأقاليم) .

ويعد معبد الدير البحري من أعظم منشآت حتشبسوت وقد كرسته للإله أمون ، وكذا حتحور وأنوبيس ، فضلاً عن الطقوس الجنازية للملكة حتشبسوت وأبيها تحوتمس الأول ، وهو من أجمل المعابد المصرية ، فضلاً عن قيمته الفنية والدينية والتاريخية ، وقد شيد على ثلاث مسطحات كبيرة يعلو إحداها الآخر ويليه ، واستبعد منه الهرم ، وقد حفرت حتشبسوت لنفسها مقبرة في وادي الملوك وليس في وادي الملكات .

هذا وقد اتجهت سياسة مصر في عهدها وجهة إفريقية أكثر منها آسيوية ، ويذهب المؤرخون إلى أن التاريخ لا يذكر ثورة آسيوية على أيام المرأة الفرعون ، وربما كان السبب أن عهدها إنما كان استمراراً لفترة حكم زوجها تحوتمس الثاني ، أو ربما كان بسبب عدم ثقتها في جيشها أو أنها لم تكن

(١) Naville. E. The Temple of Deir El - Bahari. vol. II. 1896. PP. 46 - 56.

بقادرة على قيادة هذا الجيش بنفسها، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن حتشبسوت إنما قامت بأربع حملات حربية اثنتان منهما إلى النوبة، وأما الآخرتان فكانتا إلى آسيا[1].

وقد سجلت حتشبسوت على الجدار الذي يقسم الرواق الأعلى من معبد الدير البحري أخبار رحلتها التي أرسلتها إلى بلاد بونت[2]، وكانت تتكون البعثة من خمس سفن شراعية كبيرة، وقد أحضرت السفن معها منتجات هذه البلاد من العاج والأبنوس والأخشاب وجلود الفهد والبخور والقردة والنسانيس، وأحضرت معها كذلك أشجار البخور التي نقلت بجذورها محفوظة في سلات وقدور من الفخار وأظهرت الحفائر التي أجريت في منطقة المعبد أن هذه الأشجار العطرية قد غرست فعلاً في حفر نقرت في الصخر أمام المعبد وملئت بالطين الخصب، أو وضعت في أواني على مدرجات المعبد وقد وجد في بعضها جذوع هذه الأشجار الجافة[3].

٦ ـ تحوتمس الثالث :

انفرد تحوتمس الثالث بحكم البلاد، بعد وفاة حتشبسوت، واعتبر حكمه إنما يبدأ منذ وفاة أبيه في عام ١٤٩٠ ق. م، متجاهلاً الفترة التي انفردت حتشبسوت بالحكم فيها (١٤٩٠ ـ ١٤٦٨ ق. م)، وبدأ عهداً جديداً في تاريخ الكنانة من الناحية الداخلية والخارجية.

ولقد أقام تحوتمس الثالث العديد من المنشآت المعمارية في العديد من مناطق مصر، ومنها معبد الجنزي على مقربة من الرمسيوم[4]، فضلاً عن مقبرته التي دفن فيها في الطرف الجنوبي من وادي الملوك، وبالإضافة إلى ذلك فقد

---

(١) Red Ford, D. B., History and Chronology of the Eighteenth Dynasty of Egypt, 1967, P. 62

(٢) Naville, E The Temple of Deir El Bahari, vol. III, Pls. 69 - 86.

(٣) سليم حسن : المرجع السابق، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٤) Ann. Serv. Vol. VII (1907) P. 121.

أقام العديد من المسلات الضخمة التي لم يتبق منها للأسف واحدة في مصر[1]، وهذا وقد شيد تحوتمس الثالث العديد من المعابد ومنها معبداً للإله بتاح في منف، وآخر للإله مين في قفط، وقد تبقت من عهده بعض آثار واللوحات في آسيا وفي سيناء وفي سرابيط الخادم، وفي وادي مغارة.

وتمتع تحوتمس الثالث بعبقرية عسكرية فذة كما كان أيضاً إدارياً من الدرجة الأولى. ولعل مما يشير لذلك قول وزيره «رخمي رع» من أن فرعوننا العظيم «كان يعلم كل شيء في دولته، وأنه ما كان يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحاط بها، فكان في ذلك كالإله تحوت فى معارفه، وأنه ما كان يتناول أمراً من الأمور إلا أنهاه»[2].

أما عن سياسته الخارجية، فيبدو أن أيام حتشبسوت التي تميزت بالسلم ونبذ الحروب، قد أطعمت ولايات مصر الآسيوية في التخلص من سيادتها وسرعان ما امتدت الثورة إلى كل ممتلكات مصر في آسيا، فكانت بذلك ثورة جماعية. حتى أن فرعون نفسه إنما يحدثنا قائلاً أنه «من يرزا، وحتى مستنقعات النهر، قد خرجوا على سلطاني، وشقوا عصا الطاعة». وربما كان من أسباب هذه الثورة اهتمام حتشبسوت بسياستها الإفريقية أكثر من اهتمامها بالسياسة الآسيوية، فضلاً عن أن ميتان، التي بدأت تلم شملها بدأت تسعى إلى أن يكون لها ضلع في توجيه سياسة الشرق الأدنى وتجارته. وكان أمير قادش على رأس الثائرين وقد جاء إلى «مجدو» وهي تل المتسلم الحالية وجمع حوله ثلاثمائة وثلاثين أميراً، لكي يوقفوا تقدم فرعون عند «مجدو».

خرج تحوتمس الثالث على رأس جيشه ما أن علم بالتمرد الآسيوي، وبعد تسعة أو عشرة أيام كان في غزة ثم غادرها ووصل إلى جبل الكرمل ونزل

(١) انظر. سليم حسن: المرجع السابق، ص ٤٥٥ - ٤٦٤.

(٢) Breasted, J. H., op. cit., parg. 266 ff.

في بلدة «يحم» وهناك يعلم من طلائعه أن أعداءه قد جمعوا جموعهم في «مجدو» وأن هناك ثلاثة طرق للوصل إلى مدينة مجدو هذه. منها طريقان يدوران حول سفح جبل الكرمل، أولهما ينفتح عند «تاعا ناخ» على مبعدة ٨ كيلو جنوب شرق مجدو، والآخر من ناحية الجانب الشمالي من «جفنى» وكلاهما رحب متسع، ولكنه طويل، وينعطف في نهايته بعيداً عن مجدو بعض الشيء، وأما الطريق الثالث وهو طريق «عارونا» فهو صعب المرتقى، ضيق محصور بين شعب من جبال الكرمل، ولا يتسع لأكثر من عربة واحدة، ولكنه ينفذ رأساً إلى مجدو. ويعقد مجلس الحرب للمشاورة، فيترك له ضباطه حرية الاختيار، فيقسم بحب رع وبفضل أبيه أمون أنه سيتقدم عن طريق عارونا.

وسار تحوتمس الثالث على رأس قواته، وانتهى جيشه من مروره الذي استغرق يوماً كاملاً دون أن يشعر الآسيويون بما كان يحدث في ممر عارونا، ثم تقدم بجيشه كله بعد اكتمال وصول مؤخرته نحو جنوب مجدو وكان الفرعون قد نظم قواته للمعركة، بأن جعل للجيش قلباً وجناحين، كما أرسل أمام الجيش مقدمة دفع منها وحدات استكشافية، كأحدث تعاليم الحرب الحديثة، فضلاً عن أن خطته إنما كانت تنطوي على ثلاثة مبادىء هامة في الحروب وهي المفاجأة والوقاية والقتال الهجومي.

وعسكر المصريون عند مدخل «وادي قينا» وفي فجر اليوم التالي هجم الجيش المصري على شكل نصف دائرة على مجدو، ولم يلبث المدافعون أن ولوا عنها عند بدء الهجوم تاركين معسكرهم بما فيه وكان كل همهم أن يدخلوا المدينة المحصنة، ويذكر لنا النص المصري بأنه لولا أن الجنود المصريين شغلوا أنفسهم بنهب المعسكر لأمكنهم الاستيلاء على المدينة، وقد كلفتهم هذه الغلطة أنهم ظلوا سبعة شهور في حصارهم حتى استسلمت استسلاماً تاماً، وقدم جميع من فيها من الزعماء ولاءهم وخضوعهم[١].

---

(١) Nelson. H. The Battle of Megiddo. chicago. 1913., Breasted. J. H., op. cit., parag. 391 ff..
وكذلك عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٠٩ - ٢١٢.

وكانت حملة تحوتمس الثالث على مجدو فاتحة لحملات أخرى بلغ عددها جميعاً ستة عشر حملة، كان يقوم بها عند إقبال الصيف ويرجع إلى مصر في أوائل الشتاء. وقد رأى تحوتمس الثالث ضرورة إعداد بعض الموانىء السورية لتكون قواعد للأسطول المصري، وقد تمكن في حملته السادسة من الاستيلاء على قادش وكان ذلك في العام الحادي والثلاثين من حكمه، وفي حملته الثامنة وصل إلى الفرات واستولى على مدينة قرقميش، وأصبحت مصر منذ هذه الحملة صاحبة النفوذ في غربي آسيا، كما أصبحت جميع ثغور فلسطين وسورية وجزر البحر المتوسط داخلة تحت نفوذ مصر بفضل أسطولها القوي. واستمرت حملات تحوتمس بعد ذلك إلى أن كانت الحملة السادسة عشرة في العام الثاني والأربعين من حكمه، وكانت مدينة قادش أعلنت العصيان مرة أخرى يؤازرها ملك ميتان، وانضمت إليها مدينة تونيب وبسقوط مدينة قادش وتحطيمها للمرة الثانية قضى على كل أثر لمعارضة النفوذ المصري في تلك البقاع.

وكانت رحلات تحوتمس الثالث إلى بلاد سوريا غير مطبوعة بالطابع الحَربي فقط بل أن تحوتمس الثالث أصدر أمره إلى رجاله بأن يدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوان أو فواكه أو زراعات، ولذا فإن بعض مظاهر الفن والحضارة السورية والعراقية بدأت تظهر في البلاد، فكانت خيرات العالم القديم تتدفق على خزائن فرعون، وأخذ شأن طيبة يزداد من يوم إلى يوم ولم يدخر تحوتمس الثالث جهداً في تزيينها لتصبح جديرة بأن تكون عاصمة العالم المعروف فبنى فيها المعابد والهياكل وأقام المسلات.

وكانت آخر حملة حربية سار فيها تحوتمس الثالث كانت في النوبة، حيث ذهب إليها في عام حكمه الخمسين، ويرى بعض المؤرخين أنها كانت استعراضاً لقوته العسكرية، بينما اتجه البعض الآخر إلى أنها كانت نتيجة لحدوث ثورة محلية[1].

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١١٦.

مات تحوتمس الثالث بعد حكم دام أربعة وخمسين عاماً في ال
الثلاثين من الشهر الثالث من فصل الشتاء وكما ذكر القائد «أمون أم ـ حه
في مقبرته «صعد إلى السماء واتحد مع الإله رع واندمجت أعضاؤه الطاه
مع الذي خلقها». فلما جاء اليوم الثاني وأشرقت الشمس وأضاءت السم
جلس على عرش أبيه الملك «عاخبرو ـ رع امنحوتب الثاني» واتخذ لنفس
الألقاب الملكية.

٧ ـ امنحوتب الثاني: ـ (١٤٣٦ ـ ١٤١٣ ق. م)

تولى امنحوتب الثاني العرش بعد وفاة والده تحوتمس الثالث، وكا
أمه الملكة «مريت رع حتشبسوت» الثانية ابنة الملكة حتشبسوت فهو لذلك
ولد من أبوين يجري في عروقهم الدماء الملكية، وكان عمره حينئذ يناه
الثامنة عشرة عاماً. وتشير الأدلة الأثرية والنصية إلى أنه قد نشيء تنشأة عسكري

وتكشف نصوص مقبرة «مين» عمدة مدينة طينة ومدرب امنحوتب بعـ
اللمحات عن طفولة أمنحوتب. وتظهر هذه النقوش أنه قد تعلم الرماية وهو
سن صغيرة، ومما جاء في هذا الشأن: «إنه (أي مين) قد لقن الصبي القوا
الأولى في تعليم الرماية قائلاً: شد القوس حتى أذنك، واستعمل كل
ذراعيك وثبت السهم... يا أيها الأمير امنحوتب». وقد كتب فوقه ه
المنظر «الأمير امنحوتب يتمتع بدرس في الرماية في ساحة القصر في طينة»

وتوضح اللوحة التي أقامها أمام أبو الهول وعثر عليها عام ١٩٣٦ معر
بالرياضة وقوته البدنية وبراعته في كل فنون الحرب، فهي تشير إلى مهارته
الفروسية ومعرفته بالخيل وغرامه بها، وأوضحت كذلك العديد من مظاهر ق
البدنية ومنها قدرته على التجديف لمسافات بعيدة، كما أنه كان في استطا
أن يصوب نحو هدف معدني سمكه قبضة يد فيخترقه بحيث يبرز سهمه
الناحية الأخرى. ولقد أوضحت بعض آثاره الأخرى التي عثر عليها شجاع
النادرة.

وترك امنحوتب العديد من المباني والتشييدات[1] في العديد من مناطق مصر مثل تل بسطة ومنف وميدوم ودندره، ونوبت. ففي الكرنك، أقام مقصورة بالقرب من البوابة الخامسة، كما أقام بعض العمد في الجزء الجنوبي من قاعة الأعمدة التي أقامها تحوتمس الأول. أما معبده الجنازي فقد أقامه بالقرب من معبد الرمسيوم. وشيد مقبرته في وادي الملوك، وقد عثر على مومياته ويستدل منها أنه كان طويل القامة قوي الساعد.

وفيما يتصل بسياسته الخارجية، فما أن جلس على عرش الفراعين حتى حاولت الولايات التابعة لمصر في غربي آسيا القيام بثورة ضده تبغي التخلص من الحكم المصري، فما كان من الفرعون الشاب إلى أن أعد جيشه وجهزه واندفع نحو سورية وهو على رأسه، فهزم كل من لم يقدم له الولاء وكان انتقامه شديداً، وأتى بما لم يأت به أحد من أجداد ممن قبل، إذ مال إلى التنكيل بأعدائه وأحضر معه سبعة من أمراء المدن السورية إلى طيبة وقتل ستة منهم أمام الإله آمون في طيبة أما السابع فقد أرسله إلى نبتا ليشنق هناك أمام أمون سيد جبل برقل[2]، وكان لهذا العمل أثره، فسرعان ما دانت له جميع المدن وأرسلت هداياها وجزيتها إلى مصر.

وكانت هذه الحملة أولى حملاته على آسيا التي ترجح أنها كانت في العام الثاني من حكمه وقد تبعها بحملة أخرى في السنة التاسعة ولكنها كانت حملة تفتيشية أكثر منها حربية، وقد سجلت أخبار هاتين الحملتين في لوحتين إحداهما في الكرنك والثانية في منف. هذا وقد امتد النفوذ المصري في عهده في الجنوب ومن المحتمل أن يكون قد وصل إلى أبعد من النجعة (وهي على مقربة من شندى على مسافة تقل عن سبعين ميلاً شمالي الخرطوم). وقد أمر امنحوتب بإقامة لوحتين لتحديد أملاكه من جهة الشمال ومن وجهة الجنوب، فأقام واحدة عند أقصى حدوده في نهرين، والثانية عند أقصى حدوده في الجنوب[3].

---

(١) Gardiner, A. H., op. cit., p. 205.

(٢) Wilson, J. A., op. cit., pp. 247 - 248.

(٣) Breasted, J. H., op. cit., vol. II, Parag. 800.

وحكم أمنحوتب الثاني نحو خمسة وعشرين عاماً ، مات بعدها ودفن في قبره الذي أعده بوادي الملوك .

٨ - تحوتمس الرابع : - (١٤١٣ - ١٤٠٥ ق . م)

لم يكن تحوتمس الرابع ، ولي العهد الذي كان يجب أن يؤول إليه العرش بعد وفاة أبيه وإنما تولى العرش عقب نزاع بينه وبين إخوته ، وتحمل «لوحة الحلم» وهي التي أقامها بين ذراعي «أبو الهول» في الجيزة إيحاء بأنه لم يكن هو صاحب الحق في الملك ويقص علينا في هذه اللوحة أنه كان يصطاد يوماً من الأيام في صحراء الأهرام عندما كان أميراً ، وجلس في ظل تمثال «حور أم آخت» (أي تمثال أبو الهول) وغلبه النعاس فرأى بوضوح أباه الإله يبشره بأنه سيصبح ملكاً في المستقبل ويطلب منه إذا تحقق ذلك أن يرفع الرمال التي تجمعت حوله لأنها تكاد تخنقه ولا يستطيع التنفس[1] وهذه القصة توحي بمحاولة تبريره لوجوده على العرش إذ لو كان هو الأمير الشرعي لما كان هناك داع لهذه القصة المخترعة .

ومهما كان الأمر فإن تحوتمس الرابع أثبت جدارته ، فما كاد يجلس على العرش حتى بدأت بعض المدن السورية في الثورة فذهب إليها على رأس جيشه فأعاد النظام ورجع محملاً بالغنائم ،وبعدد كبير من الأسرى بنى لهم حياً خاصاً بهم في العاصمة طيبة ، وكذلك فعل عندما نزل إلى السودان لإطفاء ثورة نشبت هناك فنزل إليها بنفسه أيضاً ، حيث أخمد الثورة ،وعاد ومعه أعداد ضخمة من الأسرى وكميات كبيرة من الغنائم .

ولقد سن تحوتمس الرابع سنة جديدة عندما زين مقدمة عربته الحربية بمناظر تمثل ساحة القتال وهذا المنظر وإن صغرت مساحته إلا أن الفنان راعى فيه جميع التفاصيل إلى جانب الدقة التامة .

ولقد كان تحوتمس الرابع آخر الملوك المحاربين وفي نفس الوقت حاولت

---

(١) Hayes, W., In CAH, vol. II, part I, P. 321.

الممالك المتنافسة في آسيا العمل على خطب ود مصر وصداقتها ، وأهم هذه الممالك إذ ذاك «مملكة ميتاني» وقد شجع تحوتمس الرابع هذا التقارب بل أراد أن يوثق أواصر المودة معها فتزوج من ابنة ملك ميتان ، وهذه الأميرة هي «موت أم أويا» التي أصبحت أم امنحوتب الثالث الذي تولى العرش بعد وفاة أبيه الذي لم يحكم أكثر من تسع أو ثماني سنوات فقط ودفن في مقبرته بوادي الملوك .

٩ ـ امنحوتب الثالث : ـ (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧)

دخلت مصر منذ تولى امنحوتب في فترة جديدة من حياتها فقد كان حاكمها الجديد غير ميال إلى الحرب بطبيعته ، وكانت الأمور قد استتبت في آسيا ولم يعد هناك من تحدثه نفسه بالخروج على حكم مصر أو منازعتها . وكانت خزائن فرعون تفيض بأكداس الذهب والفضة ، وكان الملك الشاب ميالاً إلى الفن والمتعة والجمال فطبع البلاد بطابعه وأخذت مصر تبني المعابد الفخمة الجميلة والقصور البازخة ، وبدأت الفنون تحتل المكانة الأولى بل وبدأت مصر كلها تتجمل وتجني ثمار جهدها الطويل .

وقد شيد امنحوتب الثالث معبداً لأمون في الجهة الغربية من طيبة وكان من الحجر الجيري وزين جميع أجزائه بالذهب وحلى أرضيته بالفضة ووضع فيه الكثير من التماثيل الملكية من جرانيت أسوان كذلك شيد لزوجته «تـي» وهي فتاة من عامة الشعب من مدينة أخميم قصراً على الضفة الغربية من النيل على مقربة من معبده الجنازي جعل منه ومن أبهائه معرضاً للذوق الفني الرفيع ، وأقام لها بحيرة على مقربة من القصر وربما أراد من وراء تشييد قصره في جانب طيبة الغربي ، وهو المكان المخصص للمباني الجنزية ، أن يكون بعيداً عن جلبة المدينة وضوضائها على الضفة اليسرى . وقد عامل امنجوتب الثالث زوجه «تي» بطريقة تختلف عما شهدته مصر في عهود فراعنتها السابقين ، فظهرت «تي» في النقوش والتماثيل في حجم مساو لحجم الملك دون أن يتميز عليها في الحجم ، وسمح لها بأن يكتب اسمها داخل خانة ملكية بأول النصوص الملكية .

وكان امنحوتب الثالث في صدر شبابه قد أظهر بعض الرغبة في ممارسة الصيد[1]. ونعرف من آثاره أنه خرج أكثر من مرة للصيد. ولـم تلـبث الحـياة الاجتماعية في مصر كلها أن اتجهت نحو الدعـة والاستمتـاع بالحياة، ولـم تقتصـر الحفـلات علـى القصـور بل شمـل ذلك جميع الطبقـات، وتـزوج امنحوتـب من أميرة ميتـانية ثم تبـع ذلك بالـزواج من أميرات بابليات وأشوريات.

ولقد بدأ امنحوتب الثالث في عهده عادة تخليد الأحداث الهامة على جعول ضخمة. وقد وصلنا بعض هذه الجعول. فمنها ما خلد ذكرى زواجه من «تي»، وكذلك زواجه من «جيلوخيبا» ابنة ملك المتيان. وقد عثر على هذه الجعول في أماكن متعددة من مصر.

والجديد في عهد امنحوتب الثالث هو أنه سار على منوال أبيه تحوتمس الرابع في محاولة حفظ التوازن بين الإله أمون وبقية الآلهة، فجعل امنحوتب الثالث من أكبر أبنائه وولي عهده الأمير «تحوتمس» كبيراً لكهنة «بتاح» وكانت إقامته في منف. وأخذت الاتجاهات الفنية تعطي للفنان الحـرية في التعبير عما يحسه وإبراز عبقريته الشخصية بدلاً من إتباع أساليب معروفـة لا يحيد عنها. وليس هناك من شك في أن كهنة أمون رع لم ينظروا بعين الرضا إلى أحياء عبادة الشمس ولم ينظروا بعين الرضـا إلـى تحلل الحياة الاجتمـاعية تقليداً لفرعون الذي استخف بكل التقاليد.

أما من الناحية السياسية فإن امنحوتب الثالـث، فقـد فاتـه أن سياسـة السلم وتبادل رسائل المودة والهدايا لم تكن وحدها كفيلة بالحفاظ على هيبة مصر وقوتها أمام تلك الممالك التي لم تشاهد حملة واحدة فنسي أكثر الناس جيش الفرعون وقوته. فبـدأت قبائـل الخـابيرو تثير الاضطرابـات في بعض المناطق الآسيوية، كما بدأ الحيثيون يهددون نفـوذ مصـر في غربـي آسيا، وأخذت بعض الولايات السورية التابعة لمصر تميل نحوهم أو تنهار أمامهم.

---

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢١٧.

ورأى أمنحوتب أن يشرك ابنه امنحوتب الرابع الذي كان قد تزوج من أميرة تسمى «نفرتيتي» معه في الحكم وبدأ أمنحوتب يحكم في عهد أبيه وأقام معه في طيبة ولكن منذ أن أصبح له شيء من الأمر بدأ يفكر في الدعوة إلى عبادة الشمس واختار أحد مظاهرها وهو أتون الذي عبر به عن القوة الكامنة في قرص الشمس إلهاً له وأقام معبداً على مقربة من معبد الكرنك.

١٠ ـ امنحوتب الرابع : ـ (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠)

وتدل جميع الشواهد على أن أمنحوتب الرابع لم يشتط في أول دعوته ولم يبادىء كهنة أمون بالعدوان، بل أن كل ما فعله هو دعوته إلى عبادة أتون وجعل منه إلهه المفضل وتبعه دون شك بعض رجال البلاد وكثير من عامة الناس، وبدأ كهنة أمون يحسون بالخطر الجديد الذي أخذ يهددهم فبدأوا يخلقون المصاعب أمام الملك الجديد. ولكن لم يمضي زمن طويل على أمنحوتب الرابع في طيبة حتى بدأ يشتد تعصبه لدينه الجديد في وجه كهنة أمون وغير إسمه من أمنحوتب الرابع إلى اسم جديد لتأكيد صلته بمعبوده فاختار اسم «أخ ـ أن ـ أتون» (أخناتون) وترجمتها المفيد لاتون.

وربما كان امنحوتب الثالث والده غير راضي على هذه الحركة الجديدة التي زادت من متاعبه، وربما كان عدم الرضا هذا من الأسباب التي دعت أخناتون في العام السادس إلى ترك طيبة واتخاذ عاصمة جديدة للبلاد أطلق عليها «أخت أتون» أي «مشرق أتون». وأحاط اخناتون نفسه بفئة جديدة العهد بفن الحكم من الموالين لدعوته وازدادت أحوال البلاد والممالك التابعة لمصر سوأ نتيجة انشغال الفرعون بدعوته الجديدة التي قدر لها أن تلاقي عدم النجاح. فأخذت مملكة خاتي تغير على أطراف سورية وتضمها ولاية بعد أخرى إلى ممتلكاتها، كما أخذت عدة مدن في فينيقيا وفلسطين تستقل في أمورها وتغير الواحدة منها على الأخرى.

ولقد تعرض أخناتون لمؤامرة كادت تؤدي به لولا يقظة رئيس شرطته

المدعو «ماحو» الذي تمكن من القبض على المتآمرين وساقهم إلى المحاكمة. ولم يطل العمر بأخناتون إذ مات في العام الحادي والعشرين من حكمه على الأرجح ويرى بعض الباحثين أن أخناتون قد مات في العمارنة، وأن «توت عنخ أمون» قد دفنه في مقبرته التي أعدها لنفسه في شرقي أخت أتون. وبوفاته هجر البلاط الملكي آخت أتون وعاد إلى طيبة، ولقد تم نقل جثمانه إلى وادي الملوك بغربي طيبة حيث دفن في مقبرة صغيرة غير مزخرفة[1].

١١ - توت عنخ أمون: - (١٣٤٧ - ١٣٣٩)

جاء بعد أخناتون ثم «سمنخ كارع» (١٣٥٠ - ١٣٤٧ ق. م) أخوهما الثالث «توت عنخ أمون»، وربما كان عمره حينذاك يناهز التاسعة، وقد مات، وهو في حوالي الثامنة عشرة من عمره وقد أثبت آخر فحص لمومياثه في عام ١٩٧١ أنه قد مات بسبب حادث أو اغتيال، وذلك من أثر صدمة عنيفة في مؤخرة رأسه، قد تكون ضربة أو سقوطاً من مرتفع.

وإذا درسنا آثار توت عنخ أمون وعصره فإننا نجد أنه برغم من كونه شاباً صغير السن ضعيف البنية فإن مصر أخذت تنهض من كبوتها وتستأنف حياتها العادية وقد غير اسمه واسم زوجته بأن حذف منها اسم أتون واستبدله بأمون، وأعاد لمعابد أمون ما أخذه أخناتون منها، كما قام بترميمها، وتزيين بهو الأعمدة الضخم في الكرنك بالنقوش التي تمثل العيد الكبير لأمون واستأنفت التشييدات المعمارية حركتها، وظل الفن على ازدهاره، ولم يتقلص نفوذ مصرفي النوبة وشمال السودان، أما في آسيا فإننا لم نسمع بأي حملات حربية. ومات توت عنخ أمون وهو في ريعان شبابه وقد كشف عن مقبرته في نوفمبر عام ١٩٢٢.

١٢ - حور محب: - (١٣٣٥ - ١٣٠٨)

كان حور محب قائداً في عهد أخناتون، وبعد موت آي الذي لم يحكم

---

(١) انظر عن عصر أخناتون ودعوته، :
محمد بيومي مهران: أخناتون، عصره ودعوته، الإسكندرية، ١٩٧٩.

أكثر من ثلاث سنوات بعد موت «توت عنخ أمون» سعى حور محب إلى الملك ، إذ سار إلى طيبة أثناء الاحتفال بعيد أوبت حيث تمت مراسيم تتويجه هناك وانتقل إليه الملك دون إراقة نقطة دم واحدة .

وقد حاول أن يبرر جلوسه على العرش ، مبعداً عن نفسه افتقاره إلى الأصل الملكي فانتسب إلى الإله حور ، كما حاول استمالة كهانة آتون القوية إليه ، وأكمل ذلك بالزواج من الأميرة الملكية «موت نجمت» أخت نفرتيتي .

ويختلف الباحثون حول مكان «حور محب» بين ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، فهناك من يراه آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة بسبب زواجه من الأميرة «موت نجمت» وهناك من يضعه على رأس ملوك الأسرة التاسعة عشرة على أساس أنه لا تربطه بملوك الأسرة الثامنة عشرو رابطة الدم ، والرأي الثالث يضعه بين ملوك الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة ، على أساس عدم وجود صلة دم تربطه بملوك أي من الأسرتين .

وبدأ حور محب حكمه بمحاولة تحقيق الإصلاح الداخلي وإزالة كل آثار سنوات حكم أخناتون ومن جاء بعده ، فسن القوانين العديدة[1] التي من شأنها إعادة الأمن إلى المواطنين والقضاء على أعمال السلب والنهب واستغلال المواطنين . وأمر بإصلاح المعابد وترميمها ولعل من أهم منشآته المعمارية كان البدء في بناء بهو الأعمدة الذي أكمله رعمسيس الثاني ، فضلاً عن بناء الصرحين التاسع والعاشر بالكرنك . كما قام بحملة في عام حكمه السادس عشر فيما بين بيبلوس وقرقميش ، مما سبب ضغطاً كبيراً على الحيثيين ، وهو الأمر الذي أدى إلى عقد معاهلة بينه وبين الملك الحيثي مورسيل

(١) عثر «ماسبرو» في الكرنك عام ١٨٨٢م على لوحة كبيرة تتحدث عن إصلاحاته الإدارية ، انظر :

Gardiner. A. H.. op. cit.. pp. 240 - 245.

وكانت نتيجة هذا أن عادت لمصر ثقتها في نفسها وعادت الطمأنينة إلى النفوس، فلما مات في عام ١٣٠٨ قبل الميلاد بعد أن حكم حوالي سبع وعشرين عاماً ترك وراءه بلاداً مطمئنة وهكذا ختمت الأسرة الثامنة عشر أيامها بملك عظيم وهو حور محب كما بدأت بملك عظيم هو أحمس الأول[1].

---

(١) فيما يتصل بالملك «حور محب»، انظر:
أحمد محمود حسين صابون: حور محب (رسالة ماجيستر) الإسكندرية، ١٩٨٠م.

٢ ـ الأسرة التاسعة عشر

(١٣٠٨ ـ ١١٩٤ ق . م)

رعمسيس الأول :

انتقل العرش بسهولة بعد موت حور محب ودون أي اعتراض إلى زميل له في الجيش كان يسمى « پارع مسسو » وبعد اعتلائه العرش تسمى باسم «رعمسسو من بحتي رع» بمعنى «أنجبه رع ودامت قدرة رع » واعتادت المؤلفات الكلاسيكية والحديثة في أن تعبر عن شطره الأول باسم «رمسيس»[١] ، وهو ينسب إلى شمال شرقي الدلتا ، وقد حمل في عهد سلفه «حور محب» العديد من الألقاب مثل ، قائد الرماه ورئيس المركبات ورئيس القلعة ورئيس أفواه النيل والمشرف على الجياد ورسول الملك إلى جميع البلاد الأجنبية والكاتب الملكي والمكلف بجمع الرماة ورئيس مشاة سيد الأرضين ، ونائب جلالته في الوجه القبلي والبحري .

ومع أن الملك رعمسيس الأول قد حكم أقل من عامين فأنه استمر في إدارة البلاد بحزم ونجح كل النجاح في السير على سياسة حور محب في إقامة المباني العظيمة له في الكرنك كما عثر له على قدس أقداس صغير في أبيدوس ، ولوحتين في منطقة سرابيط الخادم بسيناء ، وذلك فضلاً عن بعض الآثار التي عثر عليها في أماكن أخرى من مصر . أما مقبرته فقد أعدها في وادي الملوك ، ولم يكن العمل قد انتهى فيها عند وفاته ، وبالتالي فقد تم إعدادها على عجل ، وتم دفن الملك في إحدى الحجرات الثانوية[٢] وتلاه على العرش ابنه ستي الأول .

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢) Gardiner, A. H., op., cit., p. 248.

ستي الأول : - (١٣٠٦ - ١٢٩٠)

تولى ستي الأول (من ماعت رع - ستي مرى ان بتاح) العرش، وكان عمره في ذلك الوقت قد تجاوز الأربعين، وقد اعتبر عهده بداية مرحلة جديدة، فاتخذ لقب تجديد المواليد أو معيد المواليد «وحم مسوت»، وهو اللقب الذي اتخذه من قبل الملك امنمحات الأول في بداية الأسرة الثانية عشرة.

ولم يكد ستي الأول يجلس على العرش حتى أصدر أوامره باتمام ما لم يتمه والده من مبان، كما أصدر أوامره أيضاً بإصلاح ما لم تتسع أيام «حور محب» لإصلاحه من تخريب المعابد الذي حدث من جراء ثورة اخناتون الدينية.

أما أهم مبانيه التي شيدها، فهو معبد أبيدوس الذي أقامه للإله أوزير، وذلك تعبيراً منه على رعايته لكافة الآلهة، فرغم انتسابه للإله ست، فإنه قد أقام معبداً للإله أوزير، ويمتاز هذا المعبد بدقة نقوشه وتصميمه الفريد. كما شيد معبداً في وادي مياه أو وادي عبادي إلى الشرق من أدفو بحوالي ٥٥ كيلو متر وهو يعرف باسم معبد الروديسية. أما معبده الجنازي فيوجد في القرنة عند مدخل وادي الملوك. وتعتبر مقبرته في وادي الملوك من أجمل المقابر الملكية ولقد زينت جميع ممراتها وحجراتها بالألوان والنقوش الزاهية، ولم تقتصر تشييداته على ذلك، بل وجدت آثار له في الكرنك وسيناء وعين شمس وقنتير ومنف وقفط وغيرها.

ويتميز عهد ستي الأول باتساع استغلال مناجم الذهب في الصحراء الشرقية، وتوجد خريطة مرسومة من عهده لبعض مناجم وادي الحمامات وبخاصة مناجم أم الفواخير، حدد فيها مواقعها والطرق المؤدية إليها، والطريق المؤدي منها إلى البحر الأحمر، وموقع معبدها المحلي، وموقع جبل بخن منها. وتعتبر هذه الخريطة أول أو ثاني خريطة من نوعها عرفت حتى الآن من العالم القديم[١].

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

وفيما يتصل بسياسته الخارجية ، فلقد قام في سنة حكمه الأولى بحملة على سوريا ، وصل فيها ـ حسبما يرجح ـ إلى لبنان حيث صور الأمراء وهم يقطعون أشجار الأرز والصنوبر. وأتبع ستي الأول حملته هذه بثلاث حملات بعد ذلك في سوريا حدثت في آخرها المواجهة المباشرة بينه وبين الحيثيين، ويبدو أن ميدان المعركة كان إلى الشمال من مدينة قادش[1] ولم تكن هذه المواجهة حاسمة رغم انتصار الفرعون المصري. وكان من نتيجة هذه الحملات فرض هيبة النفوذ المصري في كل من فلسطين وسورية الجنوبية.

وفيما يتصل بالغرب ، فلقد ظهرت اضطرابات على حدود مصر الغربية وكانت نتيجة للهجرات الهند أوروبية التي أخذت تجتاح كل بلاد الشرق الأدنى القديم في ذلك العهد كان من أثر هجرات هذه الشعوب ونزول بعضها على شاطىء شمال إفريقيا أن بعض تلك القبائل أخذ يرنو بعينيه نحو مصر لمهاجمتها والاستقرار فيها ، ولكن ستي هزمهم في موقعتين سجل أخبارهما على معبد الكرنك.

هذا وقد استمد الفنانون في عهد ستي الأول أمراً جديداً هو رسم المعارك الحربية مفصلة وفي حجم كبير على جدران المعابد إذ أن مصر لم تعرف ذلك من قبل. وتوفي ستي الأول ودفن في قبره بطيبة. وخلفه ابنه رعمسيس الثاني.

رعمسيس الثاني : - (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق . م)

لم يبلغ ملك من ملوك مصر ما بلغه رعمسيس الثاني (وسر ماعت رع) من شهرة في التاريخ ، فقد استطاع هذا الملك الذي حكم سبعة وستين عاماً أن يفرض اسمه وشخصيته على عصره وعلى العصور التالية وملأ البلاد كلها بآثاره. وبدأ رعمسيس الثاني حياته بإنهاء جميع ما كان أبوه قد بدأه من معابد مثل معبد أبيدوس ومعبد القرنه ومبانيه المختلفة في الكرنك.

(١) Faulkner, R., In J. E. A. vol. 33 (1947), pp. 37 - 38.

وإذا أردنا الحديث عن آثار الملك رعمسيس الثاني، فإننا لا نقول أكثر من أنه لا توجد منطقة أثرية في مصر لم يرد فيها اسمه ومن أهم الآثار التي شيدها رعمسيس الثاني كانت في النوبة، حيث نقر في الصخر مجموعة من المعابد، كان أولها معبد «بيت الوالي» جنوبي أسوان بحوالي ٥٥ كيلو متر، ويليه معبد «جرف حسين» جنوبي معبد بيت الوالي بحوالي ٣٥ كيلو متر، ويليه معبد «وادي السبوع» ويقع جنوب معبد جرف حسين بحوالي ٦٠ كيلو متر، ويليه «معبد الدر» ويقع جنوب معبد وادي السبوع بحوالي ٥٠ كيلو متر. إلا أن من أعظم آثاره هو معبده الكبير في أبو سمبل، وهو يعد من أجمل المعابد الصخرية وأعظمها (شكل ١٧)، ولقد نحت في الصخر إلى الشمال من هذا المعبد معبداً صغيراً لزوجته نفر تاري وللإلهة حاتحور [١].

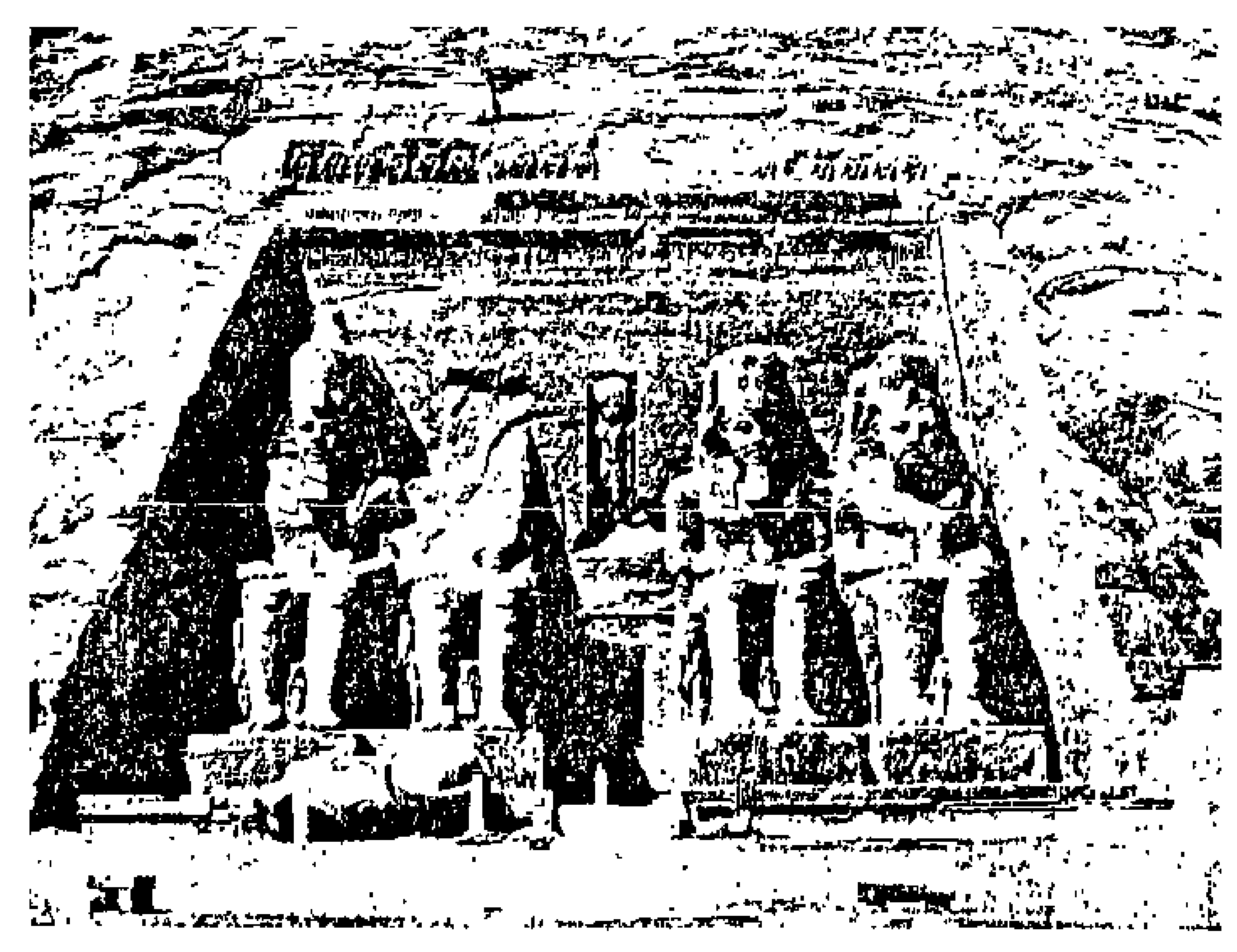
ولقد أنشأ رعمسيس الثاني عاصمة جديدة لمصر أطلق عليها «بر رعمسيس مرى آمون» التي تفيد معنى بيت رعمسيس محبوب آمون، وأصبحت هذه العاصمة منذ ذلك الوقت، المقر الملكي الرئيسي في الشمال في عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين وربما كان ذلك بالتناوب مع منف. وتمتد هذه العاصمة بين صان الحجر وقنتير الحاليتين في شرق الدلتا على الفرع التانيسي للنيل، وكانت بهذا ذات موقع مناسب يتوسط دولة الرعامسة في مصر والشام، ويسمح بوجود احتياطي عسكري كبير فيها يمكن أن ينجد الحاميات الشمالية على وجه السرعة، وذلك فضلاً عما توافر لها من استراتيجية حيوية ودفاعية[٢].

وفيما يتصل بسياسته الخارجية، فقد عمل منذ توليه الحكم على متابعة سياسة والده نحو استرجاع الأمبراطورية المصرية في سوريا، فقام في عام حكمه الرابع بحملة إلى سورية وصل فيها حتى نهر الكلب شمال بيروت، وفي عام حكمه الخامس حدث الصدام بينه وبين الحيثيين، حيث خرج رعمسيس الثاني بجيوشه

---

(١) انظر: محمد أنور شكري: المرجع السابق، ص ٢٣٤ - ٢٤٧.

(٢) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.



(شكل ١٧) واجهة معبد أبو سنبل العظيم.

من مصر، لمقابلة الحيثيين الذين تجمعوا في قادش مع أمراء الولايات السورية التابعين لهم والخارجين على مصر.

وكانت جيوش رعمسيس الثاني مقسمة إلى فرق تحمل كل فرقة اسم أحد آلهة مصر الكبرى إحداها فرقة أمون، وفرقة رع، وفرقة بتاح، وفرقة ست، ووصل رعمسيس الثاني إلى بلاد كنعان واتجه شمالاً متتبعاً الشاطىء حتى شمال بيروت ومن هناك توغل إلى الداخل حتى وصل إلى وادي نهر العاصي وكان معه حينذاك جيش أمون، وعبر بجيشه نهر العاصي، وعسكر في الشمال الغربي من المدينة، في الوقت الذي كان فيه ملك خيتا وحلفاءه خلف التلال وقاموا في الوقت نفسه بحركة التفاف وانسحبوا إلى ما وراء قادش على الشاطىء الآخر من النهر. فلما وصل جيش رع وبدأ في عبور النهر انتظر المتحالفون حتى وصل بعض الجنود إلى الشاطىء الآخر، وعند ذلك هجموا

على جيشه هجوماً مفاجئاً فلم يستطع أن يلم شماله ويصمد للحرب ، فحاول رعمسيس الثاني جمع شتات جنوده ، وصمد وحده للقتال بعد أن تخلى عنه أكثر رجاله ، وكان عمله هذا مثلاً في الشجاعة لجنوده من جيش أمون رع فلم يمضي غير القليل حتى تثبت قلوبهم والتحموا مع العدو، وبذا تفادى رعمسيس الثاني ورجاله كارثة محققة ، ويرجع الفضل في هذا إلى وصول فرقة من المجندين وهي فرقة «نعرين» وعندما وصلت الفرق الباقية مع اليوم التالي وانضمت إلى بقية جيوش رعمسيس الثاني تحقق النصر لرعمسيس الثاني على الحيثيين، واتفق الطرفان على أن يحترم كل منهما حدود الآخر وإلا يتدخل في شؤون رعاياه ، واقتصرت امبراطورية مصر في آسيا على فلسطين ولبنان وجزء صغير من سوريا وعلى الأخص الموانىء التي كانت على الشاطىء وهي الحدود التي كانت قائمة من قبل .

وبعد عامين من معركة قادش ثارت فلسطين نفسها وامتدت الثورة حتى وصلت إلى حدود مصر، وسارع رعمسيس الثاني إلى إخماد الفتنة وأعاد كل فلسطين إلى حظيرته وأعادت الحملة إلى مصر سيادتها على تلك البلاد كلها . وفي العام الثامن من حكمه قام بحملة أخرى كانت درساً قاسياً لمملكة خيتا أجبرها على احترام مصر وعدم التدخل في أمر ولاياتاها . وتم عقد معاهدة بين الطرفين في العام الحادي والعشرين من حكم رعمسيس الثاني أي في عام ١٢٨٠ ق . م. وتنص هذه المعاهدة على تأكيد الصداقة وأن كلا من مصر وخيتا لا يعتدي على الآخر. وأن يكون أساس العلاقات بينهما قائماً على المودة والمحبة والأخاء والمساواة[١] .

ومات رعمسيس الثاني بعد أن ملأ سمع الدنيا وبصرها في حياته ، وترك اسمه يرن في أذانها حتى الآن ، ودفن في قبره في وادي الملوك . بعد أن ترك ذرية من الأبناء الذكور تتعدى المائة بالإضافة إلى أكثر من خمسين بنتاً

(١) Wilson, J. A., In ANET., p. 248 ff.

مرنبتاح: - (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق . م)

اشترك مرنبتاح مع أبيه رعمسيس الثاني في الحكم وعندما آل إليه كان في الستين من عمره، وربما ذهب مرنبتاح إلى آسيا في السنة الثالثة من حكمه أو يكون قد أرسل جيشاً لإخماد بعض الثورات التي قامت فيها كما ذكر لنا في لوحته الشهيرة باسم «لوحة إسرائيل».

وفي العام الخامس من عهد مرنبتاح تمكن ملك قبيلة ليبو من أن يجمع الحلفاء من قهق ومشوش بجانب خمسة من شعوب البحر ومعهم نساؤهم وأطفالهم وماشيتهم وهاجموا الحدود المصرية، وتمكن مرنبتاح من إعداد جيشه فيما لا يقل عن اسبوعين وتوجه لمقابلتهم حيث انتصر عليهم انتصاراً كبيراً. وتشير النصوص المصرية إلى أعداد ضخمة من القتلى الأجانب بجانب أعداد كثيرة من الأسرى، كان من بينهم نساء الملك الليبي وأولاده وإخوته، وبذلك تمكن مرنبتاح من حماية مصر من هذا الخطر الذي واجهها من ناحية الغرب.

ولقد أقام مرنبتاح العديد من المباني في طيبة ومنف وغيرهما ولم يطل الحكم به بل مات بعد أحد عشر عاماً، ودفن في مقبرته التي أقامها بوادي الملوك. كما عثر على مومياه.

نهاية الأسرة التاسعة عشرة: -

ولقد أعقب موت مرنبتاح فترة من الاضطرابات حدثت فيها العديد من المؤمرات حول العرش، وتعاقب العديد من الملوك الذين لم يحكموا إلا لفترات من الزمن ومنهم الذي جاء بعد مرنبتاح وهو مغتصب للملك ويدعى «أمون مس» ثم مغتصب آخر اسمه «مرنبتاح سابتاح» واستمر في الحكم ست سنوات حتى خلعه الملك «ستي الثاني» الذي حكم هو الآخر ست سنوات. وفي هذا كله دليل على اضطراب الأمور في البلاد، ومن الذين حكموا خلال هذه الفترة كذلك الملكة «تا أوسرت»، وجاء بعدها حاكم أجنبي هو «باي

السوري (ارسو)[1]، وعجلت هذه الفوضى بنهاية الأسرة التاسعة عشرة حيث دخلت مصر مرحلة أخرى مع الأسرة العشرين.

(1) Gardiner, A. H., In J. E. A., vol. 44, (1958), pp. 12 - 22.

٣ ـ الأسرة العشرون

ملوك الأسرة العشرين : ١١٨٤ ـ ١٠٨٧ ق . م

١ ـ ست نخت	١١٨٤ ـ ١١٨٢ ق . م
٢ ـ رعمسيس الثالث	١١٨٢ ـ ١١٥١ ق . م
٣ ـ رعمسيس الرابع	١١٥١ ـ ١١٤٥ ق . م
٤ ـ رعمسيس الخامس	١١٤٥ ـ ١١٤١ ق . م
٥ ـ رعمسيس السادس	١١٤١ ـ ١١٣٤ ق . م
٦ ـ رعمسيس السابع	١١٣٤ ق . م
٧ ـ رعمسيس الثامن	١١٣٤ ق . م
٨ ـ رعمسيس التاسع	١١٣٤ ـ ١١١٧ ق . م
٩ ـ رعمسيس العاشر	١١١٧ ـ ١١١٤ ق . م
١٠ ـ رعمسيس الحادي عشر	١١١٤ ـ ١٠٨٧ ق . م

١ ـ ست نخت (١١٨٤ ـ ١١٨٢ ق . م)

يعتبر «ست نخت» مؤسساً للأسرة العشرين ، وإن كنا لا نعرف عنه سوى القليل في فترة حكمه التي كانت أقل من عامين فيما يرى جاردنر[١] ، وثلاثة أعوام فيما يرى آخرون . ويختلف الباحثون بشأن ست نخت الذي تولى العرش وكان متقدماً في السن ، فهناك من يرى أنه أحد أبناء رعمسيس الثاني ، بينما يرى آخرون أنه اعتمد على تأييد كهان أمون ورد الفعل الشعبي إزاء الإنهيار الذي حدث في أخريات الأسرة السابقة وتولى أجنبي العرش .

(١) Gardiner, Egypt of the pharaohs, p.

وتمكن «ست نخت» من عزل «إرسو» وأعاد الأمن والنظام إلى البلاد، ثم خلفه على العرش ابنه رعمسيس الثالث الذي يعتبره مانيتو مؤسساً للأسرة العشرين.

٢ ـ رعمسيس الثالث: ١١٨٢ ـ ١١٥١ ق. م

خلف والده «ست نخت» على عرش البلاد، وتميز عهده من الناحية الداخلية بكثرة التشييدات المعمارية التي شيدها في أنحاء مختلفة من مصر، ومن أهم هذه التشييدات معبده العظيم في طيبة والمعروف باسم «مدينة هابو» كما شيد كذلك معبداً صغيراً في الكرنك للإله خونسو، ومقصورة في تل اليهودية، بجانب أثاره التي أقامها في منف وعين شمس وسرابيط الخادم وتانيس وأبيدوس.

ونظراً لكثرة تشييداته المعمارية وحروبه المتكررة وكثرة هباته للمعابد وتغيير الاقتصاد العالمي من البرونز إلى عصر الحديد، كان لكل ذلك أثره في تدهور الاقتصاد القومي في أخريات عهده، فارتفعت أسعار الحبوب وأدى الأمر إلى عدم تمكن الحكومة من دفع مخصصات عمال دير المدينة، مما دفعهم إلى إعلان الإضراب حتى تم صرف مخصصاتهم. كما تعرض الفرعون لمؤامرة من حريمه كادت تؤدي بحياته لولا أن كشف عنها، وتم محاكمة المشتركين فيها بعقوبات مختلفة حسب دورهم فيها[1].

سياسة مصر الخارجية في عهد رعمسيس الثالث:

١ ـ سياسة مصر نحو الغرب: بعد أن تولى رعمسيس الثالث عرش البلاد، كان عليه أن يعمل على تأمين حدود البلاد الغربية من الليبيين الذين هددوا البلاد من الغرب وأثاروا القلق بين سكانها، وإن كان ذلك لم يبدأ منذ عهد رعمسيس الثالث، وإنما يرجع إلى أيام مرنبتاح الذي استطاع أن يلقنهم درساً قاسياً، وأن يبعد أطماعهم في الإستيلاء على أرض مصر الخصبة.

(١) Goedicke, H., In J. E. A., vol. 49 (1963), pp. 78 - 91.

وكان الاحتكاك الأول بين رعمسيس الثالث وحلفائهم من شعوب البحر في السنة الخامسة من حكمه. وكان السبب المباشر للحرب الليبية الأولى في عهد رعمسيس الثالث محاولة الفرعون أن ينصب عليهم ملكاً من اختياره، وقد عارضت القبائل الليبية تعيينه فكانت الحرب وعلى أية حال فسواءاً أكان ذلك هو السبب الرئيسي، أو أن غزوهم كان تكراراً للمحاولات السابقة، فإن هذه الحرب الليبية الأولى انتهت بهزيمة الليبيين هزيمة منكرة على حدود الدلتا الغربية، عندما كانوا في طريقهم إلى منف.

وتوضح سلسلة من المناظر الرائعة المصورة على الجدران الخارجية الغربية والشمالية بمعبد مدينة هابو وذلك بالإضافة إلى نقش السنة الخامسة المشهور تطورات هذه الحروب وسير المعركة والاستعدادت التي قام بها رعمسيس الثالث فعندما جاءت الأخبار إلى الفرعون بتحرك الليبيين المكونين من ريبو وسبد ومشوش نحو مصر، استعد للحرب وتقدم إلى ميدان المعركة يتبعه حرسه الخاص وجنوده من المصريين والأجانب كذلك، ويبدو أن ميدان المعركة كان على جانب تل في صحراء حمراء قد خضبت بدماء غزيرة، وقد اختلفت آراء المؤرخين حول مكان المعركة، وأياً كان الأمر فإن مكانها لابد أن يكون في مكان ما في الصحراء قرب حدود الدلتا الغربية.

ويعود رعمسيس الثالث من حملته هذه مصحوباً بالجند والموظفين وهم يسوقون الأسرى من الليبيين أمام عربته، ويبدو محتملاً أن عدد الأسرى يبلغ أربعة آلاف، بينما بلغ عدد القتلى ١٢,٠٠٠ قتيلاً[1].

الحرب الليبية الثانية:

بعد أن خاض رعمسيس الثالث في سنته الثامنة حرباً ضد شعوب البحر الشماليين وتمكن من هزيمتهم عمل على تقوية جيشه وتزويده بالعدة والعتاد

(١) Gardiner, A. H., op. cit., p. 283., Edgerton, W. F., Wilson, J. A., Historical Records of Ramsses III, Chicago, 1936.

وكذلك محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية، ١٩٦٩، ص ٢٥١ - ٢٥٧.

وعمل الاستحكامات اللازمة اتقاء لخطر قد يقع وهو في غفلة من أمره، من الشرق كان ذلك أو من الغرب، وقد صدق حدس الفرعون إذ لم تأت سنته الحادية عشرة حتى رأى الليبيين يعيدون تنظيم أنفسهم ويهاجمون مصر. ويتجه البعض إلى القول بأن الحرب الشمالية قد جذبت كل انتباه المصريين عن الحدود الغربية أثناء هجوم شعوب البحر، ومن هنا فقد تركوا حدودهم الغربية دون حراسة، فأعطوا الليبيين الفرصة أن يخترقوا الدلتا بسهولة.

ولقد كانت راية الزعامة في هذه المرة قد عقدت لقوم المشوش ـ وكانت زعامة الحرب الليبية الأولى لـ «ريبو» واستطاع زعيمهم «كبر» أن يجعل القبائل الليبية تحت لوائه وتمكن «مششر» بن «كبر» أن يقود المشوش ومن تحالف معهم نحو مصر، كما استطاع أن يقضي على قوم تحنو المسالمين والذين كانوا يسكنون في غربي الدلتا على الحدود المصرية مباشرة واستمر المشوش وحلفائهم الليبيين في تقدمهم داخل البلاد حتى وصلوا في زحفهم من رأس الدلتا حتى قاعدتها.

وتقدم الفرعون لمقابلة أعدائه وتحدث معركة حامية الوطيس أبلى فيها الفرعون ومشاته وفرسانه والرجال الأقوياء الذين دربهم على القتال بلاء حسناً. وتقدم لنا المناظر المصورة بمدينة هابو الجنود المصريين وهم يتممون هزيمة الليبيين، ويوضح النقش أن جلالته قد استولى على ٢,٠٥٢ أسيراً وأما الذين كان نصيبهم القتل فقد بلغوا ٢,١٧٥ قتيلاً وهكذا تنتهي المعركة على خير ما يرجوه الفرعون العظيم ويتمكن من سحق المشوش المعتدين الذين غزوا البلاد. وتعطينا نقوش المعركة أرقاماً للغنائم من الرجال والنساء والأطفال والعربات والسيوف والماشية وغيرها. إلا أن أثمن الغنائم على الإطلاق كان «مششر» زعيم المشوش وقائد الحملة. ولقد بلغ انتصار رعمسيس الثالث حداً جعل المصريين يعتبرونه حدثاً يحتفلون به سنوياً وسمي عندهم «عيد قتل المشوش»[1].

(١) Gardiner, A. H., in J. E. A., vol. 5, PP. 134 - 135., Edgerton, W. F., Wilson, J. A., op. cit., pp. 77 - 80.,

وكذلك محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٨.

كان انتصار رعمسيس الثالث حاسماً بعد أن قضى على الهجوم الثاني على حدوده الغربية ، ولم يعد أمامه ما يخشاه من هذه الناحية بعد أن قلم أظفارهم ، ومن ثم فإن الليبيين لم يحاولوا بعد هزيمتهم هذه أن يفرضوا أنفسهم عنوة على البلاد ، وبدأوا يتخذون طريقاً آخر يفرضون أنفسهم على مصر ، فقد بدأوا يهاجرون إلى مصر مسالمين وقد كان لذلك أثره الخطير في مستقبل الأيام .

٢ ـ سياسة مصر نحو الشرق : ـ

تعرضت منطقة الشرق الأدنى القديم إلى هجرات الأقوام «الهندو ـ أوروبية» وكانت الهجرات سبباً في انهيار الأمبراطورية الحيثية مما أوجد اضطراباً في الممتلكات المصرية في سوريا وفلسطين ، وكان رعمسيس الثالث مازال محتفظاً بامبراطوريته الآسيوية في فلسطين وجنوب سورية . وقد اضطر رعمسيس الثالث في بداية عهده إلى القيام بحملة آسيوية ربما نتيجة الاضطرابات التي نتجت عن هجرات الشعوب الهندو ـ أوروبية ، أو ربما أن أمور ـ جرياً على العادة القديمة ـ قامت بثورة ضد رعمسيس الثالث في أوائل عهده ، وقد تمكن الفرعون من إخماد هذه الثورة والقضاء عليها ، وتمكن من إعادة الأمن إلى نصابه في ممتلكاته الآسيوية ولكن إلى حين .

حملة السنة الثامنة : ـ

كانت السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث من أقسى السنوات على مصر ، إذ أنها واجهت فيها تهديداً خطيراً ، وذلك لأن بعض الشعوب التي تسميها النصوص المصرية «الشماليون الذين في جزرهم» فكرت في الهجرة إلى بلاد الشرق الأدنى وأتت في موجة كبيرة ، بعضها بطريق البحر والآخر بطريق البر ، وكان هدفهم من وراء تلك الحملات الاستقرار الدائم في هذه البلاد وقد جاؤا وفي ركابهم أزواجهم وأطفالهم .

وتقدمت هذه الهجرات نحو مصر براً وبحراً ، وعندما وصلت أخبارها

إلى رعمسيس الثالث بدأ يعمل الإستعدادات اللازمة لمواجهتهم فقام بتحصين الحدود وبخاصة عند زاهي ، كما أمر بتحصين مصبات النيل بأنواع من السفن المختلفة . ولقد تمكن رعمسيس الثالث من هزيمة شعوب البحر شر هزيمة في معركة برية قامت بينهما . أما المعركة البحرية فقد تمكن الأسطول المصري من هزيمتهم هزيمة قاسية ودمر سفنهم تدميراً كاملاً . وبهذا فقد تمكن رعمسيس الثالث من إنقاذ مصر من خطر مؤكد لم يقل عن الخطر الذي تعرضت له البلاد عند غزو الهكسوس إن لم يزد عنه ، ولم تنقذ مصر نفسها فقط ، بل أنقذت غربي آسيا معها كذلك[1] .

٣ ـ سياسة مصر نحو الجنوب : ـ

كانت النوبة قد تمصرت تماماً في هذه الفترة من الأسرة العشرين ولم تصبح بعد موضع قلق بالنسبة للفراعين ، ومن هنا فإن الفراعين لم يقوموا بحملات جادة ضد النوبة ، بل أن الأمور هناك كانت مستقرة ، وكانت جزيتها تصل إلى مصر باستمرار وتقدم لنا مناظر معبد مدينة هابو شيئاً عن حملة اضطر الفرعون إلى القيام بها ضد النوبة ، غير أننا لم نستطيع الجزم بذلك ، فمن جهة يمكن أن نفترض حدوثها على أساس أن القبائل النوبية ربما انتهزت فرصة الضعف التي كانت تمر بها البلاد في هذه الأوقات العصبية ، أو ربما انتهزت فرصة اهتمام مصر كلية بالأخطار التي كانت تهددها من ناحية حدودها الشرقية والغربية ، وربما كانت هذه الحملة جرياً على التقاليد القديمة التي تقضي بأن يقوم الفرعون بحروب يظهر فيها قوته يبين لشعبه وللبلاد التابعة له أنه ليس أضعف من أسلافه . وأياً كان الأمر فإن نقوش مدينة هابو توضح أن رعمسيس الثالث قد أوقع بهم هزيمة منكرة[2] .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٤ ، ، Edgerton, W. F., Wilson, J. A., op. cit, pp. 38 - 44.

(٢) Ibid., pp. 1 - 3.

الحالة الداخلية والخارجية بعد رعمسيس الثالث : ـ

بموت رعمسيس الثالث فقدت مصر آخر الفراعين العظام ، ولم يوجد بين خلفائه من استطاع أن يعيد لمصر مجدها ومكانتها ، ولكنهم كانوا جميعاً متشابهين في ضعفهم وفي خضوعهم لسلطان الكهنة . وفي عجزهم عن التغلب على الأزمة الاقتصادية التي بدأت تطحن البلاد ، ومتشابهين كذلك في عدم استطاعتهم إيقاف الفوضى والانحلال في جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة وفي هذه الأوقات العصيبة من تاريخ البلاد يحكمها ثمانية من الملوك الذين لا يعتد بهم (من رعمسيس الرابع حتى رعمسيس الحادي عشر) والذين كانوا يهتمون أكثر ما يهتمون بإعداد مقابرهم المزخرفة في وادي الملوك ، ولم يكن هؤلاء الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو من رجال الإصلاح . ولهذا قلما نسمع عن أحد منهم خيراً اللهم إلا إشارات عابرة توضح الفوضى والإنحلال وتفشي الرشاوي والسرقات .

أما من الناحية الخارجية فلا يوجد دليل واضح على أن مصر قد احتفظت بسلطانها كاملاً على فلسطين وسورية بعد وفاة رعمسيس الثالث .

الأسرة الحادية والعشرون

(١٠٨٧ - ٩٤٥ ق. م)

يبدو أن السلطة في مصر منذ أخريات أيام رعمسيس الحادي عشر قد قسمت بين «حريحور» و«نسى بانبدد» وإن رعمسيس الحادي عشر في أغلب الأمر - كان قد استمر في منف حيث بقى هناك إلى وفاة «حريحور» ثم عاد إلى طيبة حيث استرجع بعض سلطته، وإن كان هناك رأي آخر يرى أن «نسى بابندد» قد طرد الملك من عاصمته في الدلتا وبسط نفوذه على الدلتا بأكملها، فهرب رعمسيس الحادي عشر إلى طيبة وتعاون مع حريحور رئيس الكهنة على بسط نفوذه على الوجه القبلي والنوبة، وهناك رجي ثالث يرى أن الجيش قد استولى لنفسه على السلطة في آخر أيام الرعامسة، ويرى أصحاب ذلك الرأي أن تولى «حريحور» للوظيفة الكهنوتية لم يكن سوى وسيلة لجمع السلطة كلها في يديه.

وأيا ما كان الأمر، فإنه بوفاة رعمسيس الحادي عشر عام ١٠٨٧ ق. م، فإنه يترك مصر وقد أصبحت تحكم من عاصمتين مختلفتين عاصمة في طيبة أقام فيها كبار كهان أمون أبناء حريحور، الذي استطاع أن يورث تلك السلطة لابنه من بعده معتمداً في ذلك على القوة العسكرية - وليس على الكهانة - ورغم ذلك فإنه يرجح أن «حريحور» لم يكتب له أن يجلس على العرش، وإن انتحل الألقاب الملكية ولكنه ربما كان يمارس من السلطات أكثر مما للفرعون الحقيقي رعمسيس الحادي عشر، وعند وفاته ورثه أبناؤه في سلطته مكوني حكومة ثيوقراطية اعتمدوا في تدعيمها على ما بقي لعاصمتهم من ثراء قديم، وسيادة دينية وزعامة صعيدية وقد مدوا نفوذهم حتى الحيبة في مصر الوسطى جنوب مدينة الفشن بحوالي خمسة كيلومترات، حدث هذا بينما

كان «نسى بانبدد» في تانيس سيداً للدلتا ، ومن العجيب أن نقرر أن العلاقات بين شقي الوادي كانت ودية .

ويبدأ مانيتو أسرته الحادية والعشرين التي تضم سبعة من الملوك التانيسيين بـ «سمندس» والمستند الوحيد من عهد سمندس نص على عمود في محجر «الجبلين» مهشم في معظمه وفيه يروى كيف أن سمندس جلس في قصره في منف وهو يفكر في عمل شيء يشير إلى تقواه حتى يناله التمجيد، وأنه حين ينهي إليه الأمر بأن بهو الأعمدة الذي شيده تحوتمس الثالث في الأقصر أغرقه الفيضان فأرسل ثلاثة آلاف عامل لقطع الحجر الرملي اللازم للترميم[١] . أما عن خلفائه فليس لهم آثار على الإطلاق.

وأما في طيبة فإن حريحور بعد أن مات خلفه في طيبة ابنه «بعنخى» الذي وثق علاقته بالبيت الحاكم في تانيس ، وكان الملك في ذلك الوقت «بسوسنس الأول» فتزوج «باي نجم الأول» أكبر أولاد بعنخى من «ماعت كارع» ابنة بسوسنس الأول وكان هذا الزواج دون شك رابطة صداقة بين العاصمتين جعلت من وجودهما المشترك أمراً طبيعياً .

وأيا ما كان الأمر فحينما توفي الملك «بسوسنس الأول» أصبح باي نجم الحاكم الوحيد في مصر كلها ، وجمع بذلك بين شرعية ولايته للعرش ، وسلطة صاحب النفوذ الأقوى في البلاد ، وقد انجب من زوجته ولدين هما «ماخسارتي» و «من خبر رع» وقد عين أولهما رئيساً للكهنة ولما توفي تبعه شقيقه في رئاسة الكهنة ، ثم خلف والده على العرش ، وقد قام «من خبر رع» بإخضاع ثورة قامت بها طيبة . وعلى أية حال فإن هناك كثيراً من التعقيدات التي تصاحب نهاية الأسرة الحادية والعشرين ، وأهم ملوكها طبقاً لمانيتو سمندس ، بسوسنس الأول ، ونفر كيرس وأمنوفيس وأوسوخور وسي أمون وبسينا خس[٢] .

(١) Cerny, J., In C. A. H., vol II, part II B, (1980), , pp. 643 - 645.

(٢) Cerny, J., In J. E. A., vol. 32 (1946), pp. 24 - 30.

الفصل الثامن

عصر الإنتقال الثالث

الأسرة الثانية والعشرون

بعد انهيار الأسرة الحادية والعشرين دخلت مصر في مرحلة جديدة من تاريخها امتدت من النصف الثاني للقرن العاشر ق. م وحتى نهاية التاريخ الفرعوني، ويطلق على هذه المرحلة التسمية «العصور المتأخرة» وذلك نظراً لوقوعها في نهاية التاريخ الفرعوني من الناحية الزمنية أساساً، ومن حيث الحضارة ضمناً.

ويبدأ هذا العصر بالأسرة الثانية والعشرين وكان حكامها ذوي أصل ليبي متمصر، تشير إلى ذلك أسماء أجدادها الأبعدين، فضلاً عن أسماء ملوكها من أمثال شيشنق وأوسركون وغيرهم. وعلى ذلك فلم يكن هؤلاء غرباء عن مصر، ولم يفتحوا البلاد عنوة، وإنما كانوا من قبائل خليطة من أهل الصحراء الغربية الأقدمين ومن فئات شعوب البحر الذين نزلوا سواحل ليبيا منذ أواخر القرن الثالث عشر ق. م ولم يتمكنوا من دخول مصر بالقوة، فلجأوا إلى الوسائل السلمية، فدخلوا مصر كرعاة وتجار أو مرتزقة في الجيش، ولقد استقرت قبائلهم منذ أواخر عهد رعمسيس الثالث على حواف مصر الزراعية وحول الحصون المنتشرة على الحدود الغربية، ثم ما لبثوا أن تمصروا وعبدوا الآلهة المصرية، ودخلت جماعات منهم في الحاميات المصرية حيث منحت لهم بعض الأراضي الزراعية كمرتبات لهم في مقابل خدمتهم بالجيش.

وحمل رؤساؤهم ألقاباً جمعت ما بين الأصل المصري والأصل الليبي، وذلك مثل لقب «ور ـ مس» وهو يجمع ما بين الكلمة المصرية «ور» بمعنى عظيم، وبين كلمة «مس» الليبية التي تعني ملك. كما حملوا كذلك لقب

«رئيس ما الكبير» ، وذلك اختصاراً للقب «رئيس المشاوش الكبير» ولم ينسى لهم المصريون أيضاً أصلهم الأجنبي بسهولة ، فاحتفظوا لهم باسم المشاوش واسم الليبيين حيث تركزت أغلب جماعاتهم قرب الفيوم ، وباسم الأجانب فيما دون ذلك .

واستمرت مدة حكمهم أكثر من قرنين ، نسوا فيها أصلهم الغريب تماماً ، ولم يذكروا على أنفسهم إلا أنهم فراعنة مصريون ، ولقد حاربوا باسم مصر خارج حدودها ، وحاولوا جهدهم استعادة بعضاً من هيبة مصر وسمعتها في الخارج[1] . وكانت عاصمة مصر في عهد هذه الأسرة في الشمال إما تانيس أو بوباسطة ، وكان كبار الكهنة في طيبة يمارسون سلطاناً دينياً لا ينازع ، وفي أخريات عهدها تفرقت وحدة البلاد بسبب تنافس الأمراء الليبيين على الحكم ، وانتهى الأمر بأن أدعى الملك فيها ثلاثة بيوت ، بيتان في شرق الدلتا ، وبيت ثالث في غربها ، وذلك فضلاً عن عدد من الأمراء الإقطاعيين في مصر الوسطى والصعيد .

ولقد كان أول ملوك هذه الأسرة هو الملك «شيشنق الأول» .

شيشنق الأول : ـ

يعتبر شيشنق مؤسس الأسرة الثانية والعشرين أهم شخصية في الأسرة ، ونحن نسمع عنه لأول مرة في نص طويل عثر عليه في أبيدوس ، حيث لم يكن أكثر من الرئيس العظيم للمشوش ، وقد مات أبوه «نمرود» فدفنه في أبيدوس ثم حدث اعتداء على قبره فذهب إلى الملك في تانيس شاكيا ، فاهتم بالأمر وسافر بنفسه إلى قبر أبيه وأمر بإرسال تمثالاً باسم والد شيشنق يوضع في معبد أوزير في أبيدوس . وليس هناك شك في أن هذا الحدث يوضح لنا أمرين هامين ـ أولاهما قوة بعض العائلات التي من أصل ليبي ومحاذرة الملك وكبير الكهنة من اغضابهم ، والأمر الثاني أن هؤلاء الليبيين كانوا قد تمصروا تماماً

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

واعتنقوا ديانة المصريين. وتزوج شيشنق الأول من ابنة «بسوسنس» آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين. ويبدو مرجحاً أن شيشنق لم يقم بثورة للإستيلاء على الحكم بل انتظر حتى وفاة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين واستولى على العرش في تانيس، وعلى ذلك فقد قامت أسرة جديدة تربعت على عرش الفراعين متخذة من بوباسطة بشرق الدلتا عاصمة لها، أما الصعيد فقد تردد في التسليم لسلطان الحكم الجديد، ولكن بعد فترة من الوقت - سلم بالأمر الواقع - واستمرت عهود الحكام ذوي الأصل الليبي أكثر من قرنين، نسوا فيها أصلهم الغريب تماماً، ولم يذكروا عن أنفسهم إلا أنهم فراعنة مصريين. وحمل شيشنق نفس الألقاب الملكية التي حملها الملك سمندس مؤسس الأسرة الحادية والعشرين وهي «جلح خبر رع، ستب ان رع، مرأمون»، «الفحل القوي، محبوب آمون»، كما استخدم كذلك الألقاب حورونبتي وحور الذهبي.

وعمل شيشنق على تعيين بعض أفراد البيت المالك القديم وأنصارهم على رأس الإدارات في كهانة أمون بطيبة، كما عمل كذلك على الزواج من الأسرة الكهنوتية في طيبة، ثم ما لبث أن عين أحد أبنائه في منصب كبير كهنة أمون رع في الكرنك، وكان هدفه من وراء ذلك الإشراف المباشر على هذه الوظيفة الهامة، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أصبحت الوظائف الكهنوتية الرئيسية كذلك من نصيب الأمراء وأبناء الأسر النبيلة التي تنتسب إلى المشوش، وأدى هذا إلى ارتباط الكهانة بالملكية.

وشيد شيشنق العديد من المباني، كان معظمها في الدلتا، فأقام معبداً في تانيس، كما شيد العديد من المباني في تل بسطة وتل المسخوطة ومنف والحيبة وغيرها، غير أن أهم مبانيه كانت في معبد الكرنك وتتمثل في المدخل الذي أقامه ويؤدي إلى رحبة المعبد الرئيسي وكذلك الصرح الأول[1].

---

(١) انظر: Kitchen, K. A., The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1973, pp. 287 - 291.

وفي عهد شيشنق الأول تطلعت السياسة الخارجية المصرية إلى فلسطين وما وراءها، وفتحت مصر أبوابها أمام الفارين ومن وجه سليمان ـ عليه السلام ـ، وتذكر التوراة أن شيشنق ملك مصر صعد إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الملك وكل شيء، ويرجح بعض المؤرخين عام ٩٣١ ق. م تاريخاً لهذه الحملة، وفي الحقيقة أن هدف الحملة غامض تماماً فيما إذا كانت هي محاولة لأحياء الأمجاد المصرية القديمة أو هي كانت خطة لتدعيم مركز «يربعام» الجالس في دويلة إسرائيل.

وتوضح الأدلة الأثرية عودة العلاقات الودية مع أمراء جبيل، والتي توقفت في عهد الأسرة الواحدة والعشرين، ويستدل على ذلك من إهداء شيشنق تمثالاً جالساً له إلى معبد سيدة جبيل[١].

خلفاء شيشنق الأول: ـ

خلف شيشنق الأول على عرش الكنانة ابنه (أوسركون الأول) وقد كان والده قد زوجه من ابنة «بسوسنس الثاني» في حين كان ابنه الثاني «يوبت» كاهناً في طيبة، ولم ينجب هذا الأخير ابناً، فاتفق مع شقيقه «أوسركون الأول» على أن يكون ابن هذا الأخير خليفة لعمه في رئاسة الكهنوت.

إلا أن هذا الابن مات وخلفه ابنه «حرسا إيس» (حفيد أوسركون)، وقد مات هذا الأخير أيضاً فتبعه ولدين من أبناء أوسركون، ثم تبعهما الابن الرابع لأوسركون ويدعى شيشنق الثاني[٢].

وحمل أوسركون ـ مثل والده ـ العديد من الألقاب، ومن الألقاب التي تلقب بها أنه «الذي أجلسه أتوم على العرش»، «عظيم القوة الذي أخضع الأقواس التسعة، الحاكم الذي قهر كل الأراضي»، وقد منح أوسركون في

---

(١) Ibid., pp. 292 - 300.

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر، بيروت، ١٩٨١، ص ٢١١.

سنوات حكمه الأولى الكثير من الهبات الذهبية والأواني الفضية للمعبودات الرئيسية في مصر.

ومن أهم الآثار التي عثر عليها وتخص الملك أوسركون الأول بعض المباني في معبد أتوم في بوباسطة بالدلتا، وأقام في منف هيكلاً للإلهة باست تبقت منه عتبة ضخمة، أما في مصر العليا فقد أكمل معبد والده في الحيبة، كما أضاف بعض المباني لمعبد إيزه في أطفيح. وفيما يتصل بسياسة الخارجية، فقد استمرت علاقات مصر الودية مع جبيل، ويستدل على ذلك من إهدائه تمثال له لمعبودة جبيل، وذلك مثلما فعل سلفه من قبل.

وخلف تلكوت الأول والده أوسركون الأول على العرش نظراً لوفاة أخيه شيشنق الثاني قبل والده بقليل، ولم يعثر له سوى على آثار قليلة في الكرنك، وخلفه على العرش ابنه أوسركون الثاني، ولقد احتفل في عام حكمه الثاني والعشرين بعيدسد، حيث أصدر مرسوماً أعفى بمقتضاه، حريم معبد أمون رع من الضرائب ومن كل أنواع الخدمة، وكذلك المعابد الأخرى في طيبة، ويشير ذلك إلى استقلال طيبة، واختار أوسركون لمنصب كبير كهانة أمون ابن عمه شيشنق الثاني الذي كان يدعى «حارسيس» ولم يعين ابنه، وهو الأمر الذي كانت له آثاره البعيدة في انقسام الأسرة والدولة فيما بعد. ولقد عمل «حارسيس» على اتخاذ مظاهر الملكية مع أوسركون الثاني، فانتحل لنفسه الألقاب الملكية، غير أنه بوفاته، انتهز أوسركون الثاني الفرصة وعين ولده «نيملوت» كبيراً لكهنة أمون.

ولقد شيد أوسركون الثاني العديد من المباني في بوباسطة وتانيس ومنف والكرنك، إلا أنه يلاحظ أنه قد استخدم في مبانيه أحجاراً من مباني أسلافه، وبخاصة رعمسيس الثاني، مما أدى إلى تهدم كثير من مباني رعمسيس الثاني التي كان قد شيدها في «بي رعمسيس» وبوباسطة.

وبعد وفاة أوسركون الثاني، خلفه ابنه «تكلوت الثاني» الذي اتخذ لنفسه لقباً حورياً جديداً هو «حارسيس»، كما اتخذ الألقاب: «الفحل القوي، الظاهر في طيبة» و «جدخبر رع، ستب ان رع، تكلوت مرأمون»،

وهو اللقب الذي كان اتخذه من قبل شيشنق الأول.

وفي عام حكمه الحادي عشر عين ابنه أوسركون كبيراً لكهنة أمون في طيبة وقائداً لكل البلاد، والقائد العام للجيش وحاكم الجنوب. ولقد شبت ثورة عنيفة في العام الخامس عشر من حكم تكلوت الثاني، واستمرت قرابة عشر سنوات حتى خمدت الثورة.

وبعد موت «تكلوت الثاني» خلفه على العرش «شيشنق الثالث» وليس ولي عهده «أوسركون» الذي ظل في وظائفه القديمة لمدة ست سنوات، وخلفه فيها شخص آخر يدعى «حارسيس الثاني» ثم عاد إليها ثانية بعد حوالي ٣٣ سنة واستمر فيها حتى وفاته.

واتخذ «شيشنق الثالث» الألقاب «وسر ماعت رع، ستب أن أمون شيشنق، سي باست، مر آمون» و «ابن باست، الإله، حاكم هليوبوليس»، «الفحل القوي، نتاج رع» و «الفحل القوي، محبوب رع»، و «الفحل القوي، محبوب معات». ولقد استمر حكمه فترة تزيد عن النصف قرن بقليل، إذ يقدر عهده بحوالي اثنين وخمسين عاماً، وشيد الكثير من الآثار في الدلتا، إلا أنه استخدم في بنائها أحجار مباني رعمسيس الثاني في الدلتا وذلك في تانيس ومنديس وكوم الحصن ومنف وسقارة وغيرها.

وفي أواخر عهد «شيشنق الثالث» نشأت أسرة ملكية أخرى هي الأسرة الثالثة والعشرين، أي أنها كانت تعاصر الأسرة الثانية والعشرين وخاصة في الفترة الأخيرة منها، ولكننا لا نعرف كيف نشأت هذه الأسرة؟ وما هي العلاقة بينها وبين الأسرة السابقة؟

على ضوء المعلومات المتاحة، فإنه قد خلف «شيشنق الثالث» على العرش الملك «بماي» (القط)[١] الذي يرجح أنه لم يحكم أكثر من ست سنوات، ثم خلفه ابنه «شيشنق الرابع» الذي حكم سبع وثلاثين عاماً، وانتهت الأسرة بالملك «أوسركون الرابع»[٢].

---

(١) Gardiner, A. H., op. cit., pp. 333 - 334.

(٢) Kitchen, K. A., Op. Cit, PP. 326 - 343.

٢ ـ الأسرة الثالثة والعشرون

في العام الثامن من حكم الملك «شيشنق الثالث» تمكن «بدوباست» من تأسيس بيت مالك جديد هو الأسرة الثالثة والعشرين وكانت معاصرة للجزء الأخير من الأسرة الثانية والعشرين. وتضم الأسرة الثالثة والعشرين لدى مانيتو أربعة ملوك فقط، بينما ذكر كتشن Kitchen ثمانية ملوك لهذه الأسرة. وتبدأ الأسرة بالملك «بدو باست» الذي يقال أنه حكم أربعين عاماً طبقاً لرواية أفريكانوس، أو خمس وعشرين عاماً فقط طبقاً لرواية يوسبيوس[١]. ولقد بدأ «بدو باست» يؤرخ الأحداث طبقاً لسنوات حكمه، مما يشير إلى أنه كان يعتبر نفسه فرعوناً مساوياً لشيشنق الثالث، كما يرجح أنه اختار عاصمة جديدة لحكمه هي مدينة «ليونتو بوليس» وهي تل المقدم الحالية المتاخمة لقرية كفر المقدام، على مبعدة عشرين كيلو متر شرقي ميت غمر بمحافظة الدقهلية، وذلك بينما كان جيرانهم من ملوك الأسرة الثانية والعشرين في بوباسطة، أو تانيس. واستمراراً في اتخاذ مظاهر الملك، فقد عين «بدو باست» ابنه «ايويوت» كشريك له في الحكم، ولقد مارس «بدو باست» سلطانه وخاصة في طيبة التي رحبت بملكه.

ويبدو أن البيتين الحاكمين قد رضيا بالأمر الواقع، وهكذا أصبحت مصر تحكم من أسرتين ملكيتين في وقت واحد، ومن عاصمتين مختلفتين (تانيس وليونتو بوليس)، وقد اعترف بكل منهما رسمياً في البلاد، وفي نفس الوقت ظل الأمراء الإقطاعيون شبه مستقلين، ولكل منهم مظاهر الملك بصورة مصغرة[٢].

---

(١) Gardiner, A. H., op. cit., p. 334.

(٢) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ٢، مصر، ص ٢٢٥.

وظل الأمر كذلك ، حتى تمكن «أوسركون الثالث» من إنهاء سيادة الأسرة الثانية والعشرين في أهناسيا ، كما نصب ولده كاهناً أكبر لأمون في طيبة ، كما اكتسب الولاء المحلي في جنوب منف والدلتا . ومن أهم أحداث عهد «أوسركون الثالث» حدوث فيضان مرتفع للنيل ، أغرق معبد الأقصر وأحدث أضراراً به ، وقد قام «أوسركون الثالث» بترميم ما أحدثه الفيضان من أضرار .

وبعد موت «أوسركون الثالث» خلفه ابنه «تكلوت الثالث» ، وانتهز أمراء مصر الوسطى والعليا ، وفاة «أوسركون الثالث» ، وادعوا لأنفسهم حقوق الملكية ، وفي عهد خلفاء «تكلوت الثالث» انقسمت السلطة في مصر بين العديد من الأمراء الذين ادعى كل منهم الملك في منطقته ، واستمرت هذه الأحوال المضطربة خلال عهد الأسرة الرابعة والعشرين[1] .

---

(١) Kitchen, K. A., op. cit., pp. 357 - 361.

٣ ـ الأسرة الرابعة والعشرون

في ظل ازدواج الملكية بين الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين وصلت مصر إلى درجة من الضعف الداخلي جعلت الأمراء المحليين في الأقاليم يشيرون إلى أنفسهم وكأنهم قد أصبحوا ملوكاً، وفي أثناء هذا الاضطراب تمكن «تف نخت» من السيطرة على النصف الغربي من الدلتا وأسس الأسرة الرابعة والعشرين، وأخذ يعمل على إخضاع الأمراء المحليين في مصر العليا متجنباً الصدام بملوك شرق الدلتا في أول الأمر، وبعد أن بسط نفوذه على مصر الوسطى، عاد فمد نفوذه على شرق الدلتا ووسطها، أي أنه أصبح ملكاً بالفعل على الوجه البحري ومصر الوسطى حتى بني حسن، ولم تقاومه إلا أهناسيا عاصمة إقليم الأشمونين.

وفي تلك الأثناء كان «بعنخي» قد تولى الملك في النوبة، فقام بالتقدم شمالاً لوقف تقدم «تف نخت» حيث تمكن ـ كما سنشير بالتفصيل أثناء عرضنا للأسرة الخامسة والعشرين ـ من السيطرة على الدلتا كلها، وأسس الأسرة الخامسة والعشرين.

إلا أنه بعودة «بعنخي» إلى نباتا عاد «تف نخت» فاتخذ الألقاب الملكية من جديد، حيث تعاصرت في هذه المرحلة كل من الأسرتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين، حيث حكم «تف نخت» في الدلتا، وظلت مصر العليا تابعة لنفوذ حكام نباتا. وقد خلف «تف نخت» ابنه «بوخوريس». وينسب المؤرخون اليونان إلى بوخوريس أن كان من المشرعين العظام وينسبون له مجموعة من الشرائع والإصلاحات الاجتماعية والقضائية[1].

(١) Ibid., p. 362.

٤ ـ الأسرة الخامسة والعشرون

اختلف المؤرخون حول أصل الأسرة الخامسة والعشرين والتي تعرف باسم الأسرة النبتاوية (نسبة إلى عاصمتها نباتا)، فهناك من يرى أنها أسرة مصرية ترجع في أصولها الأولى إلى الكهنة المصريين الذين غادروا طيبة أنفة من الخضوع لليبيين المتمصرين واتجهوا إلى أطراف الحدود المصرية الجنوبية قرب الجندل الرابع، حيث أقاموا في نباتا حكومة ثيوقراطية تدين بديانة أمون وعقائد أوزير، كما اتخذوا كذلك الكتابة المصرية[١]، وظلوا يتسمون بالأسماء المصرية، وتلقبوا بالألقاب الفرعونية، ومن بينها «سيد القطرين» وذلك حتى قبل أن يحكموا مصر، وكان حكمهم قاصراً على النوبة وحدها، كما حمل بعضهم لقب «ملك مصر العليا والسفلى» واللقب الحوري «ابن رع» وذلك فضلاً عن اتخاذ تاج الصعيد الأبيض وتاج الدلتا الأحمر[٢].

على أن هناك من يرجع أصولها إلى أصل ليبي، ويرى أنصار هذا الرأي أنه أثناء هجرة القبائل الليبية إلى الدلتا ومصر الوسطى، ذهبت قبائل منهم نحو الجنوب، حيث تمكنت من تأسيس أسرة حاكمة في نباتا وهناك من الباحثين من يرى أن هذه الأسرة ترجع إلى أصول محلية خالصة، وذلك اعتماداً على الملامح الزنجية للأمراء النبتاويين، وكذلك وجود بعض العادات الخاصة كالدفن على السرير وبناء المقابر المستديرة، ويضاف إلى ذلك عملية انتقال السلطة من الأخ

---

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٦٢.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٣٥.

إلى الأخ، وبعد انتهاء الأخوة يعود الحكم إلى أبناء الأخ الأكبر[1].

هذا ويرجح الباحث الرأي الأول، حيث تتجه الأدلة الأثرية والنصية وشواهد الأحوال إلى تدعيمه.

وفيما يتصل بملوك الأسرة في مصرفهم كالآتي: -

١ - بعنخى.
٢ - شاباكو.
٣ - شبتكو.
٤ - طهراقا.
٥ - تانوت أماني.

١ - بعنخى: -

لقد ساء تلك الأسرة القوية التي قامت في نباتا ما آلت إليه الأمور في مصر، ومن هنا رأوا أن واجبهم يقضي عليهم ضم مصر إليهم إنقاذاً لها مما تعانيه، وتزعمهم ملك يدعى «كاشتا» وفهمنا من النصوص التالية لعهده أنه مهد للأمر العظيم باتصالات ومحالفات مع زعماء طيبة وربما أيدهم بجنود ساعدوعم ضد آواخر الليبيين المتمصرين.

ومع ذلك فالأمل لم يتحقق إلا على يدي ابنه «بعنخى» الذي خلفه على عرش نباتا عام ٧٤٧ ق. م. واتخذ الاسم الحوري «الفحل القوي الذي ظهر في نباتا» والاسم النبتي «دوام الملكية مثل رع في السماء»[2] ولقد أرسل بعنخى جيشه إلى مصر، حين أتته الأنباء أن «تف نخت» أمير سايس بدأ في الزحف نحو الصعيد، ويزود بعنخى جيشه في يوم رحيله بتعليمات لاحترام المعابد وتخليص البلاد ممن يعبثون فيها فساداً، وهكذا يبدو واضحاً أن بعنخى لم يرسل جيشه غازياً يريد الفتح

(١) محمد إبراهيم بكر: تاريخ السودان القديم، القاهرة، ١٩٧١، ص ٩٠ - ١٠٠.
وكذلك Reisner. G., In J. E. A., vol. 6 (1919), P. 54.
(٢) Kitchen. K. A., op. cit. P. 359.

والنصر، وإنما أرسله ليؤيد أمون وكهنته وينقذ طيبة ممن حدثتهم أنفسهم بالاعتداء عليها، وتتقدم جيوش «بعنخى» نحو مصر منطلقة إلى طيبة، ثم اتجهت نحو الشمال وتستولي على أهناسية ولكن «نمرات» حاكم الأشمونين قد تمكن من الفرار ليحصن مدينته وينظم الدفاع عنها مما جعل جيش بعنخى يفشل في الاستيلاء عليها وإن حاصرها من جوانبها الأربعة.

وعندما وصلت تلك الأنباء إلى بعنخى اجتاحه الغضب وقرر أن يتجه بنفسه إلى مصر، وعندما وصل إلى طيبة استراح بها فترة قصيرة، قدم فيها الهدايا إلى الإله أمون، وبعد ذلك واصل سيره شمالاً حيث تمكن من الاستيلاء على الأشمونين مدينة نمرود ثم تابع سيره شمالاً فاستولى على اللاهون ثم ميدوم واللشت وبعد ذلك تمكن من دخول منف حيث قام بكل الطقوس التي يطلب من الحاكم أداؤها، ثم ذهب إلى معبد عين شمس حيث اعترف به كهنة الإله رع ملكاً على مصر وعندئذ قدم أمراء الدلتا ولاءهم وعلى رأسهم تف نخت الذي كان قد لجأ إلى جزيرة صغيرة في شمال الدلتا.

وهكذا أصبح بعنخى حاكم مصر المطلق وامتد ملكه من «نباتا» حتى البحر المتوسط أي أنه في هذه الحالة حكم مملكة تشبه الأمبراطورية المصرية في أعظم اتساعها ـ باستثناء الأجزاء الآسيوية في فلسطين وسورية القديمة ـ ومن أسف أن يعنخى أسرع بعد ذلك بالعودة إلى نباتا تاركاً مصر للصراع الداخلي مرة أخرى إذ سرعان ما يعود منافسه «تف نخت» إلى إدعاء الملكية مرة أخرى ملقباً نفسه «حاكم القطرين وسيد الدلتا والصعيد».

ويمكن القول بأن كلاً من بعنخي وتف نخت كانا جديران بالإعجاب والتقدير فلقد حاول كلاهما إعادة وحدة وادي النيل المقدس، ولهذا فقد كان من سؤ الطالع للبلاد أن يصطدم هذان البطلان، ولكن مهما كان الأمر فإن حياة كل منهما وأسلوب كفاحه يدل على وعي قومي ويقظة وطنية فقد جاء

أحدهما من أقصى الجنوب ـ من نباتا ـ وجاء الآخر من أقصى الشمال ـ من صا الحجر ـ وكان هم كل منهما أن ينقذ مصر مما حل بها من التفكك ومما آلت إليه من الإنهيار[1].

الغزو الأشوري لمصر ومقاومة النبتاويين :

خلف بعنخي ابنه «شاباكو» (شابكو) فعز عليه أن تعود الفوضى إلى مصر مرة ثانية ولهذا أسرع نحو الشمال وتمكن من بسط سلطانه على مصر ونقل زعامته إلى الدلتا وفي ذلك الوقت كانت قوة أشور قد بلغت مكانة عظيمة ، ومن هنا كان من المحتم أن تقف القوة الأشورية والنبتاوية وجهاً لوجه وأن يؤدي احتكاكهما إلى نشوب الصراع بينهما.

ولكن «شاباكو» أثر أن تبقى المشاكل الخارجية ليتفرغ لمشروعاته الداخلية فأرسل الهدايا إلى سرجون الثاني فلما تلقى من سرجون هدايا كذلك اعتبرها دليلاً على أنه سيد آسيا وصور على الآثار وهويمسك بناصية الآسيويين الذين أصبحوا عبيداً له . وإن كان هناك من يرى أن سرجون قد اتجه إلى غزو مصر نتيجة تحريضها للولايات الآسيوية ثم وصل إلى رفح حيث قابلته الفرقة المصرية متحدة مع بعض الولايات الفلسطينية وألحقوا به خسائر فادحة .

وعلى أية حال فقد توفي «شاباكو» بعد أن حكم اثني عشر عاماً ، ثم خلفه «شبتكو» الذي لم يحكم إلا فترة وجيزة حدث خلالها أن توفي «سرجون الثاني» هو الآخر، وتولى بعده «سنحريب» (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق . م) الذي تقدم وحاصر أورشليم وأخضعها وبعدئذ عاد الأشوريين إلى بلادهم نتيجة تفشي وباء الطاعون في جيوشهم ، أو نتيجة لحدوث اضطرابات داخلية في بلاد الأشوريين أنفسهم وبخاصة في بابل . وأيا ما كان الأمر فقد قتل سنحريب بيد أحد أبنائه خلفه

(١) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ، الإسكندرية ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٧ .

«أسرحدون» (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق. م).

وبموت «شبتكو» يخلفه على عرش الكنانة «طهراقا» الذي بدأ ينظم المقاومة ضد الأشوريين ويثير المتاعب ضدهم في غربي اسيا ويتعاون مع أمرائها ـ وبخاصة أمراء صور وصيدا ـ في صد الأشوريين، ويزحف «أسر حدون» إلى مصر حيث ينال هزيمة قاسية عام ٦٧٤ ق. م، إلا أنه عاود الكرة مرة أخرى عام ٦٧٠ ق. م، ووصل إلى منف حيث دارت معركة بينه وبين طهراقا، ولقد تمكنت الجيوش الأشورية من إسقاط منف وتدميرها، ثم سيطرت على مناطق الدلتا، مما اضطر طهراقاً إلى أن يتجه نحو الجنوب واعتقد «أسر حدون» إن الأمور قد دانت له وأنه أصبح بانتصاره ملكا على الدلتا والصعيد وكوش، وبلغ من ثقته بنصره أنه أمر بتغيير أسماء مدن كثيرة إلى أسماء أشورية، ولم يكتف بذلك بل أمر بترحيل جماعات من الأطباء والبيطريين والسحرة والكتبة والموسيقيين إلى عاصمته[1].

ولم يرض المصريون بالإحتلال الأشوري لبلادهم فاتحدت كلمتهم وتقابلت أهدافهم ونسوا أحقادهم الشخصية وعملوا على أن يتصلوا سراً بطهراقاً في مقره بطيبة طالبين منه أن يزحف شمالاً وسيجد منهم كل عون مادي وبشري، ولبى طهراقاً النده وزحف نحو الشمال حيث تمكن من استرجاع منف وعزل الأمراء الذين خضعوا لأسرحدون.

وعندما علم الملك الأشوري بذلك سارع بالخروج في حملة جديدة ولكنه أصيب بالمرض في حران ومات ليخلفه ابنه «أشور بانيبال» (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق. م). الذي استعد لمهاجمة مصر فجمع جيشاً من السوريين والأشوريين وهاجم مصر براً وبحراً وتلاقى مع جيش طهراقا في معركة مكشوفة رهيبة تمكن من الانتصار فيها وانسحب طهراقا إلى الجنوب فتبعه

---

(١) Oppenheim, L. In ANET, PP. 293 - 294.

الأشوريين إلى طيبة التي تمكنوا من الاستيلاء عليها رغم دفاعها المستميت وخربوها ففر طهراقا إلى نباتا. ولم يتبعه بانيبال بل توقف عند طيبة وبدأ عملية سلب ونهب واسعة النطاق في هذه العاصمة المصرية الخالدة. وعاملوا المصريين معاملة سيئة، فقاموا بقتل السكان، ولم يكتفوا بقتل الشباب بل لم يفرقوا بينهم وبين الكهول والنساء والأطفال. ولم يحترم أشور بانيبال الآلهة المصرية ولا المعابد المصرية بل أخذ في تحريقها. ومع ذلك فإن الأشوريين لم يستطيعوا البقاء في الصعيد واكتفوا بأخذ الجزية منهم واستقروا فقط في الدلتا. وبعد أن استقر الحكم الأشوري في الدلتا بدأت حركات التحرر المصرية تنتشر في أرجاء البلاد. وأرسل الأمراء المصريين إلى طهراقا ليدفعوا الحكم الأجنبي ويشتركوا في إدارة البلاد إلا أن أمر هذه الثورة قد انكشف وقبض على زعائمها وأرسلوا إلى «نينوى» حيث قتلوا جميعاً باستثناء «نخاو» (نكاو) أمير سايس الذي عفى عنه أشور ـ بانيبال ربما باعتباره وريث الأسرة الرابعة والعشرين وسليل أكبر بيت منافس لبيت طهراقا. فأبقى عليه وقربه إليه وأعاده إلى إمارة سايس كما عين ولده «بسماتيك» أميراً على مدينة أتريب.

وبينما هدأت الحال قليلاً في الدلتا كان الصعيد يغلي كالمرجل ويبحث عن فرصة ليقوم قومة رجل واحد ضد المستعمر. ولكن التوحيد كان ينقصه فولى وجهه شطر الجنوب. وكان طهراقا قد مات وخلفه «تانوت أمون» الذي لبى دعوة أهل الصعيد وجمع جيشاً وسار به نحو الشمال. وعندما وصل إلى طيبة قابله الأهالي بالتهليل والفرح والترحاب على ضفتي النهر طوال الطريق، ونظروا إليه نظرتهم إلى المنقذ لهم من الاحتلال الأشوري وتوجه «تانوت أمون» نحو الشمال حتى وصل إلى منف فحاصر الحامية الأشورية فيها وسيطر عليها وأدب الأمراء الذين استكانوا للحكم الأشوري. ولكن من المؤسف أن «تانوت أمون» اعتقد أن الدلتا دانت له وبقي في منف منتظراً أمراء الدلتا حتى يأتوه مقدمين له الولاء إلا أن العدو كان قد عرف بالحركة فأرسل جيشاً طوق به «تانوت أمون» في منف مما اضطره إلى الهرب إلى طيبة فتعقبه

الأشوريين ودخلوا المدينة وهدموها واضطر «تانوت أمون» إلى أن يتجه نحو مدينته الجنوبية «نباتا» وبخروجه من مصر انتهى عصر الأسرة الخامسة والعشرين في مصر واستقر الحكم الأشوري مرة أخرى واستمر بها حتى استطاع «بسما تيك» أن يطردهم نهائياً منها، ويبدأ في مصر ما سمي «بعصر النهضة»[1].

(١) Gardiner, A. H., Op. Cit., PP. 346 - 347.

وكذا: محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٠٦ - ٣١٦.

٥ ـ الأسرة السادسة والعشرين
(٦٦٤ ـ ٥٢٥ ق . م)

تتكون الأسرة السادسة والعشرين من ستة ملوك هم :

١ ـ بسماتيك الأول (٦٦٤ ـ ٦١٠ ق . م) .
٢ ـ نخاو (٦١٠ ـ ٥٩٥ ق . م) .
٣ ـ بسماتيك الثاني (٥٩٥ ـ ٥٨٩ ق . م) .
٤ ـ إبريس (٥٨٩ ـ ٥٧٠ ق . م) .
٥ ـ أحمس الثاني (٥٧٠ ـ ٥٢٦ ق . م) .
٦ ـ بسماتيك الثالث (٥٢٦ ـ ٥٢٥ ق . م) .

وينسب عصر هذه الأسرة (العصر الصاوي) إلى إسم عاصمته (صا ـ الحجر) في غرب الدلتا،وهي مدينة «سا» في النصوص المصرية القديمة وأطلق عليها الإغريق «سايس»[٢] .

١ ـ بسماتيك الأول : ـ

ليس لدينا وثائق عن طرد الأشوريين من مصر، ومن هنا كان من الصعب علينا التعرف بالضبط عن كيفية انتهاء الحكم الأشوري في مصر، ولكنه يبدو أنه يرجع إلى ضعف الحكومة الأشورية في «نينوى» نتيجة محاولة العناصر البابلية التخلص من النفوذ الأشوري، وكذلك ظهور قوة إيران الجديدة في الميدان. ويرجع أمر طرد الأشوريين من مصر إلى البطل العظيم «بسماتيك» بن «نخاو» أمير سايس.

وقد مهد بسماتيك لمشروعه العظيم بتجميع السلطة الداخلية في يديه

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

على غفلة من الاشوريين حتى أصبح بالتأكيد في عام ٦٥٤ ق. م حاكماً على مصر كلها، ثم أخذ بعد ذلك يتصل سراً بملك (ليديا) الذي كان على عداء مع الاشوريين لاحتلالهم بلاده من قبل، واستجاب ملك ليديا إلى طلبات بسماتيك وحالفه. وتمكن بسماتيك من إعداد جيش قوي من الدلتا ومن الصعيد وانضم إليهم جنود الأيونين والكاريين وكسح بهذا الجيش الحاميات القوية التى كانت تعسكر فى الدلتا وطرد الاشوريين نهائياً من مصر، وتتبع فلولهم في فلسطين وانتهز الفرصة وأخذ يعيد لمصر شيئاً من مركزها السابق في غربي أسيا[1].

وطال عهد بسماتيك الأول إلى أربعة وخمسين عاماً. وانعكست فرحة التحرر من الغزو الأشوري، واستعادة وحدة البلاد على نواحي الحياة الداخلية كلها فاشتدت الإشادة بالقومية وبعرافة الاصول وكان من وسائلها إحياء تقاليد الدولة القديمة فى اللغة والدين وأساليب الدولتين القديمة والوسطى في الفنون، ذلك لان المصريين أخذوا في ذلك الوقت يشعرون بأن عظمة مصر في عهد الدولة القديمة كانت أعلى ما وصلت إليه في تاريخها ولذلك اصطبغ عهد الأسرة السادسة والعشرين بصبغة الدولة القديمة في كل شيء مع شيء بسيط من التحرر، وربما كان هذا من الأسباب التي تحبذ إطلاق إسم عصر النهضة على هذه الفترة من تاريخ مصر القديم. ومن الأهمية بما كان أن نشير إلى أننا وإن كنا نحمد لبسماتيك الأول جهاده لتحرير البلاد من الأشوريين فإننا لا نحمد له استمراره في استقدام الجنود اليونانيين إلى مصر وتشجيعه بكل الوسائل للتجار اليونانيين، إذ أدى ذلك إلى إبعاد الوطنيين عن الحياة الحربية الصحيحة واعتمادها على الأجانب لحفظ الأمن، وفي ذلك دون شك إضعاف الروح القومية، كما أخذت الثروة تتكدس في أيدي التجار اليونانيين الذين انتشروا في طوال البلاد وعرضها يحميهم نفوذ الحاميات من أبناء بلدتهم[2].

---

(١) Gardiner, A. H., op. cit., pp. 252 - 253.

(٢) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

خلفاء بسماتيك الأول : ـ

خلف بسماتيك الأول على عرش البلاد ابنه «نخاو الثاني» في عام ٦١٠ ق . م وكان الملك الجديد لا يقل إقداماً عن أبيه فحينما طمعت بابل في استعادة أمبراطورية أشور الغربية جهز جيشاً تقدم به نحو العراق لمساعدة الأشوريين وتمكن من هزيمة الجيش اليهودي المحالف للبابلين وذلك في موقعه عند مجدو، وتابع «نخاو» مسيرته في أواسط سورية وشمالها حيث تمكن من هزيمة البابليين على ضفاف الفرات قرب قرقميش ، وبهذا استعاد الإشراف المصري على أجزاء واسعة من الهلال الخصيب فيما بين عامي ٦٠٨ ، ٦٠٥ ق . م ثم تجمدت بعد ذلك السياسة الشمالية لمصر بقية عهد «نخاو» نتيجة ظهور قوة «نبوخذ نصر» وعقده معاهدة عدم اعتداء مع «نخاو» .

واكتفى نخاو بعد ذلك بترقية التجارة وتشجيع الملاحة فأمر بعثة فينيقية بالدوران حول إفريقية فأتمت ذلك في ثلاث سنوات ، كما أمر بشق قناة تربط النيل بالبحر الأحمر، وهي القناة التي أتمها من بعده «دارا» الفارسي لمصلحة بلاده[1] .

ويخلف «بسماتيك الثاني» أباه «نخاو الثاني» ويذهب إلى سورية لزيارة معبد أمون هناك وربما كان ينوي الاحتكاك مع بابل ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لعلمه بتكتلات في جنوبها ، ولهذا أرسل حملة إلى الجنوب وصلت إلى الجندل الخامس أو السادس . وأما علاقته باليونانيين فقد ظلت طيبة ، وزاد من تشجيعهم واستعان بهم في تكوين أسطول ضخم .

وعندما توفي بسماتيك الثاني خلفه «أبريس» الذي استغل أسطول سلفه في غزو فينيقيا ونجح في ذلك بسبب انشغال «نبوخذ نصر» في حروبه مع ميديا ، إلا أن نبوخذ نصر سرعان ما هاجم مملكة أورشليم الموالية لمصر ودمرها تدميراً كبيراً وأخذ الكثير من رجالها القادرين أسرى إلى بابل ، كما

---

(١) Herodotus, II, 158 - 160, 39, 42, 44.

هاجر كثير من اليهود إلى مصر، ورحب بهم «إبريس» وسهل لهم العيش في ربوعها وانتشرت جالياتهم في الأماكن المختلفة حتى اليفانتين في أقصى الجنوب.

أما من الناحية الداخلية فقد كان العسكريون غير راضين عن امتيازات المرتزقة ووقاحتهم، ولقد حدث عصيان في صفوف الجيش لأن إبريس أرسل قوة معظم أفرادها من المصريين إلى قرطاجنة، وحين منيت هذه الفرقة بالهزيمة اعتقد هؤلاء إن الملك أراد التخلص منهم، وحين ثاروا ضده أرسل إليهم «أحمس» «أمازيس» لتهدئتهم، ولكن «أحمس» استمالهم إليه فنصبوه ملكاً مما أحنق إبريس ودارت الحرب بينهما، وكان النصر حليف أحمس ورغم ذلك فقد أشرك إبريس معه في الحكم، إلا أن إبريس ما لبث أن ثار فقتله أحمس وانفرد بالحكم.

وكان أحمس الثاني أصدق صديق لليونانيين واتخذ حرسه الخاص من الفرق الأجنبية، وإن عمل على إرضاء الشعور الوطني لدى الجيش باستدعاء اليونانيين من الحاميات التي على الحدود وأرسل المصريين ليحلوا محلهم، وليس هناك من شك في أن «أحمس الثاني» قد أدرك إن الخطر كان كامناً عن يمينه وعن يساره، فأما عن خطر الغرب فقد حصن حدوده، وأنشأ حاميات كثيرة على الشاطيء وفي الواحات وشجع إقامة الناس فيها وبنى المعابد في سيوة وفي البحرية وفي الخارجة ليجعل من الواحات الحصون الأمامية إذ جد خطر وحدثت مهاجمة لمصر من يوناني ليبيا.

أما في الشرق فقد كانت الدولة البابلية تمد بصرها نحو مصر نفسها، واضطر احمس لأن يخوض معركة في أوائل سنوات حكمه في فلسطين وهزم العدو وجنوده الإغريق، لكن جيوش بابل لم تستمر في هجومها على مصر ومع ذلك فقد ظل الخطر كامناً واستعد أحمس له باحتلال أسطوله لجزيرة قبرص كما عقد محالفة مع ملك ليبريا ونجحت سياسة أحمس وقضت مصر عهداً مزدهراً في كل ناحية، ولكن في العام الأخير من حكمه أخذت السحب

تتجمع وكانت العاصفة على وشك الانتفاضة على مصر، ولكنه مات قبل أن تتعرض مصر لهذا الخطر، فكان نصيب خليفته «بسماتيك الثالث» التعـرض لهذه الكارثة ودفع حياته ثمناً لها بعـد أن رأى بلاده تسقـط تحـت السيطـرة الفارسية في عام ٥٢٥ ق. م[1].

---

(١) انظر: Gardiner, A. H., pp. 361 - 363.

وكذا

محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٣٢ - ٣٣٤.

٦ ـ الأسرة السابعة والعشرون
والغزو الفارسي لمصر (٥٢٥ ـ ٤٠٤ ق . م)

قمبيز : (٥٣٠ ـ ٥٢٢ ق . م)

في أخريات القرن السادس ق . م ورث الفرس أمبراطورية الأشوريين ، ومن ثم بدأوا يرنون أبصارهم نحو مصر ، وقد عهد «كوروش الثاني» إلى ابنه قمبيز بالقيام بهذا العمل . ونظراً لوفاة كوروش الثاني عام ٥٣٠ ق . م فقد انشغل قمبيز مدة ثلاث سنوات في مشاكل وراثة العرش ويحدثنا التاريخ أن «قمبيز» كان يهاب مصر وتباطأ في المضي إلى مهاجمتها لأنه كان يجهل أمورها ولا يعرف إلا القليل عن أحوالها الداخلية ، كما كان يخشى الصحراء ومسالكها الوعرة وهو من أولئك القوم الذين لم يعتادوا إلا المحاربة في الأراضي المزروعة والذين يعتمدون على تموين جيوشهم محلياً ، ولا يرهقون أنفسهم بنقل المياه لرجالهم ودوابهم ، وكاد قمبيز يرجع عن هدفه لولا أن الصدفة ساقت إليه أحد المغامرين اليونان وهو (فانيس) وكان قد عاش أكثر حياته في مصر يقود فيها فرقة من الجند المرتزقة ، ثم اضطر إلى الهرب من ملك مصر «أحمس الثاني» لخلاف وقع بينهما ، وهداه حب المغامرة المسيطر على عقله أن يضع خدماته تحت تصرف «قمبيز» وكشف «فانيس» لملك الفرس عن كل ما كان يدور في مصر من صراع خطير بين الجاليات الإغريقية والحكومة المحلية وأطلعه على إمكانياتها في الدفاع وعن أحوالها المختلفة ، كما بصره بمخاطر الصحراء ونصحه بالالتجاء إلى البدو الرحل الذين يعرفون مسالك الصحراء وإن يجزل لهم العطاء حتى يدلوه على أقصر طريق .

وعلى هذا النحو تحقق حلم «قمبيز» وقاد جيشه الكبير ومعه «فانيس»

الخائن ونفر من اليهود . وهكذا وصل قمبيز غزة في ربيع عام ٥٢٥ ق . م ودارت معركة الفرما «بلوزيوم» في ضراوة وعناء شديد، وبالرغم من استبسال المصريين ومأجوري اليونان وحسن دفاعهم تغلبت عليهم جيوش الفرس فارتدوا إلى منف وتحصنوا فيها فتبعتهم جيوش الفرس إلى هناك وأخيراً اضطر المصريون إلى التسليم وأكرم «قمبيز» «بسماتيك الثالث» ملك مصر وأحسن معاملته وأطلق صراحه ، ولكن «بسماتيك الثالث» حاول مرة أخرى أن يثير الشعور الوطني ضد «قمبيز» فقبض عليه وتختلف الآراء حول مصيره ، فهناك من يرى أن قمبيز قد قتله ، أو أنه قد أرسله أسيراً لدى الفرس ، بينما يرى آخرون أن الفرعون قد انتحر، وبعد ذلك سار قمبيز واستولى على طيبة وانتقلت مصر إلى أيدي الفرس الذين يمثلون الأسرة السابعة والعشرين لدى مانيتو[١] .

أراد قمبيز بعد ذلك أن يستولي على قرطاجنة وأن يضم سيوه ليحطم معبد أمون ، كما أراد كذلك أن يضم مملكة السودان الفرعونية فجازف بإرسال جيوش هائلة عبر كثبان الصحراء الليبية دون أن يعمل حساباً للتدرج في استخدام موارد المياه والمؤن ، ففتكت المجاعة والعواصف الرملية بها في الطريق ، وهكذا لم يوفق «قمبيز» في حملاته فالحملة ضد القرطاجيين انتهت إلى غير نتيجة لأن الفينيقيين أبو أن يحاربوا ضد أبناء بلدتهم . أما الحملة الأخرى ضد النبتاوين (الأثيوبين) والتي أسهم قمبيز فيها بنفسه فأثبت فشلاً ذريعاً بسبب الإهمال في إعدادهم ، وأما القوات التي أرسلت عبر الصحراء إلى واحة سيوة فقد أغرقها طوفان عاصفة رملية فلم يظهر لها أثر. وقد بلغ غضب قمبيز من هذا الفشل المتتابع مداه ، ويقال أنه أدى به إلى الجنون ، ومع ذلك فإنه استطاع أن يستحوذ على مصر كلها . وأخيراً عاد قمبيز إلى آسيا في عام ٥٢٢ ق . م تاركاً مصر تحت أمرة وال من قبله «ارياندس»[٢] .

---

(١) Ghirshman. R. Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest Translated from French by margared Mumrankin, (pelican books) Vondon 1978, p. 137.

(٢) Wainwright, G. A., In J. E. A., vol. 38 (1952), pp. 75 - 77., Herodotus, III. 17 - 19.

وبعد موت قمبيز انتقل العرش الفارسي إلى دارا الأول الذي حكم ستاً وثلاثين سنة (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق. م) ولم يتمكن من زيارة مصر إلى خلال عام ٥١٧ ق. م، ومما يشير إلى اهتمامه بحضارة مصر القديمة إنه أرسل إلى واليه على مصر يأمره أن يجمع أعقل الرجال من بين جند بلاده وكهنتها وكتابها ثم كلفوا بكتابة القانون الكامل لمصر حتى حكم «أحمس الثاني» وهو عمل ظلوا مشغولين به حتى عامه التاسع عشر. كما قام دارا كذلك بشق ما طمسه الماء والرمال من قناة «نخاو» المؤدية إلى البحر الأحمر وكان من دوافع المشروع تيسير وصول سفن الخيري إلى فارس، ثم اعتبار القناة مرحلة من مراحل استغلال التجارة البرية مع الهند. ولكن نظراً لضعف سلطان دارا في فارس وبخاصة بعد هزيمته من اليونانيين في معركة ماراثون عام ٤٩٠ ق. م فقد انصرف عن شؤون مصر وركز كل اهتمامه في الانتقام من الأثينيين. وكان ذلك من الأسباب المباشرة لثورة المصريين، الذين كانوا يتحينون الفرصة للخلاص من الحكم الفارسي فرغم سياسة التودد التي اتبعها دارا. إلا أنه كان يهدف من ورائها إلى استغلال موارد مصر بأقصى درجة ممكنة، ففرض الضرائب الباهظة. كما استخدم الأهالي للعمل في المشروعات التي تحقق أغراضه من قطع للأحجار أو استكمال القناة التي تربط بين النيل والبحر الأحمر التي بدىء فيها في عهد نكاو.

لذلك فقد ثار المصريون حوالي عام ٤٨٨ ق. م بقيادة «خباش» الذي احتل منف وسايس ولم يقدر لثورتهم أن تخمد نهائياً حتى العام الثاني من حكم «أكسركسيس» (خشيارشا) الذي خلف أباه (٤٨٥ ـ ٤٦٤ ق. م) وظلت قبضة الفرس قوية على عنق مصر طيلة حكمه[1]. وأخيراً مات «أكسركسيس» وخلفه ابنه «أرتاكسركسيس الأول» (ارتا خشاشا) (٤٦٤ ـ ٤٢٤ ق. م) وبعد أربعة أعوام من حكمه قامت ثورة كبيرة في عام ٤٦٠ ق. م على رأسها أميران مصريان أحدهما في مريوط والآخر في سايس، وقد استطاعا بما قدماه من مال أن يحصلا على معونة أثينا فأرسلت إليهما أسطولاً وصل حتى منف، وكان لهذه المعونة أثرها في انتصار المصريين على الجيش الكبير الذي أرسله

---

(١) Ghirshman, R., op. cit., pp. 190 - 191.

«ارتاكسركسيس» الأول وكان مكوناً من ٤٠٠ ألف جندي، وفرت بقية هذا الجيش حيث تحصنوا في منف، وحاصرهم المصريون فيها مدة ثمانية عشر شهراً حتى وصلت إليهم نجدة أخرى، ولم يتمكن المصريون وحلفائهم من الاستمرار في القتال فتركوا الحصار وعاد الأسطول الأثيني إلى بلاده[1]، ولكن الثورة ظلت مستمرة ومات أحد الأميرين، ومع ذلك فلم تكن هذه خاتمة الثورة، إذ قامت في مصر ثورة كبرى في عهد دارا الثاني (٤٢٤ - ٤٠٤ ق. م) ابن «ارتاكسركسيس» واتخذت هذه الثورة شكل حرب مستمرة انتهت بتحرير مصر وقيام الأسرة الثامنة والعشرين.

---

(١) Ibid., P. 194.

٧ ـ عهد الاستقلال
(الأسرات من الثامنة والعشرين إلى الثلاثين)

الأسرة الثامنة والعشرون: (٤٠٤ ـ ٣٩٩ ق. م)

قصر مانيتون حكم هذه الأسرة على الملك «أمون حر الثاني» زعيم الثورة التي بدأت شرارتها الأولى من أسوان وامتدت من عام ٤١٠ ـ ٤٠٤ ق. م، حيث كتب لها النجاح وتحررت مصر من سيطرة الفرس. وقد استعاد «أمون حر الثاني» ألقاب الفراعين منذ عام ٤٠٤ ق. م، واتخذ من مدينة «سايس» عاصمة له.

ويذكر مانيتون أنه حكم لمدة ست سنوات فقط، وربما كان هذا صحيحاً. وتشير رواية مصرية تحمل اسم «الأخبار الديموطيقية» وهي تسمية غير دقيقة ـ فيما يرى جاردنر ـ أن «أمون حر الثاني» قد اعتدى بصورة ما على أحكام القانون ومن أجل ذلك لم يسمح لابنه أن يخلفه على العرش[١].

ولقد اتسعت التجارة خلال عهد «أمون حر الثاني»، بينما ترك اليهود يعيشون في حامياتهم بعد أن عانوا الأمرين على أيدي كهنة خنوم أثناء الثورة، وبعد أن بدلوا ولاءهم من الفرس إلى المصريين.

الأسرة التاسعة والعشرون: (٣٩٨ ـ ٣٧٨ ق. م)

برزت الأسرة التاسعة والعشرين ـ طبقاً لرواية مانيتون ـ من منديس، وهي تضم أربعة ملوك حكموا قرابة عشرين عاماً، وكان يحمل أول الملوك، كما يحمل آخرهم ـ اسم «نفريتس» الذي يفيد معنى «عظماؤه مفلحون»[٢]،

---

(١) Gardiner, A. H., op cit., pp. 373 - 374.

(٢) Ibid., p. 347.

ويبدو أن العرش قد انتقل إليها في هدوء، ويرجح ذلك أن «نفريتس» ربما كان من زملاء «أمون حر الثاني» الذين حملوا على أكتافهم مسؤولية الثورة ضد الفرس، أو ربما كان واحداً من أبناء العائلات القوية استطاع أن يغتصب العرش بعد وفاة «أمون حر الثاني».

ولقد حكم «نفريتس» لمدة ست سنوات، ولقد حاول الفرس استعادة نفوذهم في مصر على أيامه، ولكن نظراً للاضطرابات في البيت الحاكم الفارسي بالإضافة إلى الثورة التي نشبت في آسيا الصغرى ضد الفرس، فلم تتم الحملة التي كان من المقرر توجيهها ضد مصر. ولقد تحالف «نفريتس» مع اسبرطة للانتقام من الفرس فأمد الإسبرطيين بأسطول ضخم ومؤن كثيرة، ولكن هذا المدد استولى عليه الأثينيون الذين كانوا في صراع مع الإسبرطيين. وعلى ذلك فقد وجه «نفريتس» عنايته للاهتمام بشؤون مصر الداخلية حيث عثر على بعض الآثار التي تحمل اسمه في الكرنك وتانيس.

وجاء بعد «نفريتس» ملك ضعيف لم يحكم سوى عام واحد، ثم خلفه على العرش «أخوريس» الذي جلس على العرش الكنانة لمدة ثلاثة عشر عاماً، تمكن خلالها من الصمود أمام الفرس لمدة ثلاث سنوات (٣٨٥ـ٣٨٣ ق. م) حتى تمكن من ردهم عن مصر، بل ومد سيطرته على فلسطين وجنوب فينيقيا، إذ تشير نقوشه التي تركها في صيد وعسقلون إلى ذلك. وكان «أخوريس» قد استفاد من تجارب أسلافه وأدرك أن الحلف مع الإسبرطيين عديم الجدوى، ومن ثم فقد تحالف مع «ايفا جوراس» ملك سلاميس في قبرص.

ولقد عثر على آثار للملك «أخوريس» في أنحاء متفرقة من مصر وبخاصة في مدينة هابو والكرنك والكاب. وبعد وفاته، خلفه على العرش «نفريتس الثاني» الذي لم يحكم سوى أربعة شهور انتقل العرش بعدها إلى الأسرة الثلاثين. حيث استولى على العرش أمير قوي قام بدور كبير في أواخر أيام «أخوريس» وهو «نخت ـ نب ـ ان» الذي تمكن من تأسيس الأسرة الثلاثين.

الأسرة الثلاثون : - (٣٨٠ - ٣٤٣ ق . م)

كان استيلاء (نخت - نب - أن) (نختنبو) على العرش ونقله من منديس إلى سمنود إيذاناً بإظهار الحزب المصري الذي أخذ يضيق ذرعاً باليونانيين الذين أظهروا كثيراً من السلوك المشين أثناء نزاع مصر مع الفرس، وأثبتوا أنهم غير جديرين بالاعتماد عليهم. وتدل آثار «نختنبو» الكثيرة على وجود سلم متصل وتقدم ويتضح ذلك في المباني العديدة التي شيدها وبخاصة أقدم المباني في فيلة.

ويشير ديودور إلى أن «ارتاكسركسيس الثاني» (٤٠٤ - ٣٥٨ ق. م) كان يعتبر مصر مجرد إقليم ثائر، وأنه كان مصمماً على إعادتها إلى حظيرة الأمبراطورية الفارسية، وفي عام ٣٧٣ ق. م خرجت جحافل الفرس بقيادة الوالي الفارس في سورية، حيث تمكنت من كسر استحكامات المصريين على الفرع المنديسي، وقتل الكثير من المصريين، أو أسروا، وبعد ذلك اندفعت القوات الفارسية المدعومة بالمرتزقة اليونان نحو منف، حيث تمكن تختنبو الأول من تجميع قواته وأحاط بالغزاة المحاصرين من جميع الجهات، وساعد المصريين في هذا الموقف مجيء فيضان النيل مرتفعاً فتحولت بعض أجزاء الدلتا إلى مستنقعات مما أجبر الفرس على الانسحاب[١]. وقد نسب نختنبو الأول نصره هذا إلى الإله «سوبد» صقر الشرق.

ويخلف «نختنبو» ابنه «جدحر» وكان على غير رأي أبيه في الإغريق فعادود صلته بهم فأصبح حليفاً لأسبرطة، وأرسل نقوداً إلى ملك أسبرطة وأثينا ليرسلا له جنود مرتزقة، وتمكن بذلك من تجهيز جيش ضخم يعد أعظم ما عرفته مصر منذ أيام الدولة الحديثة، إذ جند ثمانين الف من المصريين وعشرة آلاف من الأثينين والفا من الإسبرطيين، وأعد ما بين ٢٠٠، ٣٠٠ سفينة وخرج الفرعون على رأس هذا الجيش محققاً انتصارات ساحقة في

(١) Gardiner, A. H., op. cit., p. 375.

سورية حتى ظن أنه سيعيد الأمبراطورية المصرية إلى ما كانت عليه أيام «نخاو» ومن أسف أن الخطر قد جاءه من مأمنه، وذلك أن أخاه الذي تركه في مصر خانه وألب عليه المصريين وبخاصة الكهنة الذين أحنقهم استيلاء «جدحر» على أموالهم باستمرار لكي يدفع نفقات جيشه، وقد تمكن هذا الأخ من اغتصاب العرش، ولم يكتف بهذا، بل استدعى ولده الذي كان يحارب مع عمه فعاد إلى مصر بمعظم الجيش كما استدعت أثينا القائد «كابريوس» اليوناني الذي كان معه، فوجد «جدحر» نفسه وحيداً فاضطر إلى الفرار إلى صيدا حيث احتمى بملك الفرس. ولما اعتلى «نختنبو» الثاني الذي كان يحارب مع عمه في سوريا العرش أخرس الأصوات الباقية على الولاء لعمه، ثم عمل على إرضاء الكهنة وكثرت عمائره الدينية، كما قام بصد هجوم قام به الفرس على مصر عام ٣٥١ - ٣٥٠ ق. م. واستغل فترة الهدوء التي نعمت بها مصر في إقامة مبان كثيرة في أنحاء مصر، ومنح الكهنة الكثير من الامتيازات والإعفاءات وجباية الضرائب.

٨ - الأسرة الحادية والثلاثون وعودة الفرس (٣٤٣ - ٣٣٢ ق. م):

في خريف ٣٤٣ ق. م خرج الجيش الفارسي في حملته الخطيرة ضد مصر وكان على رأسه الملك الفارس ارتاكسركسيس الثالث (أوخوس). وتمكن المصريون من وقف اندفاع الأسيويين عبر خطوط الدلتا الدفاعية، إلا أن الفرس تمكنوا من شن هجوم جسور فاستسلمت لهم الفرما وبواسطة، فتراجع الملك «نختنبو» الثاني إلى مصر العليا حيث صمد ١٨ شهراً ثم انتقل إلى السودان. وتحولت مصر من جديد إلى إقليم فارسي، ولكن لم تطأ طيء هامتها في هذه المحنة الجديدة، بل تجددت فيها الثورات. ومن المؤكد أن أحد أمراء الدلتا قد قاد معركة المقاومة الوطنية وأعلن نفسه ملكاً على البلاد.

وفي تلك الأثناء ظهر الإسكندر الأكبر، وسار في حملاته الموفقة في آسيا، وبعد انتصاره على دارا الثالث في موقعه إيسوس عام ٣٣٣ ق. م اتجه إلى سورية وبعدها اتجه الإسكندر إلى مصر ودخلها في عام ٣٣٢ ق. م. حيث

استسلم له الوالي الفارسي دون مقاومة وقد أحسن الإسكندر معاملة المصريين وأكرم آلهتهم وزار معابدهم واعترف به الكهنة ملكاً. ولم يمض وقت قليل حتى فكر في إنشاء ميناء جديد على ساحل البحر المتوسط في مكان كانت تشغله مدينة صغيرة اسمها «راقودة» فأنشأ فيها مدينته الجديدة التي سميت باسمه وهي «الإسكندرية»[1].

وكان ذلك نهاية المطاف في تاريخ مصر الفرعونية وبدأت مصر مرحلة جديدة من تاريخها رزحت فيه للاحتلال اليوناني ثم الروماني لمدة تقرب من ألف عام حتى خلصها الفاتحون المسلمون على يد عمرو بن العاص، ودخلت مصر مرحلة جديدة من حياتها في ظل الإسلام.

---

(١) Ibid., p. 380.

الباب الثاني

تاريخ سورية القديم

مقدمة تمهيدية

تطلق تسمية سورية على المنطقة الواقعة بين جبال طوروس شمالاً وسيناء جنوباً، وبين البحر المتوسط غرباً وبلاد النهرين شرقاً، وأطلق العرب على هذه المنطقة اسم «الشام» وتعني اليسار أو الشمال بالمقابلة مع اليمن (اليمين أو الجنوب) وذلك بالنسبة إلى أهل الحجاز.

وأطلق سكان وادي الرافدين القدامى على سورية اسم «أمورو» وهي تقابل كلمة مارتو السومرية التي تفيد معنى الغرب. وفي نصوص رأس الشمرة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر ق. م وردت كلمة «شرين» Shryn ، واستعملت كلمة «سريون» في المصادر العبرانية عند الإشارة إلى إقليم لبنان الداخلي، وقد سمى البابليون إقليماً في الفرات باسم «سو - ري» و«سر - ري»، ومنذ العهد اليوناني استخدم اصطلاح «سورية» وكان يعني بلاد الشام جميعاً، وظل استعماله مستخدماً حتى العصور الحديثة[1].

ونادراً ما انضمت هذه المنطقة تحت لواء واحد في العصور القديمة، ويبدو أنه سكنتها خلال الألف الثالث ق. م شعوب تختلف في طرق معيشتها وفي صلاتها العرقية ولغاتها، ومع ذلك، فإنه رغم الاختلاف بين شعوبها خلال العصور التاريخية، فإنه يمكن القول بأن المنطقة التي تعرف الآن باسم

(١) نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، جـ ٣، سورية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٧.

سوريا ولبنان تكون وحدة جغرافية بحدود طبيعية، فيحيط بها من الشمال والشمال الغربي جبال الأمانوس وجبال طوروس في الأناضول وثنية الفرات العليا، ويحدها من الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق الصحراء السورية والامتداد الشمالي لصحراء النفوذ، ومن ناحية الجنوب فإنها تندمج مع فلسطين التي تمتد حتى حدودها مع مصر(١).

ولم تكن سورية تعني في التاريخ دولة معينة لها كيان الدول المعروف ومقوماتها، وأثر في هذا الموضع الخصائص الجغرافية للمنطقة الساحلية السورية الفلسطينية، فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض كان يعني أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحاً لسلسلة من الهجرات والغزوات، دون أية فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية، فقد كانت هذه المنطقة بمثابة أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى التي كانت تقع بينها، وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليه مرة بعد أخرى وذلك لأنها كانت منطقة جذب في حد ذاتها لخصوبة أرضها، كما أنه يمكن دخولها من كل جانب والانتقال منها في كل اتجاه، ويضاف إلى ذلك أنها كانت مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط، فضلاً عن الصحراء التي جاء منها البدو الساميون(٢).

وكان لموقع سورية المتوسط بين حضارتي مصر والعراق أثره في تطور الحياة فيها بصورة غير تلك التي ظهرت في مصر أو العراق(٣) فبحكم موقع سورية واتصالها المباشر بجيرانها فقد تأثرت بهم، ومن ثم جاءت حضارتها

---

(١) Fisher, W. B., The Middle East, London, 1948, P. 34.

(٢) سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة وزاد عليه السيد يعقوب بكر، وراجعه محمد القصاص، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٢٢.

(٣) Gadd, C. J., and Legrain, L., Royal Inscriptions, London, 1928, P. 78.

على صورة مخالفة لجيرانها، ومن ناحية أخرى فقد كان لهذا الموقع بين هاتين القوتين الكبيرتين في العالم القديم بالإضافة إلى طبيعة سورية الجغرافية أثره في عدم وجود قوة سياسية كبرى في هذه المنطقة من العالم تنظم الإقليم السوري كله. ويلاحظ كذلك أن المرات القليلة التي اتحدت فيها وحداته كان ذلك بإرادة سلطة خارجية.

ونتيجة لذلك لم تظهر وحدة سياسية واحدة تجمع بلاد الشام جميعها في دولة واحدة، وإنما كان بعضها عبارة عن وحدات صغيرة تقوم في مدن حصينة مبنية فوق أرض مرتفعة، بينما ظل أغلبها ممن عاشوا خارج المدن بدوا يتنقلون من مكان إلى مكان ويضغطون باستمرار على المراكز المستقرة.

ويعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ سورية القديم على العديد من المصادر ويأت في مقدمتها المصادر الأثرية والنصية، ولقد كشف عن العديد من هذه المصادر في العديد من المناطق في بلاد الشام، وسنلقي الضوء فيما يلي على بعض هذه المصادر.

ومن أهم هذه المصادر الكشف عن مدينة ماري (تل الحريري حالياً على مبعدة ميل غربي الفرات قرب بلدة أبو كمال) وهو العمل الذي قام به الأثاري Andre Parrat [١]. وقد تم الكشف في أطلال مدينة ماري على أكثر من ٢٠,٠٠٠ لوح مسماري[٢]، واللغة التي كتبت بها الألواح في معظم

---

(١) Parrot, A., «Les Peintures du Palais de Mari», in Syria, Vol. XV III (1937), PP. 324 - 354.,
Parrot, A., «Les Fouilles de Mari», in Syria, Vol. XIX (1938), PP. 1 - 29., Vol. XX (1938), PP. 1 - 22.

(٢) Dossin, G., «Les Archives epistolaires du Palais de Mari», in Syria, Vol. XIX (1938), PP. 105 - 126.,
Dossin, G., «Les Archives economiques du Palais de Mari», in Syria, Vol. XX, (1939), PP. 97 - 113.

الأحيان أكادية غير أن المفردات والمميزات الصرفية والنحوية لا تترك مجالاً للشك بأن الذين كتبوا تلك الألواح تكلموا الأمورية أو اللغة السامية الغربية المختلفة عن الأكادية أو السامية الشرقية، وتمثل هذه الألواح محفوظات الملك زمري ليم (١٧٣٠ ـ ١٧٠٠ ق. م تقريباً) وهو آخر ملوك ماري الذي قضى على دولته الملك حمورابي.

وتتضمن هذه الألواح وثائق سياسية سجلها الملوك والموظفون ووثائق إدارية واقتصادية، واستطاع الباحثون استخلاص الكثير من المعلومات التاريخية من دراسة هذه الوثائق، إذ يتضح منها أن مدينة حلبو (حلب) كانت عاصمة يمخاضة، وأن جبله (جبيل بيبلوس) كانت مركزاً لنسيج القماش والملابس، وأن قطنه (شمال شرقي حمص) كانت مركزاً هاماً، وأن حران كانت إمارة أمورية. وتظهر الوثائق أن جميع هذه المدن كانت مراكز سلالات أمورية أو تحت حكم أمراء أموريين[1].

ويعتمد الباحث في دراسته للكنعانيين على العديد من المصادر التي كشف عنها في سورية وفلسطين، ومن أقدم النقوش التي كشف عنها «النقوش السينائية» والتي يمكن نسبتها إلى النصف الأول من الألف الثاني ق. م، وهي الكتابة التي اقتبسها الفينيقيون من المصريين في سيناء، وكانت هذه الأبجدية بدون حروف صوتية بسبب تأثير الكتابة الهيروغليفية المصرية.

وأقدم النصوص التي ترجمت منها ترجمة يمكن التعويل عليها تنتمي إلى بداية النصف الثاني من الألف الثاني ق. م، ومن هذه النقوش، كتابات أثرية كنعانية قصيرة كتبت بالأبجدية الخطية في لاكيش (تل الدوير في جنوب

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ١، ترجمه جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، ١٩٨٢، ص ٧٤.

فلسطين) وبيت شمش (تل الرميله غربي القدس) وترجع إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م.

وكلما تقدم الزمن تزداد النقوش وفرة، فقد وصلت إلينا نقوش من المؤابيين والأدوميين والعمونيين، ثم من الفينيقيين، وهم الذين أدى توسعهم الاقتصادي والتجاري إلى انتشار لغتهم فيما وراء حدود وطنهم الأصلي، حيث كشف عن نص فينيقي طويل يبلغ حجمه واحد وتسعون سطراً، وذلك في موقع قرة تبى Kara Teppe شمال شرقي أدنة في آسيا الصغرى[1].

وكشف الأثاري البريطاني وولي فيما بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٩ على ثلاثمائة لوح مسماري مكتوب بالأكادية في تل العطشانة التي تقع على العاصي الأسفل ويتراوح زمن كتابتها في الفترة من ١٩٠٠ و١٢٠٠ ق. م.

ومن أهم الاكتشافات ما كشف عنه في مدينة أوجاريت، ففي عام ١٩٢٨ م بينما كان أحد الفلاحين يحرث حقله بالقرب من الميناء الأبيض شمال اللاذقية بنحو عشرة أميال، اصطدم المحراث بشيء صلب في باطن الأرض تبين أنه جزء من قبر خرب فأبلغ مصلحة الآثار في بيروت، وفي العام التالي ١٩٢٩ م قامت بعثة فرنسية بالحفر في الموقع الذي كان يغطي مدينة قديمة ويسمى هذا التل حالياً رأس الشمرة وهو يغطي خرائب مدينة أوجاريت.

وكشف في موقع أوجاريت على مقابر وأوان فخارية وتماثيل صغيرة وحلي وعظام حيوانية وألواح عليها نقوش مسمارية، وكتبت النصوص التي كشف عنها بلغات عدة منها الأكدية والمصرية والحيثية والحورية.

وتتناول هذه الوثائق موضوعات عدة، منها ما يتصل بأدب الملاحم والأساطير، ومنها ما يختص بأمور إدارية أو دبلوماسية أو سياسية أو قضائية.

---

(١) Obermann, J., New Discoveries at Kara Teppe, New - Haven, 1949.

وبجانب هذه المصادر يعتمد المؤرخ على المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم وبخاصة مصر وبلاد الرافدين وهما الدولتان الكبيرتان اللتان كانتا لهما صلة مستمرة بمنطقة آسيا وفلسطين التي تقع بينهما والتي اكتسحتها جيوشهما مرات عدة، وتتمثل المصادر المصرية في رسائل تل العمارنة وكذلك نصوص فراعنة مصر عن حملاتهم في آسيا.

وبالإضافة إلى هذه المصادر الأثرية والنصية، هناك العديد من الكتابات المتأخرة مثل كتابات يوسيفوس فلافيوس، وما كتبه فيلون الجبيلي Philo of Byblos عن تاريخ فينيقيا وكان ذلك حوالي عام ١٠٠ ق. م، إلا أن كتابه لم يصل إلينا بل وصلت إلينا فقرات منه في كتابات كل من يوسيبيوس أسقف قيسارية والفيلسوف فرفريوس.

وفيما يتصل بالمصادر الخاصة بالآراميين، فيلاحظ قلة المصادر المتخلفة عنهم، ولقد كشف عنها في عدد من المدن مثل جوزانا Guzana التي تقع على نهر الخابور، وقد ورد ذكرها في سفر الملوك الثاني وأشيعا وأخبار الأيام الأول، وهي اليوم تل حلاف، ومدينة سمأل، وهي قرية في الشمال الغربي من سورية على الطريق من أنطاكية إلى مرعش، ومدينة أرفد التي تقع شمال حلب، ولا يزال اسمها أرفد حتى الآن، ومدينة حماة.

وهناك كذلك المصادر المعاصرة في العراق القديم، فلقد سجلت النصوص المسمارية حركات الآراميين وضغطهم على حدود دول الرافدين، ويسجل العهد القديم صلات الآراميين بالشعب العبري في مراحل تاريخه المختلفة[1].

وسنتناول فيما يلي المعالم الرئيسية لتاريخ سورية القديم ونبدأ الدراسة بجغرافية سورية وسكانها.

---

(١) سبتينوموسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٦.

الفصل الأول

جغرافية سورية وسكانها

تقع سورية بين خطي عرض ٣١°، ٣٧° شمالاً وخطي طول ٣٢°، ٤٠° شرقاً، ويلاحظ أن الصفة البارزة لسطح الإقليم السوري تناوب الأراضي المنخفضة والأراضي المرتفعة بحيث تحاذي بعضها بعضاً، وتتجه من الشمال إلى الجنوب، ويمكن تمييز خمس مناطق طولية بها تقع بين البحر والبادية وذلك على النحو الآتي:

١ ـ السهل الساحلي:

يمتد على ساحل البحر المتوسط من مصر وحتى خليج إسكندرونة (إيسوس القديمة) وينحصر هذا الإقليم بين البحر والجبل، ويلاحظ أن القسم الشمالي من هذه المنطقة والذي يمتد من مونت كليموس إلى الكرمل توجد فيه فينيقيا ومدرجات الليفانت، أما القسم الجنوبي منه فهو يضم العديد من المدن والثغور مثل أرواد وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا.

ويقتصر السهل الساحلي على مجرد شريط ضيق عند سفح جبل لبنان لا تزيد سعته في بعض المواضع عن أربعة أميال وتقل أحياناً حتى لا تكاد تبلغ الميل الواحد أحياناً، وإن بلغت في القليل النادر كما هو الحال عند عسقلون عشرين ميلاً. ولا ترتفع الجبال ارتفاعاً تدريجياً في معظم الأحوال بل تكاد

---

(١) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٣١ ـ ٣٢.

تكون عمودية، وتكاد تلامس البحر أحياناً أو تـدخل فيـه كما هي الحـال عند مصب نهر الكلب إلى الجنوب من بيروت.

ويتميز هذا السهـل بخصوبتـه الشديـدة في جميع أجـزائه، وتجـري فيه العديد من الأنهار القصيرة السريعة الجريان مثل نهر إبراهيم (نهر أدونيس) إلى الجنوب من جبيل، ونهـر الكلب، ونهـر بيـروت، ونهـر الليـطاني بين صـور وصيدا.

والساحل بكامله من أكثر السواحل استقـامة في العـالم، فلا يـوجد فيـه خليـج نهـري عميق أو أي خليـج آخـر مهم إلا في الشمـال حيث خليـج إسكندرونة، ومن هذه المنطقـة وحتى حدود مصـر يكاد لا يـوجد على مسـافة ٤٤٠ ميلاً إلى ميناء يستحق الذكر.

ويتغيـر المظهـر الجغرافي فيمـا بين الكرمـل ووادي العريش والصحـراء الـرملية فيقـل ظهور الثغـور على الشـاطىء الـرملي حتى لا نجـد سـوى يـافـا وعسقلون وغزة ومن ورائها سهـول خصبة مثل سهل شارون وسهل شفيلة(٢).

٢ ـ سلسلة الجبال الغربية:

أمـا المنطقـة الثانية، فهي سلسلة الجبال الغـربيـة، وهي تشـرف على السـاحل السـوري وتبدأ بـالأمانـوس شمالاً، وتمتـد جنوبـاً إلى سينـاء، وأهم أجزائها جبال لبنان الغربية، وتشكل هذه المنطقة أول حـاجز للمـواصلات بين البحر وما يقع ورائه من الشرق ولا يمكن اختراق هـذا الحاجـز بصورة حقيقيـة إلا في الـطرفين الشمال والجنـوبي في الشمال عنـد خليج إسكنـدرونـة حيث الـطريق بين أمـانـوس وسهـول مـا بين النهـرين، وفي الجنـوب عنـد خليـج السويس، الذي يتم الاتصال بواسطته مع البحر الأحمر وبلاد العرب، وما عدا

(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١١.

ذلك، فإنه لا يمكن اختراق هذا الحاجز الجبلي إلا في شمال طرابلس، وشرق عكا وحيفا.

وإذا تتبعنا هذه السلسلة الجبلية من الشمال، فنجدها تبدأ بمرتفعات الأمانوس وهي عبارة عن إلتواء فرعي يمتد بين جبال طوروس، التي تفصل سورية عن آسيا الصغرى باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة الجبال السورية، وتحيط مرتفعات الأمانوس بخليج إسكندرونة فتشكل حاجزاً بين سورية وكليكية، وبارتفاع يصل إلى نحو ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر وفي الطرف الجنوبي من مرتفعات الأمانوس يشق نهر العاصي هذه المرتفعات ويخترقها نحو البحر. وتعبر هذه المرتفعات عدة طرق تمتد إلى أنطاكية وحلب وتمر بالممر الرئيسي وهو مضيق بيلان المعروف باسم «أبواب سورية».

وتتصل بمرتفعات أمانوس، جنوب مصب العاصي، مرتفعات أخرى تمتد حتى تصل إلى قرب اللاذقية، وتعرف باسم جبل الأقرع الذي يرتفع نحو ٤٥٠٠ قدم من سطح البحر ومن هناك تمتد إلى جوار اللاذقية حيث تعرف بجبال النصيرية (Bargylus) [١]، ثم تتابع سيرها إلى النهر الكبير الجنوبي، ويشكل هذا النهر الذي ينبع من جبال النصيرية الحد الفاصل بين هذه الجبال وبين جبال لبنان، كما أنه يكون الحدود السياسية الحالية بين لبنان وسورية.

وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعاً شبيهاً بالارتفاعات الألبية في جبال لبنان التي تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالي صور على مسافة ١٠٥ ميل، وتصل أعلى قمته في جبال لبنان حوالي ١١٠٢٤ قدماً (٣٣٦٠ متراً) عن سطح البحر وهي مسماة بالقرنة السوداء، وتقع إلى جوارها قمة نهر القضيب فهي أقل منها ارتفاعاً بحوالي مائة قدم، وتوجد في هذه القمة غابة الأرز

(١) Pliny, Natural History, Book. V, ch. 17 - 20.

القديمة، ويلي قمة نهر القضيب في الارتفاع جبل صنين الذي يقل عنها هو الآخر بحوالي مائة قدم، ويشرف جبل صنين على بيروت وخليج مار جرجس.

وتستمر السلسلة الغربية بعد القاسمين، في هضاب ومرتفعات الجليل الأعلى وتصل ذروتها في الجرمق، شمال صقر، حيث تبلغ ٣٩٥٣ قدماً(١٣٠٠ متراً تقريباً) وهي أعلى قمة في فلسطين، وتلي ذلك مرتفعات الجليل السفلي، ويبلغ ارتفاعها عند جبل طابور قرب الناصرة حوالي ١٨٤٣ قدماً (٥٧٥ متراً)، ثم تنتهي المنطقة الجبلية بسهل يعرف باسم مرج بن عامر الذي يفصل بين الجليل شمالاً والسامرة ويهودا جنوباً.

وتتمثل تلال السامرة التي تتخللها الأودية بجبل عيبال في الشمال، وبجبل جرزيم وهو جبل السامريين المقدس، وتنقل من هذه التلال بصورة تدريجية إلى هصبة اليهودية الكلسية الوعرة، ثم تنحدر هضبة اليهودية بتموجات عريضة نحو بئر سبع. وأطلق العبرانيون على هذه المنطقة الجنوبية القاحلة اسم «النقب» وتعني الأرض الملفوحة[1].

وعلى ذلك فإن فلسطين تعتبر امتداداً من الناحية الجغرافية للبنان، فالسهل الساحلي يمتد حتى يتصل بسهل شارون الذي يقع ما بين الكرمل وجنوب يافا حتى يتصل بساحل فلسطين، وأما المنطقة الجبلية فتستمر مرتفعاتها، وإن كانت أقل ارتفاعاً بشكل عام من مرتفعات لبنان، حتى تنحدر إلى منطقة يهوذا فتتحول إلى أرض متموجة تستمر إلى بئر سبع حيث منطقة النقب.

٣ ـ منطقة البقاع:

أما المنطقة الثالثة فهي منطقة البقاع التي تقع بين سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية وتعرف هذه المنطقة باسم المنخفض السوري، وهيَ عبارة

(١) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٤٠.

عن منخفض كبير يتراوح عرضه بين ستة وعشرة أميال ويمتد من جنوب نهرينا إلى خليج العقبة، ويروي هذا المنخفض في جزئه العلوي نهر العاصي، أما في الجنوب حيث ينبع العاصي، فيوجد السهل المعروف بسورية البقاع، وبه وديانه تقطعه إلى البحر في اتجاه صور وسهل الجليل متبعة نهر الليطاني. ويستمر الوادي جنوباً حتى وادي الأردن، الذي يبلغ طوله نحو خمسة وستين ميلاً، ويتراوح عرضه بين ثلاثة وأربعة عشرة ميلاً.

ويعتبر نهرا الأردن والعاصي أكبر مجريين مائيين في سورية، وذلك باستثناء نهر الفرات الذي لا يعتبر نهراً سورياً من حيث منبعه أو من حيث مجراه الكامل، فهو يمر في سورية الشمالية فقط. ويعد نهر الليطاني متمماً لمجرى نهر العاصي، وهو ينعطف غرباً في مجراه السفلي ويمر خلال طبقة من الحجر الجيري ويعرف باسم القاسمية حيث يصب في البحر ما بين صور وصيدا. ونظراً لجريان نهري العاصي والليطاني في سهل البقاع فإن الأراضي الواقعة حولهما تعتبر من أوسع أراضي الري وأحسنها في سورية، كما تشكل تربتها أنسب تربة صالحة للانتاج الزراعي، وإن استلزم ذلك من الإنسان بذل الكثير من الجهد نظراً لانخفاظ مجرى نهر العاصي بدرجة جعلت استخدام مياهه بسهولة أمراً متعذراً.

وقد تعرضت المنطقة الواقعة بين جبال لبنان الشرقية والغربية على مر العصور للزلازل والبراكين بسبب التفاوت الضخم بين انخفاض بعض أجزائها تحت مستوى سطح البحر ووجود الجبال الشديدة الارتفاع على جانبيها، ومن هذه الزلازل التي تعرضت لها سورية، زلازل أنطاكية خلال القرون الستة الأولى الميلادية[1].

---

(١) Semple, E. C., The Geography of the Mediterranan Region, London, 1932, P. 42.

٤ ـ سلسلة الجبال الشرقية:

تشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة في تضاريس سورية، وتبدأ من جنوب حمص وتسير موازية للجبال الغربية على طول واحد وارتفاع واحد تقريباً، ثم تنحدر من حرمون «جبل الشيخ» نحو هضبة حوران ومنطقة التلال في الجولان. حيث تستمر في شرق الأردن في تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة، وتنتهي في جبل سعير (أووم) جنوبي البحر الميت.

ويقسم مجرى بردى ووادية سلسلة جبال لبنان الشرقية إلى قسمين منحدرين، قسم شمالي مقفر من الحياة، وجنوبي حيث يوجد جبل حرمون وهو من أعلى قمم سورية إذ يصل ارتفاعه ٩٣٨٣ قدماً تقريباً (حوالي ٢٨٦٠ متراً) وتكثر في منحدره الغربي القرى.

وينبع نهر بردى في مرتفعات وادي الزبداني ويتجه نحو الشرق حيث يروي جزءاً كبيراً من الأراضي السورية، ويتفرع بعد الغوطة إلى خمسة جداول تروي شوارع دمشق ومنازلها ويمتاز سطح هضبة حوران[1]، شرقي الجولان وغربي اللجا وجبل الدروز، بأنه بركاني في قسمه الأعظم وفيه صخور بازلتية، وتربته غنية خصبة، وتمتد أراضي حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقي في صحراء الحماء إلى تلك الحقول الحجرية في الحجاز المعروفة باسم «حرات».

---

(١) أطلق عليها في العصر الكلاسيكي Auranitis و وأطلق عليها في التوراة باشان، وجورانو عند الأشوريين التي تفيد معنى «الأراضي المجوفة» وتقتصر حوران في المعنى المحدود للكلمة على السهل الواقع شرقي الجولان وغرب اللجا وجبل الدروز، وفي المعنى الواسع فإنها كانت تشمل هذه المناطق الثلاث بالإضافة إلى عجلون.

أنظر فيليب حتي: المرجع السابق، ص ٤٥ حاشية (١).

٥ ـ الصحراء السورية:

أما المنطقة الخامسة، فهي الصحراء السورية، وهي تمتد بين وادي الفرات والمنخفض السوري الكبير وهي تفصل بلاد الشام عن العراق كما تفصل بين طرفي التلال الخصيب، ويعرف القسم المجاور للعراق «بادية الجزيرة» أو «بادية ما بين النهرين». أما القسم الجنوبي فكان يدعى باسم «بادية العراق» أو «السمادة» وأما القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام فيعرف باسم الحماد، وسطحه حجري في بعض أجزائه ورملي في أجزائه الأخرى ويكسوه العشب في الربيع.

وتؤلف البادية السورية العراقية مثلثاً كبيراً ترتكز قاعدته على خليج العقبة في الغرب والكويت في الشرق، بينما تصل قمته منطقة حلب في الشمال. ويبلغ عرض هذه البادية في أوسع مناطقها ٨٠٠ ميل. وعاش الرعاة الرحل على المراعي التي تغطي هذه المنطقة في الربيع، وكانت تطرقها منذ أقدم العصور آلاف القوافل التي تتخذ طريقها من حلب ودمشق وبترا إلى بابل والخليج العربي لتبادل المحاصيل ونقل المتاجر. كما شيدو بعض المدن مثل تدمر الواقعة على الطريق عبر البادية بين الشرق والغرب.

المناخ:

تكاد تظهر في مناخ الإقليم السوري مميزات مناخ إقليم البحر المتوسط، والصفة السائدة فيه تناوب فصل ممطر يبدأ من نوفمبر (تشرين الثاني) وحتى نهاية مارس (آذار) مع فصل جاف يشمل بقية السنة. وعند هبوب الرياح الغربية السائدة على البحر المتوسط تمتلىء بالرطوبة، وعندما تتقابل مع جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى في فلسطين ترتفع، وبارتفاع الهواء فإنه ينحدر وتسقط بعض محتوياته في شكل أمطار، وكان لذلك أثره في أن المنطقة الساحلية على السفح الغربي لجبال سورية تتلقى أكبر كمية من

الأمطار، وتتناقض كمية الأمطار وفقاً لدرجة الابتعاد من الغرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب.

الثروات الطبيعية:

توجد ثلاث مناطق متباينة للنبات تقع جنباً إلى جنب في الأراضي السورية، فالسهل الساحلي والسفوح المنخفضة للمرتفعات الغربية تنمو فيها النباتات المعتادة في سواحل البحر المتوسط مثل القمح والشعيروالدخن (نوع من الذرة) وبعض أنواع الخضر كالخس والبصل والثوم والحمص والفول والتوابل، والفواكه مثل التين والزيتون والتمر والعنب. وأهم الأشجار التي تنمو في هذه المنطقة هي السنديان وصنوبر بلاد البحر المتوسط.

وتنمو في المنطقة الثانية التي توجد في أعالي لبنان الغربي والشرقي الأشجار القوية مثل الشوح والأرز، أما المنطقة النباتية الثالثة والتي يمثلها حوض التصدع وهضاب سورية الشرقية، فإنه نظراً لقلة الأمطار فإنه لا يعيش فيها سوى الشجيرات الخشنة[1].

ولقد حظت شجرة الزيتون بانتشار كبير نظراً لأنها لا تتطلب إلا القليل من العناية وهي تمثل أحد مصادر الغذاء للطبقات الدنيا، وكان يستخدم زيت الزيتون في الغذاء وفي الإضاءة وفي صناعة الروائح والأغراض الطبية، واستخدم لب الزيتون بعد عصره في إطعام الحيوانات.

أما أشجار الأرز، فهي من أشهر أشجار لبنان إن لم تكن أشهرها على الإطلاق، وقد ورد في العديد من أسفار التوراة الإشادة به وبصفاته[2] وقد استخدمت أخشاب أشجار الأرز على نطاق واسع في منطقة الشرق الأدنى

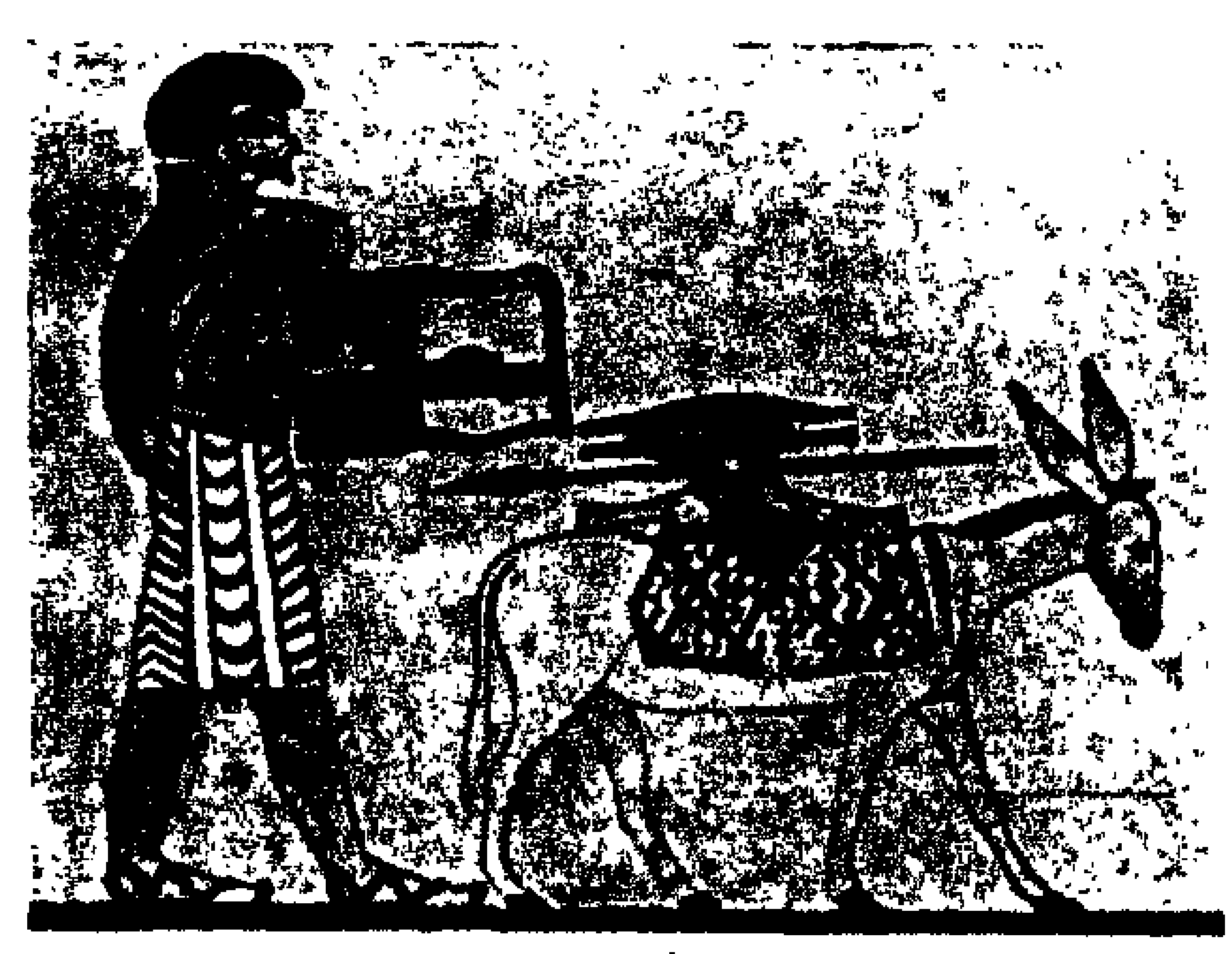
---

(١) Swingle, W. T., «Trees and Plants We Owe to Asia», in Asia, Vol. L III (1943), P. 634.

(٢) أنظر: أرميا ٢٢: ٢١٤ سفر الملوك الثاني ١٤: ٩، أشعيا ٤٤: ١٤ ـ ١٥.

القديم في مصر وبلاد الرافدين، حيث استخدم في بناء السفن وكذلك في التشييدات المعمارية.

وفيما يتصل بالثروة الحيوانية، فمن أهم الحيوانات التي ظهرت في الإقليم السوري الأغنام والماعز والخيل والإبل والحمير والبغال والبقر والكلاب والقطط والخنازير. ويوضح شكل رقم (١٨) أحد الساميين مع حماره.



شكل ١٨
منظر يوضح أحد الساميين مع حماره

خطوط المواصلات:

ونختتم حديثنا عن المظاهر الجغرافية والثروات الطبيعية في الإقليم السوري بالحديث عن خطوط المواصلات في هذا الإقليم سواء البحرية أو البرية.

وكان الطريق البحري بصفة خاصة من أنسب الطرق وأكثرها استعمالاً من سوريا إلى مصر منذ أقدم الأزمنة، فقد كانت مزايا الموانىء الفينيقية أعظم في نظر كثير من التجار والرحالة من أن يتخلوا عنها ويجازفوا بمجابهة الأخطار في صحراء سيناء التي تعترض الطريق البري إلى أفريقيا، ونظراً لفقر فلسطين في الموانىء فقد اتجهت معظم التجارة البحرية إلى استخدام الموانىء الفينيقية[1].

وفيما يتصل بالطرق البرية التي ربطت الإقليم السوري بعضه ببعض وكذلك بمنطقة الشرق الأدنى القديم فلقد ساعد على اتصال سورية بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجي الطريق الدولي العظيم، الذي ساعد كذلك على تعرض سورية لتأثيرات عالمية، ويمكن تتبع هذا الطريق الدولي من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز في سيناء، كما يتفرع إلى أراضي البخور في جنوب الجزيرة العربية. ومن سيناء يتجه الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر وهنا يتفرع إلى طريقين، يتجه الواحد إلى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانىء السورية ويسير الآخر إلى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الأردن في واديه الشمالي ثم يتجه رأساً إلى دمشق في الشمال الشرقي. ويتفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر، ويربط مركز سورية مع قلب بلاد الرافدين الذي تمثله بالتوالي بابل والمدائن وبغداد. أما الطريق الرئيسي، فإنه يتجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقي بواسطة ممر الزبداني ويصعد عبر سورية المجوفة متبعاً نهر العاصي وقادش إلى شمال سورية. ويتفرع في سيره عند قادش باتجاه الغرب ليصل إلى البحر المتوسط بواسطة النهر الكبير. وبعد أن يتفرع في شمال سورية إلى البحر بطريق الأبواب السورية في جبل أمانوس، ويتفرع أيضاً إلى الشمال الغربي بطريق الأبواب الكيليكية ليصل آسيا

---

(١) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق، ص ٣٩ ـ ٤٠.

الصغرى فإنه يتحول إلى الشرق بطريق الجسر السوري نحو الفرات ومن هناك نحو الدجلة وجنوباً إلى الخليج العربي.

وسلكت بعض أجزاء هذا الطريق الدولي العظيم القوافل التجارية والجيوش المحاربة والأفكار المتباينة، والتي أسهمت في إنتاج تلك الحضارة المركبة المعروفة بالحضارة السورية، والتي كانت مزيجاً من عناصر وطنية وأخرى من حضارات البلاد المجاورة، وكان العنصر الوطني نفسه يمثل رواسب تركتها هجرات وغزوات لا عداد لها(١).

وخلال تاريخ سورية القديم، لم تكد تشهد فترة واحدة كانت فيها كلها دولة مستقلة بمفردها تحت حكم جماعة من حكامها الوطنيين، وكانت وحدتها تفرض عليها دائماً بإرادة سلطة خارجية، وفيما عدا ذلك فإنها كانت عادة إما جزء من دولة أكبر أو مجزأة بين دول وطنية أو أجنبية، ولم تكن سورية نفسها المركز السياسي إلا في عهد المملكة السلوقية بعد ٣٠١ ق. م، فالواقع أن وضع سورية الطبيعي كان يميل إلى إحداث التنوع أكثر من الوحدة(٢).

وكانت سورية خلال تاريخها مسرح نزاع متواصل بين البدو والحضر المستقرين، والجزء الأكبر من تاريخ سورية يمثل تلك الموجات المتتالية التي يطغى بها سكان البادية على سكان الحضر إما بطريق التغلغل السلمي أو بالقوة لاحتلال الأراضي الزراعية، وتمتع سكان البادية بميزة قلة ممتلكاتهم وسرعة حركتهم وشدة احتمالهم.

وتعددت الهجرات التي قام بها البدو الساميون إلى سورية، ويمكن تمييز العديد من هذه الهجرات لكثافتها وما أحدثته من تغييرات، بينما كانت هناك

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ٦١.

هجرات أخرى كثيرة لم تغير شيئاً من الأحوال السياسية أو الاجتماعية السائدة.

وليس لدينا وثائق يمكن الاعتماد عليها في معرفة كيفية دخول الساميين العرب إلى سورية أو تاريخ دخولهم بالضبط، ومع ذلك فهناك من الأدلة ما يشير إلى أن الساميين كانوا موجودين في المنطقة قبل الألف الثالث ق. م، ومما قد يؤيد هذا الفرض أن جبال وأنهار المنطقة لها أسماء سامية مثل لبنان وشريان والكرمل والأردن واليرموك ويبوق وأرنون وأريحا وبيت شان ومجدو[1].

ويذهب بعض العلماء إلى أن الفترة بين الموجة والتي تليها تبلغ زهاء ألف عام، وفي نهاية الألف الرابع وأوائل الألف الثالث ق. م، أخذت الهجرات من الجزيرة العربية تتدفق بصورة منتظمة على الشرق الأدنى وتؤثر فيه، وكانت سورية محطاً لهذه الهجرات، وكان نصيبها من الموجات السسمية أكثر من غيرها حيث تعرضت للعديد من هذه الهجرات، وكانت الموجة الأولى هي موجة الأموريين، ومع الأموريين أو في أعقابهم تقدمت موجة أخرى تحمل اسم الكنعانيين أو الفينيقيين، وجاء بعدهم الأراميين ثم العبرانيين، وفي حوالي القرن الخامس ق. م هاجر الأنباط وبعدهم اللخميين والمنازرة في العراق والغساسنة في الشام.

وكانت آخر هذه الهجرات السامية وأعظمها، هجرة القبائل العربية في القرن السادس الميلادي إلى الهلال الخصيب والعراق ومصر وشمال أفريقيا، وهي هجرة لم يكن لها دوافع الهجرات السابقة، فهي لم تكن بدافع اقتصادي، وإنما بدافع إيمان عميق بدينهم الحنيف والعمل على نشر الدين

---

(١) محمد عبد القادر محمد: الساميون في العصور القديمة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٩٠ - ١٩١.

الإسلامي، حيث تمكنت بتوفيق من الله عز وجل أن تنشر راية الإسلام في ربوع المشرق العربي وغربه.

وسنتناول فيما يلي بشيء من التفصيل تعريف الساميين والموطن الأصلي الذي جاءوا منه إلى سورية.

الساميون وموطنهم الأصلي:

ينتسب الساميون حسبما جاء في سفر التكوين إلى سام بن نوح عليه السلام[1]، وقد أشار إلى تسمية «سامي» لأول مرة في العصور الحديثة المستشرق الألماني «أوجست لدوج شلوتر» عام ١٧٨١ م[2].

وبدأ العلماء بعد ذلك يستعملون كلمة «الساميين» على أساس أنها تعني جنساً بشرياً واحداً يتميز عن غيره بصفات مشتركة بينه، وهذه الصفات لغوية في المقام الأول، فتتشابه اللغات السامية فيما بينها تشابهاً كبيراً لا يمكن تفسيره إلا بافتراض أصل مشترك بينها، فهي تشترك فيما بينها في وجود فعل ثلاثي كمصدر أساسي ووجود زمنين للفعل هما الماضي والمضارع، وتصريف الفعل يتبع نفس الأسلوب، كما تتشابه فيما بينها في الضمائر الشخصية والأسماء التي تدل على القرابة[3].

وقسم العلماء اللغات السامية إلى مجموعتين، الأولى وتسمى المجموعة السامية الشمالية وتشمل اللغات العبرية والفينيقية والأرامية والأشورية والبابلية والكنعانية، والأخرى وتسمى المجموعة السامية الجنوبية، وتضم اللغات العربية والحبشية، إلا أن هناك من يقسمها إلى أقسام ثلاثة: أولها القسم

---

(١) تكوين ١٠: ١، ٢١.
(٢) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق، ص ٢٣٩.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٤.

الشرقي ويضم اللغات البابلية والأشورية والكلدانية والأرامية، وثانيها: القسم الغربي ويضم اللغات الكنعانية والأخلامية والفينيقية والأرامية والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والمؤابية والأمورية، وثالثها: القسم الجنوبي وينقسم بدوره إلى اللغة العربية، وتضم العربية القديمة والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية والعدنانية المضرية، واللغة الحبشية والأمهرية والهروية[1].
ورغم أن هناك من العلماء من يعترض على تسمية «السامية» على أساس أنها تسمية لغوية وليست جنسية، وأنها لا تعتمد على أسس علمية أو عنصرية صحيحة، بل اعتمدت على التقسيم الذي اتخذته التوراة للأجناس البشرية، فإنه مقبول على أساس شيوعه للدلالة على شعوب ربطت بين أهلها روابط التشابه في الملامح العامة، والتشابه في تأثيرات البيئة والمناخ، وروابط اللغة، والعقائد والتقاليد.

ويرى سبتينو موسكاتي أن الشعوب السامية تؤلف في لغتها كتلة واحدة لا باجتماعها في صعيد جغرافي واحد، والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها في أصل حضاري تاريخي واحد أيضاً، ومن هنا لا يجوز لنا ألا نقصر الصفة السامية على الميدان اللغوي، وأن نتحدث أيضاً عن الساميين وعن الشعوب والحضارة السامية[2].

وفيما يتصل بالموطن الأصلي للساميين، فلقد تشعبت آراء العلماء حول تحديد الموطن الأول للساميين الذي خرجوا منه إلى مناطق الشرق الأدنى القديم. فهناك من يرى في بلاد النهرين هذا الموطن الأول، ويعتمدون في تأييد رأيهم هذا على أساس وجود العديد من الألفاظ التي تشير إلى مسميات زراعية وحيوانية تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة، وهي مسميات

(١) حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، الإسكندرية، ١٩٧١، ص ١٧ ـ ٢٥.
(٢) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق، ص ٤٩.

صميمة في بلاد الرافدين. إلا أن هذا الرأي يجابه بالكثير من الاعتراضات والتي منها ما يشير إليه بعض العلماء من أنه من الخطأ الاعتماد على الموازانات اللغوية في إثبات حقائق علمية لا يعتمد أصحابها فيها إلا على مجرد دراسة كلمات وإجراء موازانات بين ألفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق(1). كما أن الموافقة عليها يتطلب أن نتصور انتقال الساميين من منطقة خصبة إلى بلاد صحراوية قاحلة كبادية الشام والجزيرة العربية، وهو أمر غير مقبول لأنه يفترض انتقال شعب من طور الحياة الزراعية على ضفاف نهر إلى حياة البداوة وذلك عكس ما تقتضي به النظم الاجتماعية بل ويخالف المنطق والمعقول كذلك.

ويتجه الرأي الثاني إلى اعتبار أرمينية الموطن الأصلي للساميين ويعتمد أصحاب هذا الرأي في تأييد رأيهم على ما ورد في سفر التكوين(2) وجعل من «أرفكشاد» جد «عابر» واحدا من أبناء «سام» ويرون أن منطقة «أربختيس» Arrapachits التي تسمى الآن «ألبك» على الحدود بين أرمينية وكردستان قد سميت باسمه، ويعتقدون أن هذه المنطقة قد سكنها الجنس الأصلي الذي انحدر منه الساميون والهندو أوروبيون. ويؤيدون رأيهم كذلك بالتشابه الكبير بين الأنف الحيثي والأنف العبراني(3).

إلا أن هذا الافتراض قد هجر من العلماء، حيث أن الأصل الشمالي للساميين أصبح موضع شك، أما عن التشابه بين الأنف الحيثي والعبراني فيرجع المؤرخون ذلك إلى شدة امتزاج اليهود مع الحيثيين عن طريق الزواج أو غيره(4).

---

(1) أنظر: Semitic Languages, in Encylopaedia Britannica, 1911, Vol. 24.

(2) تكوين: ١٠: ٢٢، ٢٤، ١١: ١٢.

(3) أنظر: سبتينو موسكاتي: المرجع السابق، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(4) Breasted, J. H., Ancient Times, N. Y., 1916, PP. 218 - 219.

ويرى البعض في أرض آمور التي تشمل بلاد الشام ومنطقة الفرات الموطن الأول للساميين، ويعتمد أصحاب هذا الرأي[1] على مقارنة الأساطير والمأثورات الشعبية، وأن الأسرة البابلية الأولى قد نزحت إلى العراق من الغرب وذلك من إقليم آمور، ولكن هذه النظرية لا تستند في الواقع على أدلة حضارية أو آثارية، أو أدلة قوية تدعمها.

وهناك رأي رابع يتجه إلى اعتبار أفريقية المهد الأول للساميين، فيتجه البعض إلى أنهم من أفريقية الشرقية ويؤيدون ذلك بالارتباط بين اللغات السامية والحامية والتشابه الجسماني الكبير بين الحاميين والساميين (وبخاصة في جنوب الجزيرة العربية)[2]. إلا أنه يلاحظ أن أصحاب هذا الرأي لم يستبعدوا أن تكون الجزيرة العربية ذلك الموطن الأصلي. ويتجه البعض إلى أن الموطن الأصلي للساميين كان في شمال أفريقيا أو شمال غربها وليس في شرقها.

ويوجه إلى هذه النظرية العديد من أوجه النقد، ولعل من أهمها حقيقة اختفاء اللغات السامية من أفريقيا بحيث لا تعود إلى الظهور إلا في المستعمرات الفينيقية على الساحل الشمالي، ثم مع الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، فلو كانت أفريقيا هي المهد الأول للساميين ما اختفت لغاتهم جميعها بهذا الشكل ولهذه الفترة الطويلة[3].

ويتجه معظم العلماء[4] إلى الاعتقاد بأن الموطن الأصلي للساميين كان

---

(١) أنظر: Clay, A. T., Amurru, The home of the northern Semities, 1909.

(٢) أنظر: Encyclopaedia Birtannica, 1911, Vol. 24, PP. 618 - 620.

(٣) محمد بيومي مهران: الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي، الرياض، ١٩٧٤.

(٤) أنظر: King, L. W., History of Sumer and Akkad, London, 1923, P. 119., Meyers, J. L., in The Cambridge Ancient History, I, 1923, P. 38.

في الجزيرة العربية، ويرجع ذلك إلى أن بلاد العرب في معظمها أراضي صحراوية يحيط البحر بأطرافها، ما عدا القسم الشمالي، فإذا زاد سكانها وعجزت عن إمدادهم بالغذاء الضروري، كان من الطبيعي أن يرحل الفائض من السكان إلى المناطق الخصبة من منطقة الهلال الخصيب ومصر[1].

وتعددت آراء الباحثين حول المنطقة التي خرج منها الساميون في الجزيرة العربية فهناك من يراها في أواسط الجزيرة العربية ولا سيما نجد، ومن يراها في جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها، ومن يراها في الأقسام الجنوبية من الجزيرة العربية.

ومن الأدلة التي تؤيد كون الجزيرة العربية الموطن الأصلي للساميين، أن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء تجعل سكانها الرعاة البدو يتجهون إلى التدفق على المناطق الزراعية المحيطة بالصحراء، حيث يستحيل الهجرة من مناطق وافرة الخيرات كثيرة الخصب كالعراق إلى بلاد صحراوية كثيراً ما يشغلها الجفاف، أو من حياة الحضر والاستقرار إلى حياة البداوة والارتحال، فمن الطبيعي أن الهجرات تتم من مناطق فقيرة جدباء إلى مناطق خصبة وافرة الخيرات، ولما كان من الثابت أن حياة الساميين الأولى كانت بدوية، فمن الراجح أن يكون موطنهم الأصلي صحراوياً، ويؤيد ذلك أيضاً العديد من الأدلة اللغوية والتاريخية والجغرافية ووحدة التفكير واتحاد العقلية والاشتراك في نوع من الخيال عند جميع الأمم السامية واصطباغ كل ذلك بصبغة واحدة أصلها وحي الصحراء وقوامها حياة البداوة، وأن الشعوب التي تحضرت في أطراف الجزيرة ظلت محتفظة بنوع التفكير والخيال.

ويضاف إلى ذلك أيضاً، ما يذكره الساميون القدامى أنفسهم من أنهم

Philby, H. B., The Background of Islam, Alexandrai , 1947, P. 10. (١)

هاجروا من جزيرة العرب، وظهر ذلك على لسان سرجون الأول الأكدي، وقال ذلك المصريون حين روى قدماؤهم أنهم جاءوا من الشرق، ومن الجنوب الشرقي، وأنهم علموا الحضارة لمن كانوا في البلاد وأخضعوها لسلطانهم، ويصفون الطريق الذي جاءوا منه وصفاً غامضاً لا نعرف عنه شيئاً على وجه التحقيق في بدايته، ولكنهم استخدموا الطريق الموصل بين البحر الأحمر والنيل ماراً بوادي الحمامات بعد ذلك، وقد ظل هذا الوادي إلى آخر عهد الفراعنة يتمتع بشيء من التقديس[1].

كما أشار الفينيقيون إلى أنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية، وأنهم وصلوا أولاً إلى بلاد العرب الصخرية في شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم النقب ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل إلى لبنان وسورية، وفي ذلك يشير الجغرافي «أسترابون» في كتابه السادس عشر إلى أن مقابر جزر البحرين في الخليج العربي تتشابه ومقابر الفينيقيين، وأن سكان هذه الجزر يذكرون أن أسماء جزائرهم أسماء فينيقية، وأن في مدنهم هياكل تشبه الهياكل الفينيقية.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة في هذا المجال أن مقابر البحرين تشبه المقابر التي كشف عنها في نجد، وأدى ذلك إلى الاعتقاد بأن الفينيقيين قد خرجوا من نجد ومنها إلى سواحل الخليج العربي حيث استقروا لبعض الوقت ثم هاجروا منها إلى الساحل الفينيقي.

هذا وهناك كذلك العديد من أسماء المدن في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامي مثل مدينة «صور» الموجودة على ساحل عمان، ومدينة «جبيل» الموجودة على ساحل الأحساء، وكذلك مدينة «أرواد» وهو الاسم القديم لجزيرة المحرق.

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ المدن الفينيقية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٣٥.

وعلى ذلك فقد خرجت الهجرات من شبه الجزيرة العربية في موجات متتابعة نحو سورية والهلال الخصيب، وسنقوم فيما يلي بدراسة تاريخ سورية القديم، ونبدأ بعصور ما قبل التاريخ .

الفصل الثاني

عصور ما قبل التاريخ

عثر في الإقليم السوري على العـديد من الأدلـة الأثريـة التي تنتمي إلى عصـور ما قبـل التاريـخ بدءاً من العصـر الحجري القـديم بـأقسـامـه الثـلاث (الأسفـل، والأوسط، والأعلى) ثم العصـر الحجـري المتـوسط، فـالعصـر الحجـري الحـديث، ثم عصـر النحـاس والحجـر، فعصـور مـا قبـل وقبيـل الأسرات.

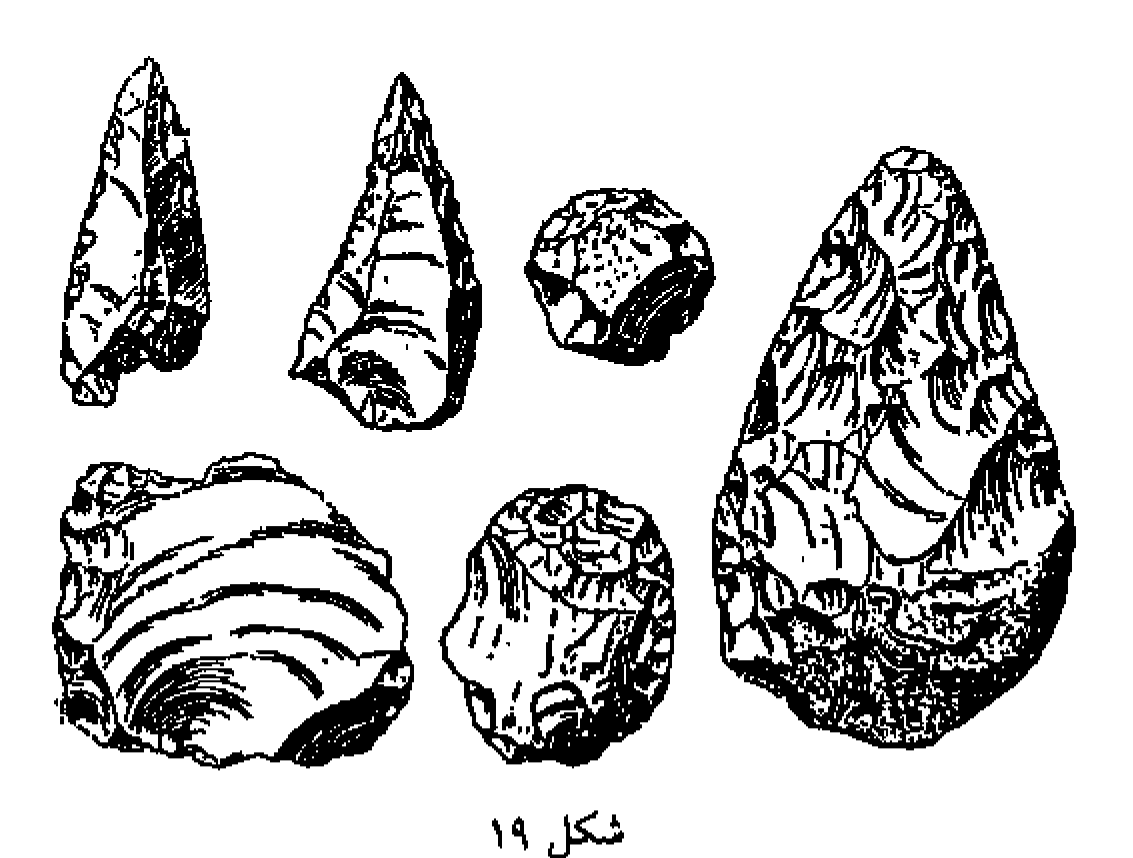
١ ـ العصر الحجري القديم:

وفيما يتصل بالأدلة المتصلة بالعصر الحجـري القديم، فيـلاحظ أنه قـد عثر على آثار ترجع إلى العصر الحجري القـديم الأسفل، في كهـوف عدلـون التي تقع بين صيدا وصور، وفي الكرمل وأم قطفة شمال غـرب البحر الميت، والـزطية شمـال غرب بحيـرة طبريـة، ورأس الشمـرا، وهي عبـارة عن أدوات وأسلحـة من قطع الصـوان نحتت بشكل خشن أو رققت بصـورة غير منتـظمة، وكانت تستخدم كفؤوس يدوية أو مكاشط أو سواطير. (شكل ١٩).

ويلاحظ أن أقدم أدوات حجرية عثـر عليها في سـورية تـوجد في مـوقع جسـر بنات يعقـوب في الجليل الأعلى وذلـك في مجـرى نهـر الأردن، حيث أجريت الحفائر بهذا الموقع في الفترة من ١٩٣٣ ـ ١٩٥٠ م[١]، ويتكون هـذا

---

(١) Stekelis, M., The Implementi ferous Beds of The Jordon Valley, 4 th International Congress Of Pre historic and Protohistoric Studies, Madrid, 1954, P. 391 F F., Zaragoza, 1956.



شكل ١٩

بعض الأدوات الحجرية من العصر الحجري القديم

الموقع من خمس طبقات، عثر في أقدمها وهي الطبقة الخامسة على أعداد ضخمة من الفؤوس اليدوية المصنوعة من البازلت، وعثر معها على عظام لفيل، وكان لذلك أهميته الكبرى.

ولم يعثر على بقايا بشرية تمثل سكان هذا العصر، وإن كان فيليب حتى يميل إلى أن سكان سورية في هذا العصر كانوا نوعاً بدائياً غير متميز من الإنسان الأبيض، ولا تزال حضارته مجهولة، ويذكر أنهم كانوا يعيشون في بعض الأحيان على الأقل في الكهوف لوقاية أنفسهم من المطر والحيوانات المفترسة، ومن الأعداء[1].

ولقد عثر على الآثار المتعلقة بالعصر الحجري القديم في كهوف في جبل الكرمل، وفي جنوب الناصرة، وفي شمال غرب طبرية، وقد تمكنت

---

(١) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٩.

إحدى الباحثات وهي الآنسة جارود[1] من الكشف عن بعض الهياكل العظمية في كهفين من الكهوف بجبل الكرمل، وكذلك في كهف يقع جنوب الناصرة وآخر في شمال غربي طبرية[2].

ودفنت الجثث دون اتجاه محدد، فقد دفن بعضها على الظهر أو الجانب أو الوجه ولكن كانت دائماً الأرجل منثنية، وقد عثر على أحد هذه الأجساد وقد أمسك المتوفي بخطاف في ذراعه بعظام فك خنزير بري، ويتجه الباحثين إلى الاعتقاد بأنها تمثل قرابين.

ويتضح من دراسة هذه الهياكل أن إنسان هذا العصر كان خليطاً من السلالات التي تمثل إنسان نياندرثال وأنواع أخرى أرقى منه تكاد تشبه الإنسان الحديث، وعلى ذلك فإنها تشكل على ما يظهر حلقة هامة في تطور الإنسان وتجعل من هذه المنطقة في الشرق الأدنى مسرحاً لتكوين نوع متوسط بين الإنسان البدائي والإنسان الحديث، ومن المحتمل أن إنسان هذه الحضارة كان يأكل اللحوم البشرية إذ تشير العظام البشرية المكسرة بمهارة لاستخراج المادة المخاعية التي طمع فيها الإنسان، إلى وجود عادات تتصل بأكل اللحوم البشرية ويرجع فيليب حتى أن يكون الضحايا من الأعداء اللذين يقعون في الأسر، أو من الأقارب الذين أصبح وجودهم غير مرغوب فيه وقد يكون بعضهم من الأشخاص الذين ماتوا ميتة طبيعية[3].

---

(١) Garrod, D. A. E., and Bate, D. M. A., The Stone Age of Mount Carmel, vol. I, Oxford, 1937, ch. 8.

(٢) أنظر: Turville - Petre, F., and Keith, A., Researches in Prehistoric Galilee, 1925 - 1926, and a Report on the Galilee Skull, London, 1927., Howell, F. C., «Upper Pleistocene Men of the Southwest Asian Mousterian» in Hundert Jahre Neandertaler, ed. G. R. von Koenigswald (Utrecht, 1958), P. 185 F F.

(٣) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ١١.

وفي خلال الدور الأخير للعصر الحجري القديم، وهو العصر الحجري القديم الأعلى، الذي دام في سورية فترة طويلة، فقد عثر على آثاره في كهوف أنطلياس ونهر الكلب، وفي كهف بالقرب من بحيرة طبرية. وعثر في بعض هذه الكهوف على بقايا هياكل عظمية لحيوانات مثل الضبع والكركدن والثعلب والماعز والغزلان، كما عثر فيها كذلك على بقايا بشرية. وأصبحت الأدوات الحجرية التي استخدمها الإنسان في هذا العصر أقل حجماً من سابقتها، ويشير ذلك إلى أن الإنسان قد بدأ في تركيب أدواته وأسلحته في مقابض خشبية أو عظمية حتى أصبحت قسماً من آلة مركبة، إلا أنه لم يتبق لنا أية بقايا خشبية، وذلك نظراً لسرعة تلفها بينما اكتشف العظام التي يرجح أنها كانت تستعمل لهذا الغرض (شكل ٢٠). ومن المحتمل أن الإنسان في هذه المرحلة قد توصل إلى معرفة النار واستخدامها في الطهي.

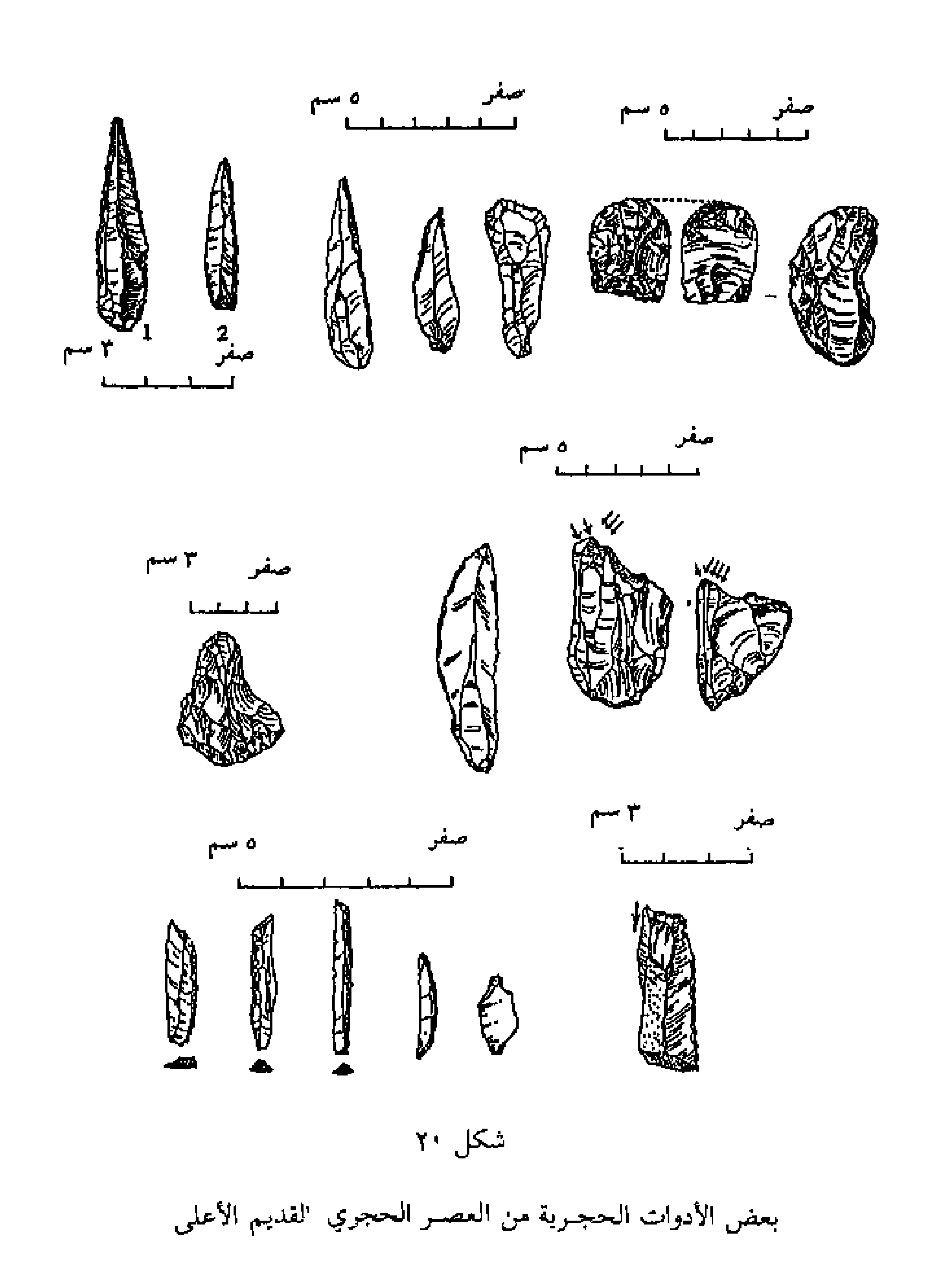
العصر الحجري المتوسط:

يعتبر هذا العصر مرحلة انتقال بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث واستمرت هذه الفترة نحو ستة آلاف سنة، اعتباراً من حوالي عام ١٢,٠٠٠ ق. م. ولم يقتصر الإنسان في هذا العصر على صقل الصوان والبازلت وسائر المعدات والأسلحة الحجرية بحيث جعلها أكثر فعالية بالنسبة لأغراضه، ولكنه زيادة في ذلك استغل للمرة الأولى مواد بيئته لدرجة تستحق الذكر. وتمثل هذا العصر حضارة تعرف باسم الحضارة الناطوفية في فلسطين، والذي سمي كذلك باسم وادي النطوف في شمال غربي القدس حيث نقبت الآنسة جارود في عام ١٩٢٨ في كهف الشقبة، واكتشفت بعض عناصر الحضارة النطوفية فيما بعد في مغارة الوادي وغيرها من المواقع (١).

---

(١) أنظر:

= Garrod, D. A. E., «The Natufian Culture: the Life and Economy of a Meso-



شكل ٢٠

بعض الأدوات الحجرية من العصر الحجري القديم الأعلى

= lithic People in the Near East», In Proc. Brit. Acad, vol. 43 (1957), P. 211 F F.,

Neuville, Rene., Le Paleolithique et Le Mesolithique du Desert de Judee, Mem 24, Paris, 1951.

ولقد بدأت الحضارة النطوفية في أول العصر الحجري المتوسط ودامت حتى الألف السادس قبل الميلاد. وكان القوم الذين عاشوا في عهدها من عرق أقصر قامة من العرق الذي عاش في عهد الحضارة السابقة، كما أنهم نحاف الجسم مستديري الرؤوس يشبهون إنسان عصر الحجر والنحاس الذي وجدت آثاره في جبيل (بيبلوس) والمصريين الذين عاشوا في عصر ما قبل الأسرات. وبالرغم من أن الحياة الحيوانية في العصر النطوفي كانت من النوع الحديث بصورة عامة، فإن هناك فروقاً هامة بينها وبين الحياة الحيوانية اليوم. فقد كانت بقايا الغزلان كثيرة ولكنها من نوع الإيل وهو نادر اليوم ويدل على وجود أحوال الحر والجفاف. والضبع كان مرقطاً حينذاك من النوع الذي نجده فقط في جنوبي الصحراء الكبرى اليوم. والقنفذ كان يختلف تمام الاختلاف عن النوع القصير الأذنين الموجود حالياً، وقد تكون الأحوال الإقليمية سبباً في اختفاء بعض الحيوانات مثل الحصان والوعل الأحمر فيما بعد[1].

وقد عثر في هذا الموقع على آثار في غاية الأهمية تمثل النقلة من الجمع والالتقاط إلى إنتاج الطعام، فهي تشمل مرحلة جمع الطعام من ناحية، أي آثار الصيد، وآثار بداية الانتقال نحو الاستقرار من ناحية أخرى، فهناك الأدوات الحجرية ورؤوس السهام وغيرها من آثار العصر الحجري القديم الأعلى، وبالإضافة إلى المناجل والأجران التي تمثل عنصراً حضارياً جديداً يقترب بالإنسان إلى إنتاج الطعام والاستقرار أكثر من انتمائه إلى مرحلة الجمع والالتقاط فالمنجل وظيفته قطع النباتات البرية أو المزروعة، ومن الممكن استخدامه في إحدى الوظيفتين. إلا أنه لا يمكن الجزم بطبيعة النباتات الموجودة وهل كانت برية أو مستأنسة نظراً لعدم العثور على أدلة نباتية يمكن

---

(١) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ١٥.

منها تحديد هذا الأمر الهام[1] .

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن بعض عظام الحيوانات المتخلفة عن هذه الحضارة قد دلت عمليات فحصها على اتفاقها مع الحياة المستأنسة أكثر من الحياة البرية، مما يدعم الاتجاه نحو الانتقال إلى بداية الاستقرار، مع استمرار بعض أفراد مجتمع تلك المرحلة في حياة الجمع والصيد بما يتضمنه من صيد الأسماك والحيوانات والطيور. ولكن هناك اتجاه آخر يميل إلى الاعتقاد بعدم توصل الحضارة النطوفية إلى استئناس الحيوان.

ولقد كان النطوفيون يعيشون في الكهوف وكذلك في الأماكن المكشوفة، وكانوا صيادين مهرة وبخاصة في صيد الغزال، وتوضح مصنوعاتهم العظمية تقدماً ملموساً، ومن هذه الصناعات رأس رمح مدببة وصنانير لصيد الأسماك (شكل ٢١)[2] .

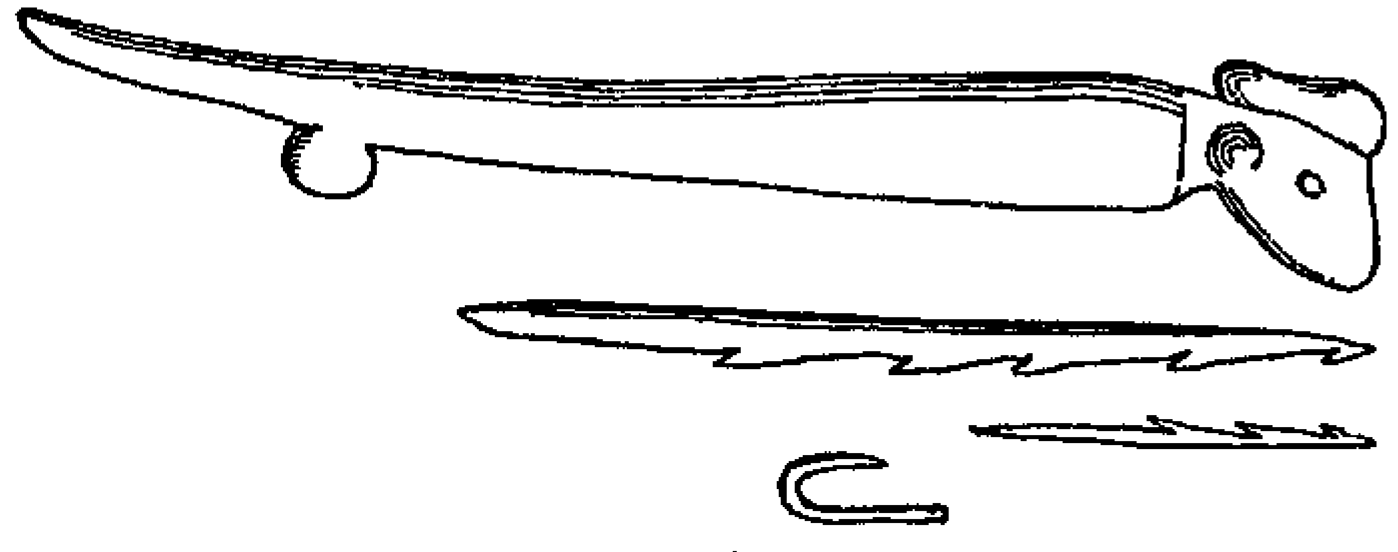
ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريباً لكلب كبير في طبقات كهف مغارة الوادي بجبل الكرمل أول دليل على استئناس الحيوان، ويعتبر هذا الحادث له أهميته البالغة في سير الإنسان نحو الحياة المتمدنة. وقد استئنس الكلب، حين كان الإنسان لا يزال يعمل بالصيد. إلا أن هناك اختلاف في الرأي كذلك بالنسبة إلى هذا الكلب النطوفي، حيث يتجه البعض إلى اعتباره ذئباً. وعندما تستكمل دراسة المادة الأثرية في المواقع المكتشفة أخيراً يزداد إتضاح وحسم هذا الموضوع[3] .

---

(١) Clark, J. G. D., «Primitive Man in Mesolithique Times», in C. A. H. Vol. I, Part I, Cambridge, 1970, P. 121.

(٢) Ibid., P. 121, Fig. 16 no. 1 - 3, 5.

(٣) رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت، ١٩٦٨، ص ١١٣ ـ ١١٤.



شكل ٢١
بعض المصنوعات العظمية من الحضارة النطوفية

وقد جمعت الحضارة النطوفية في مواقعها الأثرية بين الكهوف والساحات الممتدة أمامها وبصفة خاصة في نواحي جبل الكرمل، وبين مواقع القرى في وادي نهر الأردن حيث يلاحظ إتضاح التطور الحضاري. وقد تضمنت الحضارة النطوفية ثلاثة مراحل حضارية مبكرة ومتوسطة ومتأخرة. وقد اختلف العلماء في تاريخها. فبينما هناك من يرجعها إلى الألف الثاني عشر قبل الميلاد كما سبقت الإشارة، فإن استخدام طريقة الكربون المشع حددت بداية هذه المرحلة بحوالي ١٠,٠٠٠ ق. م، ولكن يتجه البعض إلى تأخير هذا التاريخ عن ذلك. ومن الناحية البشرية ينتمي أصحاب تلك الحضارة إلى عنصر البحر الأبيض المتوسط المختلط بنسبة زنجية محدودة. ولا تقتصر آثار تلك الحضارة على الأدوات الظرانية الميكروليثية، بل لقد تميزت بصناعتها العظمية خاصة أيادي المناجل وكذلك السنانير والدبابيس.

ومن أهم المواقع الأثرية المنتمية إلى هذه المرحلة في منطقة وادي نهر الأردن، موقع عين ملاحة (Eynan) [1] شمال غرب بحيرة الحولة حيث عثر

(١) Perrot, J., «Excavations at Eynan (Ein Mallaha)» in, I. E. J., vol. 10 (1960) P. 14 F F.,

Perrot, J., «Eynan (Ain Mallaha), in Rev. bi bl., vol. 69 (1962), P. 384 F F.

على عدد من القرى التي تتميز بمنازلها الدائرية والمبنية من الحجر في مساحة تبلغ ١٠٠٠ م، ولكن يلاحظ أن أرضياتها دون مستوى سطح الأرض واعتمد الإنسان في هذا الموقع في سد حاجياته الغذائية على صيد الأسماك والصيد البري والجمع، حيث لا يوجد دليل على استئناسه للحيوان والنبات[١].

وقد ترك إنسان هذه الحضارة في تلك المنازل مختلف آثاره الحجرية والعظمية، هذا بالإضافة إلى بعض الآثار المعبرة عن قدراته الفنية كالتماثيل الصغيرة التي يمكن اعتبارها من أقدم أمثلة النحت في الشرق الأدنى القديم، وكذلك الآثار المصنوعة من الخرز والأصداف، والقطع المحفورة في العظم أو الحجر من العصر النطوفي كثيرة، وأحسنها تمثال صغير لغزال مصنوع من قطعة عظم. وكشف عن مقبرة ذات شكل تذكاري في هذا الموقع، ويرجح من كل ذلك أن الإنسان خلال هذه المرحلة قد تمكن من تحقيق نوع من الاستقرار[٢].

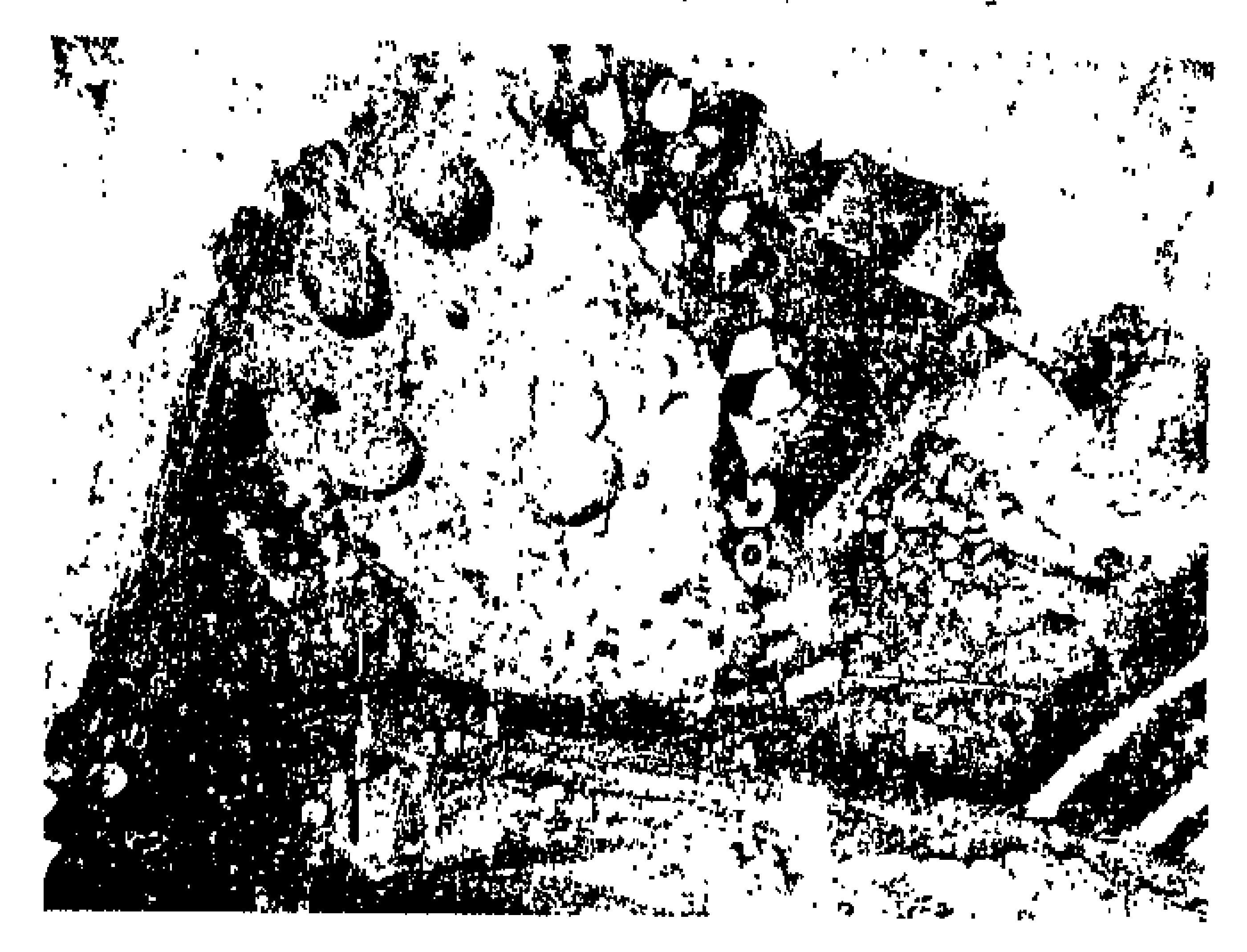
وفي المجال الفكري، فقد اعتقد الإنسان في هذا العصر بوجود آلهة، وكان لتربية المواشي وممارسة الزراعة أثره في جعل الديانة أكثر تعقيداً، وصاروا يفضلون الآلهة التي تهتم بالحقول والمواشي، على الأرواح التي يعتمد عليها الصيادون، ويذكر فيليب حتى أنه يظن أنه في مرحلة الرعي كان الناس يعبدون إله القمر الذي كان أكثر نفعاً وتلطفاً من الشمس. وكان القمر يبدد رهبة الظلام ويأتي بالبرودة التي يمكن للقطعان أن ترعى فيها براحة. ولذلك فإنه كان صديق الراعي أكثر من الشمس. ويرجح أن يكون المعبد

(١) De Vaux, R., «Palestine During the Neolithic and Chalcolithic Periods», in C. A. C., vol. I, Part I, P. 499.

(٢) Clark, J. G. D., op. cit., P. 121.

الذي وجد في أريحا يرجع إلى أواخر الألف السادس قبل الميلاد قد كرس للإله القمر[1] (شكل ٢٢).

وتحاول الأستاذة كينون الربط بين هذا المعبد النطوفي وبين موضوع تقديس الماء. ونظراً لوجود حريق في هذا المعبد فقد استخدمت بعض الآثار المتفحمة المتخلفة عن الحريق في التاريخ بواسطة الكربون المشع ونتج عنها التقويم الزمني حوالي ٧٨٠٠ ق. م[2]، ولكن ينبغي التريث نسبياً في الاعتماد بصورة حاسمة في هذا التقويم الزمني[3].



شكل ٢٢

معبد نطوفي في أريحا

---

(١) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) Kenyon, K., «Earliest Jericho» in Antiq., vol. 33 (1959), P. 55 FF.

(٣) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١١٧ ـ ١١٨.

وأثناء نشوء الحياة الزراعية أوجد الإنسان في فكره ارتباطاً بين النمو وبين الشمس التي أخذت حينذاك تتقدم على القمر، وبدأت في ذلك العهد عبادة الإله الشمس، وكذلك عبادة الأرض الأم بشخص إلهة للخصب تتعهد شئون الزراعة، واتخذت الديانة شكلاً مؤنثاً واضحاً لسبب آخر هو أن المرأة يمكنها أن تمارس الزراعة بسهولة أكثر من ممارسة الصيد. والرموز المتعلقة بطقوس العبادة وكذلك الميثولوجيا المتصلة بآلهة الخصب كانت أصولها في هذه المرحلة.

وفي مجال الاعتقاد في العالم الآخر، فقد عثر على عدد من المقابر الفردية والجماعية التي تؤكد اعتقاد الإنسان في هذه المرحلة في الحياة الأخرى، فقد لوحظ تغطية الهيكل العظمي للمتوفي بالكتل الحجرية، وهذه الظاهرة تمثل مرحلة مبكرة للغاية من مراحل المحافظة على المتوفي، وتطورت فيما بعد إلى تخصيص بناء علوي للمقبرة. ومن الأهمية الإشارة إلى تواجد ظاهرة ذر التراب الأحمر في المقابر، تلك الظاهرة التي يلمسها المؤرخ في بعض الحضارات الأخرى وخاصة في الهضبة الإيرانية[1]، ربما لارتباط ذلك التراب الأحمر بموضوع الخلود واستمرار الحياة في العالم الآخر، وبالإضافة إلى ذلك فقد وضعت أواني الطعام والتقدمات في أماكن الدفن، وقد ترك إنسان تلك الحضارة النطوفية بعض أدوات الزينة مع المتوفي كالعقود وغيرها، كما زينت جمجمته أحياناً بالأصداف.

كل ذلك يبين أهمية الحضارة النطوفية في مرحلة الانتقال نحو الاستقرار فهي تمثل خطوات رئيسية في هذا المجال.

---

(١) أحمد أمين سليم، إيران منذ أقدم العصور وحتى أواسط الألف الثالث ق. م، بيروت، ١٩٨٨، ص ١١٤ ـ ١١٥.

العصر الحجري الحديث:

يتمثل العصر الحجري في عدة مواقع في سورية وفلسطين، وقد اصطلح كثير من الآثاريين على اتخاذ منطقة العمق في سورية نموذجاً للحضارات التي شاعت في هذا العصر وما تلاه، نظراً لأن تلالها الغنية بطبقاتها المختلفة تحوي آثاراً لكل من هذه الحضارات ويقابل هذه المنطقة في فلسطين منطقتي جريكو وتل الفول.

وحدث في هذا العصر الذي دام نحو ألفي سنة اعتباراً من عام ٦٠٠٠ ق. م، تقدم ملموس في الزراعة، وتربية الحيوان واستعمال الأدوات الحجرية المصقولة والحياة المستقرة وشاهد هذا العصر أيضاً اختراع الخزف واكتشاف المعدن.

وفيما يتصل بالعصر الحجري الحديث في فلسطين فيتجه بعض العلماء في الوقت الحاضر إلى إعطاء أهمية خاصة إلى بعض المواقع الأثرية الفلسطينية المنتمية إلى تلك المرحلة وذلك على أساس أن تأريخ هذه المواقع يتقدم بعض الشيء من الناحية الزمنية على المواقع الأثرية المنتمية إلى نفس العصر في بعض المواقع الأخرى في منطقة الشرق الأدنى القديم. ويمكن تقسيم ذلك العصر إلى قسمين أساسيين، ويتمثل ذلك بصفة خاصة في موقع جريكو (أريحا - بيسان) وتل السلطان. وهذين القسمين هما: مرحلة العصر الحجري الحديث، غير المتضمن للصناعة الفخارية، ثم مرحلة العصر الحجري الحديث الصميم.

وبالنسبة للقسم الأول، فتضم آثار تلك المرحلة طرازاً خاصاً في كل من العمارة والنحت، فقد عثر على منازل دائرية مبنية من الحجر وحيطانها مائلة إلى الداخل، ويغلب أن ذلك يرجع إلى كون سقوفها كانت محدبة: أما أرضية تلك المنازل فكانت من الطين المدكوك وهي تؤرخ من الناحية الزمنية بحوالي

عام ٦٨٠٠ ق. م. وهناك منازل أخرى مستطيلة تتميز بكون حيطانها وأرضياتها مطلية بالجص الملون بالأحمر. وهي تتكون بشكل رئيسي من حجرة كبيرة رئيسية، وحجرة أو حجرتين داخليتين، وتصطف الحجرات حول الفناء[1].

وتتميز تلك القرية ـ فيما يذكر أستاذنا الدكتور رشيد الناضوري[2] ـ بوجود خمسة حيطان متتالية أثناء تلك المرحلة مبنية من الأحجار المنتظمة، ويمتاز الحائط الثالث فيها باستناده على برج حجري له سلم خاص وذلك كنوع من التحصين الدفاعي. وقد عثر في حجرات المساكن والمعابد على مجموعات هامة من التماثيل البشرية والحيوانية وتتميز التماثيل الإنسانية بكونها مؤلفة من مجموعات ثلاثية، كل مجموعة منها تتكون من رجل وامرأة وطفل. هذا بالإضافة إلى تماثيل أخرى تصور عضو التذكير كمظهر للخصوبة والإنتاج والتي عمل الإنسان القديم على تقديس صفتها منذ العصر الحجري الحديث. وهذه التماثيل الثلاثية فريدة في نوعها في ذلك العصر المبكر.

ومن ناحية أخرى توصل إنسان تلك المرحلة إلى الاعتقاد في العالم الآخر لدرجة معينة، فلم يخصص مكاناً للمتوفي خارج القرية، بل دفن موتاه تحت أرضية المساكن، ويلاحظ أيضاً ظاهرة فريدة أخرى، وهي فصل رأس المتوفي عن جسده، ووضع نموذج من الجص لصورة المتوفي فوق عظام الجمجمة كما كان في حياته (شكل ٢٣). كما يلاحظ أيضاً وجود بعض الخطوط ذات لون أسود فوق رأس المتوفي يغلب أنها تمثل رداء للرأس[3]. ويتجه البعض إلى اعتبار فصل رأس المتوفي عن الجسم ودفنها بصورة مستقلة ربما يتصل بعقيدة عبادة الجمجمة.

---

(١) Mellaart, J. «The Earliest Settlements in Western Asia From the Ninth to the End of the Fifth Millennium B. C.», in C. A. H., vol. I, Part I, P. 265.

(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) Mellaart, J., op. cit., P. 265.,
De Vaux, R., op. cit., PP. 505 - 506.



شكـل ٢٣
رأس مسكوة بالجص فوق الجمجمة
من العصر الحجري الحديث في جريكو

وبالإضافة إلى آثار العمارة الطينية هناك أيضاً آثار حجرية ضخمة تتكون من كتل حجرية هائلة تشكل حوائط حجرات وممرات وتمثل منازل ومعابد من نوع آخر غير القرى السالفة الذكر وتنتشـر تلك الآثار الحجـرية المنتميـة لتلك المرحلة في كل من فلسطين والأردن ورغم وفرة الآثـار الممثلة لتلك الحضارة فلم يصـل إنسانهـا إلى الصناعـة الفخـاريـة بعـد. ويؤرخ هـذا العصـر حسب تقديرات طريقة الكربون المشع بحوالي ٦٢٥٠ ق. م.

وهناك فجوة حضارية بين المـرحلة السابقـة والمرحلة التـالية التي تمكن فيها الإنسان من صناعة الأواني الفخارية، مما مهد للمرحلة التالية وهي مرحلة العصر الحجري الحديث الصميم وقـد عثـر على آثـاره في جريكـو ابتداءً من

الطبقة التاسعة، كما عثر عليه أيضاً في موقع وادي اليرموك ويتميز بالفخار المزين برسوم، وصناعة التماثيل الحجرية الصغيرة. وتؤرخ تلك المرحلة بأواسط الألف الخامس قبل الميلاد، ويعتبر فخار تلك المرحلة أقدم فخار في فلسطين(١). ولقد عثر على المخازن التي ضم بعضها حبوب قمح، ولا يوجد دليل على استئناس الحيوان باستثناء الماعز، واستمر القوم في صيد الغزال أو اعتمدوا على البدو في احضاره لهم، حيث لم يعثر على أعداد كبيرة من السهام.

وتوضح الأدلة الأثرية انفتاح إنسان جريكو على العالم الخارجي المحيط به ومن تلك الأدلة صناعته لأدواته من حجر الأوبسيدان، وهو المادة التي أحضرها من الأناضول لعدم توفرها في منطقته، ومن ناحية أخرى ففي المقابل قام إنسان جريكو بتصدير بعض المواد المتوفرة في بيئته مثل الملح والقار والكبريت(٢).

ويختلف العلماء في أصل تلك الحضارة هل هو محلي أو خارجي، ويصعب البت نهائياً في هذه المشكلة، ولكن حقيقة أهمية الحضارة النطوفية، ودورها في نقل حياة الإنسان نحو إنتاج الطعام، ووجود طبقة ما قبل النيوليثية بجريكو ليساعد في إمكانية التفسير المحلي لهذه الحضارة. ومن ناحية أخرى توصل الإنسان في مناطق أخرى مثل شمال العراق، وبصفة خاصة موقع جرمو إلى إنتاج الطعام دون التوصل إلى الصناعة الفخارية، ومع ذلك تعتبر جرمو في طبقاتها الأولى ممثلة لتلك المرحلة مع بعض الفوارق الرئيسية بينها وبين جريكو بصفة خاصة في النتاج الزراعي الذي يعتبر دليلاً قاطعاً على الاستقرار.

وتنبغي الإشارة إلى قرية جريكو التي تتميز بظاهرة التحصين الحجري

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٣٧ ـ ١٤٠.

(٢) De Vaux, R., op. cit., P. 502.

القوي الذي يعتبر نمطاً معمارياً خاصاً في تلك المرحلة. ويمكن تفسير ذلك على أساس أن التسللات السامية التي كانت تداوم على التغلغل من الصحراء العربية إلى المناطق المنخفضة والأودية في عصور ما قبل التاريخ وخلال العصر التاريخي قد دفع إنسان مجتمعات العصر الحجري الحديث، أي المجتمعات المستقرة في القرى إلى ضرورة تحصين قراهم لوقايتها من تلك العناصر.

وعلى ذلك فآثار العصر الحجري الحديث في فلسطين متنوعة وهامة ولكنها غير واضحة التكامل الموضوعي، ولذلك يصعب ربطها بنفس المقياس الحضاري المتكامل لحد كبير في المواقع الأخرى، ولذلك لأنها تتضمن ظواهر معمارية وتعبيرية فريدة من نوعها وبصفة خاصة ظاهرة التحصين المعماري والنحت والتشكيل الصوري الإنساني، وتدفع تلك الظواهر الخاصة الباحث إلى توخي مداومة البحث المقارن لآثار تلك المرحلة حتى يمكن وضعها في مكانها الحضاري المضبوط بقدر الإمكان[1].

وتوجد مناطق الاستقرار الأولى في سورية بالقرب من تجمعات المياه، أو متاخمة للأنهار، ومن هذه المناطق، منطقة العمق، التي تقع في شمال سورية قرب مصب نهر العاصي وقد جمعت هذه المنطقة بين السهول والأودية والمستنقعات والتلال[2]، وعلى الرغم من أن هذه المنطقة توجد بها بحيرة في الوقت الحاضر تعرف باسم بحيرة العمق، إلا أنها في العصور القديمة لم يكن لها وجود وكذا المستنقعات الحالية المحيطة بالمنطقة وكانت هذه المنطقة من أهم جهات الاستقرار الأولى في سورية، ويبلغ عدد التلال التي تمثل بعض مراحل الاستقرار في هذه المنطقة بحوالي مائة تل من أهمها تل عطشانة وتل

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٤١.

(٢) Braid Wood, R. J., Mounds in the Plain of Antioch, Chicago, 1937.

الشيخ ، وبالإضافة إلى موقع العمق ، فقد كشف عن مناطق استقرار أخرى من سورية مثل مرسين، وطرسوس، وحماة، ورأس الشمرة، وقـرقميش[١] .

ويلاحظ توفر المادة الأثـرية المنتمية إلى العصر الحجـري الحديث في طبقة أو أكثر من طبقات التلال. وقـد كشف ضمن آثار هـذا العصر على بقـايا الآثار المعمارية وهي المنازل، ويـلاحظ أن أسسها قـد بنيت من الحجر، ولم يعثر على بقايا العمارة الطينية نظراً لارتفاع مستوى المياه الجوفية ولكن يلاحظ أنـه في بعض الحالات المنتمية إلى تلك المرحلة والتي عثر عليها في مـوقع مـرسين، أنـه قـد تبقت بعض المنـازل المبنيـة من اللبن، وقـد اتخـذت تلك المباني شكلاً أقرب إلى المستطيـل، وقد طليت أرضيـة الحجرات بـالجص. ويـلاحظ أن عملية طـلاء حيـطان المسـاكن أحيـانـاً تشتـرك فيهـا الحضـارات الموجودة في كل من مصر والعراق وفلسطين في هذا العصر.

وبجـانب الآثار المعمـارية التي تم الكشف عنهـا، فقـد كشف عن آثـار الصناعة الزراعية ومن أهمها الفؤوس والمناجل الحجرية والأجران والمخازن، وعلى الـرغم من العثـور على جميـع تلك الأدلـة الأثـريـة التي تثبت تـوصـل الإنسـان إلى مرحلة الـزراعة، إلا أنـه لـم يعثر في طبقـات تلك المـرحلة على القمح، ومن أهم آثار الإنسـان في هذا العصـر كذلـك، الصناعـات الفخاريـة وصناعة الأدوات والأواني الحجرية والعظمية، كمـا أنه تمكن أيضـاً من التعبير الفني عن مفاهيمه الدينية الأولى، حيث عبر عن الخصوبـة والإنتاج في شكـل تمثـال صغير لآلهـة الأمومـة، كما بـدأ يميز بين الأفـراد والملكيات عن طـريق بعض الأختام الحجرية التي تحمل بداية إدراكه للشخصية الذاتية.

ومما هو جدير بالذكر، أنه على الرغم من وجود دلائل الاستقرار وإنشـاء

---

(١) Mallowan, M., «The Development of Citites From AL - Ubaid to the End of Uruk 5», in C. A. H., vol. I, Part I, P. 414.

القرى الأولى في تلك المرحلة، إلا أنها ليست بالدرجة المتكاملة التي وصلت إليها كل من مصر والعراق القديم حيث لم يعثر على أية آثار في مقابر هذه المنطقة، باستثناء العثور على مقبرة طفل في طبقة العمق (ب). وهناك اتجاه بين بعض المؤرخين إلى الاعتقاد في بداية وجود نوع من التأثير الحضاري العراقي في عصر حضارة تل حسونة في نهاية تلك المرحلة الحضارية، وأيضاً أثناء المرحلة الحضارية الثانية العمق (ب). وتعتبر تلك المرحلة الأخيرة مكملة للتطور الحضاري في المرحلة السابقة.

وعلى الرغم من توفر العامل المحلي في الحضارة السورية إلا أن عامل التأثيرات الحضارية الأجنبية يستمر فيها مثل تأثير حضارة حلف في المرحلة الحضارية الثالثة، وتأثير حضارة العبيد الشمالية في المرحلة الحضارية الخامسة (العمق هـ) وهكذا. وليس معنى ذلك عدم أصالة تلك الحضارة، بل اعتمادها على عدد من المؤثرات الأجنبية في مراحل تكوينها بالإضافة إلى العناصر المحلية الصرفة. وتلي تلك المرحلة الحضارية الثانية المراحل الحضارية التالية لها وهي العمق جـ، د، هـ، و. وفي تلك المراحل جميعها سار الإنسان في سورية في مستوى التطورات الحضارية التي ظهرت في كل من مصر والعراق القديم بصفة خاصة، وذلك فيما يتعلق بالصناعات الفخارية والصناعات الحجرية وعمليات بناء المنازل والمخازن وغيرها من أدلة الاستقرار[1].

وفيما يتصل بالأدلة الأثرية الخاصة بالعصر الحجري الحديث في لبنان، فقد عثر على الأدلة المتصلة بالاستقرار الإنساني في هذه المنطقة في عدد من المواقع الأثرية مثل جبيل (بيبلوس)، وحراجل، وبركة راما، وعين إبل، ونهر الكلب، ونهر الزهراني، وغيرها.

---

(١) أنظر: رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

Braidwood, R. J., Excavations in the Plain of Antioch, Chicago, 1960.

وتعتبر جبيل[1] من أهم هذه المواقع، نظراً لوفرة آثارها المنتمية إلى تلك المرحلة، وربما كان موقعها على الساحل من الأسباب التي ساعدت على توفير الحماية الطبيعية للقرى التي استقرت في هذه المنطقة. ومن أهم الآثار التي عثر عليها في هذه المنطقة وتنتمي لهذه المرحلة الحضارية، بقايا القرى، التي تتمثل في آثار المنازل المستطيلة الشكل ذات الأسس الحجرية والتي طليت أرضياتها بالملاط. ويشبه ذلك، كما سبقت الإشارة، منازل موقع العمق في سورية. وقد عثر على آثار المواقد، وكافة الأدلة المتصلة بالاستقرار والإنتاج الزراعي، كالأدوات الحجرية وبصفة خاصة المناجل والأدوات العظمية والأواني الفخارية والمنازل وغيرها هذا بالإضافة إلى الآثار التي تشير إلى بعض القدرات الفنية التي تظهر في بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجر الجيري، والتي يغلب اتصالها بعقيدة الخصوبة والإنتاج.

وفي نهاية حديثنا عن العصر الحجري الحديث في سورية. فإننا سنتحدث بإيجاز عن الفخار الذي عثر عليه فيها. فقد ظهر الفخار في إحدى الطبقات الدنيا في أريحا، ويعتقد بعض الباحثين أنه قد اخترع هناك، وقد اتخذ الفخار في أول الأمر شكل أحواض مجوفة في الأرض، ومبطنة بطبقة من الكلس، ثم أشكال جرار ذات أطراف بسيطة وقعر مسطح، وله أيدي كروية الشكل، ويرجع فيما يذكر فيليب حتى[2] أن فخار سورية الشمالية ذو اللون الواحد يرجع إلى حوالي ٥٠٠٠ ق. م، ثم ظهر بعد ذلك فخار ملون في موقع تل الجديدة الواقعة في شمال شرق أنطاكية، ويعود إلى حوالي منتصف

---

(١) أنظر:

Dunand, M., Fouilles de Byb Los, 1, 1926 - 32, Paris, 1939.,

Dunand, M., «Chronologie des Plus anciennes installations de Byblos», In Rev. bibl., vol. 57 (1950), P. 583 F F.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٢١ ـ ٢٣.

الألف الخامس قبل الميلاد، وهو مزين برسوم بدائية جداً وعثر على بعض القطع الفخارية المزينة في شمال سورية في مناطق بعيدة إلى الشرق مثل سامرا على نهر دجلة. ويرجح أن تكون عجلة الفخار قد تم اختراعها في سورية قبل عام ٤٠٠٠ ق. م، ولكنه لم يستخدم بصورة بارعة في جنوبي فلسطين حتى حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م، وكان الفخار قبل ذلك يصنع بواسطة اليد.

عصر الحجر والنحاس:

استخدم الإنسان في هذا العصر معدن النحاس بالإضافة إلى الصناعات الحجرية السابقة وقد اختلف العلماء في كيفية توصل الإنسان إلى هذا المعدن، وهل كان ذلك بمحض المصادفة أثناء عملية صنع الفخار، حيث أنه من الجائز تواجد بعض ذرات نحاسية مختلطة بالطين تظهر أثناء الحرق، أم أن ذلك قد تم بعد البحث والتنقيب والتوصل إلى اكتشاف هذا المعدن ـ وهناك مشكلة أخرى، وهي أن كمية الآثار النحاسية قليلة في مواقع تلك المرحلة، مما أدى إلى احتمالية الاعتقاد بأنها مستوردة وغير مصنوعة محلياً في كل من مصر والعراق. ولكن قلة الآثار النحاسية لا ينبغي اعتبارها عاملاً رئيسياً في تفسير عدم توصل الإنسان إلى اكتشافها محلياً وتصنيعها في هاتين المنطقتين، فلا شك أن هذه المادة كانت جديدة في استخدامها، وعلى ذلك كانت آثارها محدودة نسبياً هذا بالإضافة إلى الجهود المضنية في عملية تصنيعها وتشكيلها.

ويتجه فيليب حتى إلى الاعتقاد بأن معرفة النحاس قد انتشرت من سورية إلى جميع الجهات[1]. وتدل آثار الإنسان في هذه المنطقة أنه استخدم

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٤ ـ ٢٥.
ولكن يلاحظ في هذا المجال أن الإنسان الإيراني القديم قد توصل إلى معرفة النحاس في فترة سابقة لمعرفة الإنسان في سورية له. أنظر:
أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص ١١٣.

النحاس أولاً ثم مزجه بالبرونز لأجل صناعة الأسلحة الحربية قبل أن يستخدمه لأدوات السلم، وقد تمتعت القبائل والجماعات التي جعلت سلاحها من هذا المعدن الصلب القابل للطرق والإلتواء بتفوق عظيم على تلك التي استعملت الحجارة، واستخدم المعدن أيضاً في الأغراض السلمية، فتحسن فن العمارة بشكل كبير.

ويمكن تقسيم عصر الحجر والنحاس في فلسطين إلى ثلاث مراحل حضارية متصلة، تتمثل أولها في كل من الطبقة الثامنة من تل جريكو، وأيضاً في حضارة وادي غزة، وتتمثل الحضارة الثانية في الحضارة الغسولية التي تقع في سهل الأردن شمال شرق البحر الميت والمرحلة الأخيرة تتمثل في حضارة بئر سبع، وتمتد تلك الحضارات زمنياً من نهاية العصر الحجري الحديث حتى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، وعلى ذلك فهي تتداخل مع عصور ما قبل الأسرات في كل من مصر والعراق. وقد تطورت الحياة بكافة مظاهرها في ذلك العصر في فلسطين وذلك بعد التوصل إلى استخدام معدن النحاس.

وفيما يتصل بالحضارة الغسولية[1]، فقد عثر الآثاريون على آثار الحياة الزراعية، فقد ازداد في هذه الأثناء الاهتمام بالزراعة وتربية المواشي، واتسع استخدام الثور والغنم والماعز التي بدأ استئناسها منذ العصر الحجري الحديث، كما يتضح من ظهورها المتكرر على التماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين، كما عثر كذلك على أشكال حيوانية أخرى كانت شائعة مثل الخنازير، وهناك أشكال أخرى تمثل الحمام، وكانت تقع المراكز السكانية في هذا

---

(١) أنظر:

Koeppel, R., Teleilet Ghassul, II (1932 - 1936), Rome, 1940.,

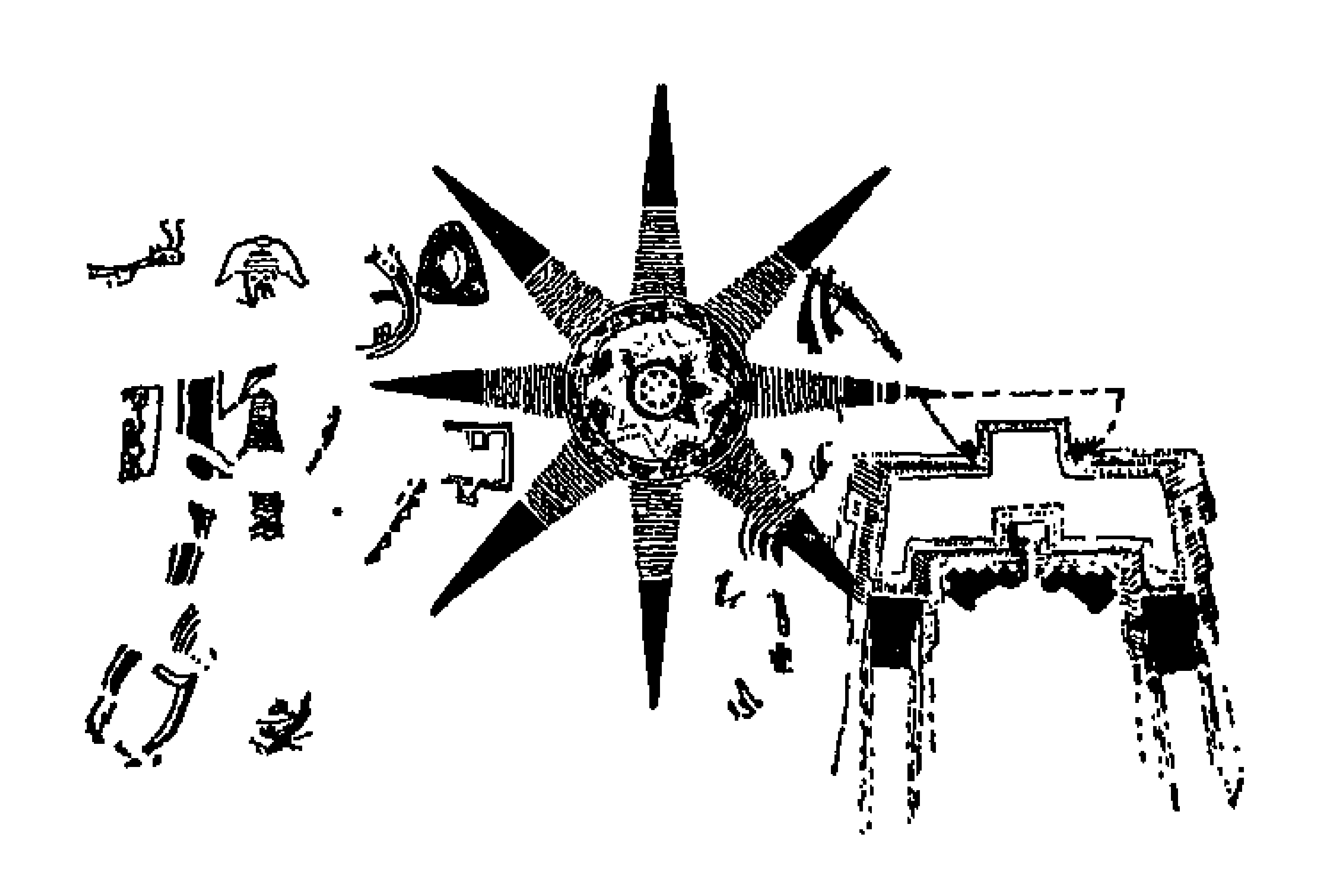
Mallon, A., Koeppel, R., and Neuville, R., Teleilet Ghassul, I, Rome, 1934.

North, R., Ghassul 1960 Excavation Report, Rome, 1961.,

Perrot, J., «A Propos du Ghassoulien» in Syria, 29, (1952), P. 403, F F.

العصر في أودية الأنهار، أو السهول التي تعتمد على الري، وهكذا فإن العمل البارز في هذه الفترة في ميدان الزراعة كانت الزراعة المعتمدة على الري.

ورغم أن الحضارة الغسولية كانت تعتمد بشكل رئيسي على الزراعة إلا أنه عثر على كميات ضئيلة من السهام مما يرجح أن بعض السكان قد مارسوا الصيد بجوار الزراعة. ولقد كشف عن مواقع تحوي غلالاً وكذلك على أواني بها زيوت[1].



شكل (٢٤) رسم ملون على الحائط في تليلة الغسول تظهر فيه نجمة كبيرة تحيط بها رسوم ورموز، وإلى اليمين ترميم للمبنى

---

(١) De Vaux, R., op. cit., P. 523.

وفيمـا يتصـل بفن العمـارة، فيلاحظ أن عمـارة المنـازل تتعـدد في تخطيطهـا، كما أن أحجـامها كـانت متوسطة. وكان أحـد الجوانب الكبـرى للبيوت المستطيلة كثيراً ما يقابل صالة فسيحة وشيدت الجدران من اللبن فوق أساسات من الحجـر الغشيم، وصنعت الأسقف من القصب المغطى بـالطين، وزخرفت الجدران الطينية برسوم ملونة، مثل نجمـة ذات ثمانيـة أضلاع تحيط بها رسوم ورموز غير عادية (شكل ٢٤). ولم تحدد القرية بتحصينات في شكل أسوار حولها، كما يلاحظ في مرحلة العصـر الحجري الحـديث في جريكـو. وقد توفرت لدى القرى مستلزمات الحيـاة المستقرة كمخـازن الغلال والأجـران والمواقد والأواني الحجرية والأدوات النحاسية.

وتنفرد الحضارة الغسولية، بظاهرة استخدام بعض الأواني الفخارية التي تتخذ شكل منازل لها أسقفهـا الدائـرية وذلـك لحفظ عظام المـوتى. وقد دفن الأطفـال في أواني فخاريـة تحت أرضية المنـازل، ولم يقتصر على ذلـك، بل كانت هناك أيضاً المقابر المغطاة بالكتل الحجرية.

ومن أهم الآثار الدينية في هذه الحضـارة، العثور على معبـد كبير ينتمي إليها، وهو يتكون من ساحة تحيط بها المباني الرئيسية الخاصة به، ففي الجهة الشمالية يوجد المبنى الرئيسي وفي الجهة الجنوبية يوجد المدخل في مـواجهة البئر، هذا بالإضافة إلى مدخل آخر في الجهة الشرقية، ويوجد حائط حجـري يربط بين تلك المباني. ويبلغ طول هذا المعبد عشرين متـراً، ويلاحظ وجـود مذبح في مواجهة المدخل، حيث عثر على بقايا عظام حيوانيـة وشقف فخـارية ومما هو جدير بالذكر أنه توجد بعض أوجه الشبه بين التخطيط المعماري لهـذا المعبد الذي عثر عليه في تل الغسول، وبين معبد مجدو[1].

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

أما عن حضارة بئر سبع[1] فقد جمعت بين الرعي والزراعة، وقد عثر على كافة الأدلة الأثرية المتصلة بالحياة الزراعية كالأجران والمناجل والمخازن فلقد كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية للسكان، وتوضح الأدلة الأثرية أنهم قد زرعوا القمح والشعير، كما استأنسوا الأغنام والماعز والماشية، ووجدت الكلاب لتقوم بحراسة قطعان مواشيهم.

ولقد ازدهرت العديد من الصناعات في المواقع المنتمية إلى حضارة بئر سبع، ويلاحظ وجود نوع من التخصص في صناعات كل موقع، فلقد اهتم موقع صفادي Safadi بالصناعات المتصلة بالعاج والعظام، بينما اهتم موقع أبو مطر Abu Matar بالصناعات المعدنية. وبرع إنسان حضارة بئر سبع كذلك في الصناعات الحجرية، ولقد استخدم العديد من الأحجار مثل البازلت والتركواز.

أما بالنسبة للمنازل فقد كانت أشبه بالكهوف، فهي عبارة عن حجرات سفلية مستديرة أو بيضاوية يصل إليها السكان بواسطة درج يؤدي إليها أو أنفاق أو آبار رأسية. وتؤدي تلك المداخل إلى ممرات أفقية تتفرع بدورها إلى حجرات، وقد اتجه بعض العلماء إلى محاولة إيجاد ترابط حضاري بين الحضارة الغسولية وحضارة بئر سبع، وهناك من الأدلة الأثرية ما يؤيد هذا الاتجاه.

وقد تقدم الفن، وبخاصة الفن التشكيلي تقدماً ملموساً بعد ظهور المعدن. فكثرت الأختام والحلي والأواني النحاسية، وتحسنت التقنية الفنية لهذه المنتجات. واهتم الناس بفن النحت، الذي كان أول ظهوره في العصر

---

(١) أنظر: Josient, T., «La Faune Chalcolithique des gisements Palestiniens de Bires - Safadi et Bir Abu Matar», In I. E. J., vol. 5 (1955), P. 246 F F.,

Negbi, M., «The Botanical Finds at Tell Abu - Matar, near Beer Shebe», In I. E. J., vol. 5 (1955), P. 257 F F.,

De Vaux, R. op. cit., P. 523 - 526.

الحجري الوسيط، كما سبقت الإشارة إلى ذلك وقد اكتشفت رسوم بشرية وحيوانية مصقولة في طبقات العصر الحجري النحاسي الأخيرة في مجدو.

وتمثل الرسوم الجدارية المعاصرة من تليلات الغسول الموجودة على الجدران الداخلية أشكالاً بشرية بألوان متعددة. وكانت تلك أول محاولة معروفة لزخرفة القسم الداخلي من المنزل، غير أن الرسوم على الفخار ظلت تتيح للفنان أحسن الفرص لممارسة فنه. وفي نهاية الألف الرابع توصل إلى فن الطلاء بالميناء. وامتدت حضارة بئر سبع من كل منطقة شمال النقب.

وقد أدى نمو صنع المعادن والفخار الذي يتصف به هذا العصر، إلى ظهور حرف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن، ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل، وازدهرت مدن في السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة بالسكان حتى ذلك الوقت. وبدأت التجارة تتخذ شكلاً دولياً. وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين منطقة سورية من جهة ومصر وبلاد بابل من جهة أخرى عاملاً أساسياً في حياة هذه البلاد في العصور التالية وقد نشطت الحياة في جميع مظاهرها في الشرق الأدنى نشاطاً عظيماً، كما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقوة الكهربائية.

عصور ما قبل الأسرات:

تعتبر تلك المرحلة من أهم مراحل تاريخ الإنسان، لأنها خلاصة تجاربه الطويلة في عصور ما قبل التاريخ، وهي المرحلة التي حدثت قرب نهايتها الدفعة الانتقالية الهامة نحو بداية العصر التاريخي. هذا بالإضافة إلى أنه تكونت أثناء تلك الفترة المبادىء والتقاليد السياسية والاقتصادية والدينية التي كانت بمثابة الأسس الرئيسية لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم أثناء العصر التاريخي.

وفيما يتصل بالأدلة الأثرية المتصلة بهذه المرحلة في منطقة سورية، فقد

تابعت حضارة العمق تطورها الحضاري وبصفة خاصة في طبقات العمق هـ، و س وتمثل هذا العصر في فلسطين في المرحلة الأولى لبداية استخدام البرونز.

وخضعت المناطق الشمالية للمؤثرات الحضارية الآتية من جنوب العراق في عصر حضارة العبيد، وعثر على الآثار الدالة على ذلك التأثر، وعلى رأسها الصناعة الفخارية [1]، ويمكن تفسير اتجاه إنسان حضارة العبيد إلى شمال سورية على أساس احتياجاته الخشبية، حيث تتوفر الغابات في تلك المنطقة اللازمة لكافة الأغراض المدنية والدينية ويمثل استخدام نهر الفرات كوسيلة مواصلات لنقل تلك الكتل الخشبية من شمال سورية إلى جنوب العراق، ولا يعني تأثر حضارة العمق بحضارة العبيد، زوال خصائصه الأولى، بل ظلت مميزاته الحضارية المحلية موجودة مع التأثر بالمؤثرات الخارجية.

وتنبغي الإشارة في هذا المجال إلى أن حضارة جبيل قد انفردت في الاحتفاظ بخصائصها المحلية دون التأثر بحضارة العبيد في تلك المرحلة، وقد عثر على كميات كبيرة من آثار جبيل ب وبصفة خاصة الآثار النحاسية والفضية التي يرجح منها صلتهم بمنطقة الأناضول. وعاصرت هذه المرحلة الوركاء ٤ ـ ٥ وكذلك مرحلة جمدة نصر. وشيد السكان منازلهم على شكل بيضاوي وكانت مساحتها تقريباً من ٣ ـ ٤ أمتار. وقد استخدم إنسان هذه الحضارة طريقة دفن موتاه داخل الأواني الفخارية الضخمة التي توضع في باطن الأرض [2]، كما استخدمت تلك الطريقة أيضاً في حماة [3].

---

(١) Mallowan, L., op. cit., P. 416.

(٢) Dunand, M., «Chronologie des plus anciennès installations de Byblos» In Rev., bibi, vol. 51 (1950), P. 583, F F.,

Mallowan, M., op. cit., PP. 420 - 421.

(٣) Ibid., PP. 416 - 417.

أما في فلسطين فقد تميزت تلك المرحلة بتعدد العناصر البشرية التي وفدت إليها ويمكن الاستدلال على ذلك من تنوع الأواني الفخارية المنتمية إلى أنماط حضارية مختلفة والتي خلفتها تلك العناصر في المقابر والمنازل. ولم تنعزل تلك الجماعات الوافدة كلية، بل امتزجت مع أصحاب الحضارة الغسولية مما مهد إلى النقلة إلى بداية العصر التاريخي بعد ذلك.

ومن أهم الآثار الفريدة المنتمية إلى تلك الجماعات الجديدة، بقايا مقابرهم الجماعية حيث استخدمت تلك العناصر المقابر المحفورة في الصخر أو في الكهوف الطبيعية، والتي كانت تتسع لحوالي ثلاثمائة شخص، وقد عثر في وسط كل مقبرة على كوم من الحطب الخاص بحرق جثث الموتى، ولوحظ وجود الجماجم منفصلة حول ذلك الكوم، ويغلب أن أجسام الموتى دون جماجمها كانت تحرق وتوضع بجوارها الأواني الفخارية. ولا توجد هذه الظاهرة الخاصة بهذه الصورة في المناطق الأخرى، مما يجعل أصحابها جدداً على فلسطين[1].

وأخذت المجتمعات السورية، وبصفة خاصة في العمق وجبيل وجريكو، في التطور وذلك أثناء عصر ما قبل الأسرات الأوسط، ولكنها لم تصل إلى المستوى الحضاري الكائن في كل من مصر والعراق القديم في ذلك الوقت.

وفيما يتصل بعصر ما قبل الأسرات الأخير في منطقة سورية، فلقد كشف عن العديد من الأدلة الأثرية المتصلة بهذه المرحلة، ففي المواقع الفلسطينية عثر على الأواني الفخارية المتميزة بالخطوط المتموجة والمتقاطعة، هذا بالإضافة إلى عمارة المنازل والمعابد والمقابر، وذلك بصفة خاصة في كل من مجدو، وجريكو، وخربة كرك. وقد حملت المقابر الصفة الجماعية التي

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٩٥.

سبقت الإشارة إليها، وبينما استمر استخدام ظاهرة الحيطان السميكة المصنوعة من اللبن في بعض المواقع مثل خربة كرك، والتي تحيط بالقرى كمظهر دفاعي مثلما سبق أن اتجاه إنسان العصر الحجري الحديث إلى استخدامها ويلاحظ أن ذلك لم يكن سائداً في كافة المواقع. والحقيقة أن حضارة تلك المرحلة قد تميزت بظاهرة التعدد والمزيج الحضاري، ويغلب أن ذلك يرجع إلى وفود جماعات بشرية جديدة تحمل أنماطاً حضارية مختلفة.

واستمر الإنسان في المواقع الشمالية من منطقة سورية في إنتاجه الحضاري كما يتضح في طبقات تلال العمق، وكذلك في موقع جبيل ٤. ويمكن تلمس اتصال حضارة العمق وجبيل بالمؤثرات الحضارية العراقية وبصفة خاصة حضارة جمدة نصر، هذا بالإضافة إلى اتصالها بحضارات فلسطين ومصر، ويلاحظ ذلك في الصناعات الفخارية برسومها الهندسية والحيوانية والإنسانية الموجودة في انطباعات الأختام العظمية والحجرية[1].

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢١٧.

الفَصْلُ الثَّالِث

العصُورالتاريخيَة

الأموريون

يمثل الأموريون الموجة السامية الأولى التي جاءت إلى سورية من شبه الجزيرة العربية، ونحن لا نعرف الإسم الذي أطلقه الأموريون على أنفسهم، ولقد أطلق عليهم جيرانهم السومريون في الشرق تسمية «مار ـ تو» وأطلق عليهم الأكديون اسم «أمورو»، الذي يفيد معنى «الغرب»، وأطلق البابليون الإسم كله على سورية، كما سموا البحر المتوسط باسم «بحر أمورو العظيم» ويعني هذا الإسم كما ورد في التوراة «الواحد الأعلى» ذلك لأن اسم الأموريين إنما هو اسم عام يعني «ساكن البلاد الأجنبية، أو طوال القامة». والعاصمة الأمورية هي «ماري» وهي أيضاً كلمة سومرية وهي من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد «أمورو»، وكان اسم إلههم القديم «مارتو» وهو إله الحرب والصيد[1] وتقع ماري جنوب مصب نهر الخابور بالقرب من دير الزور على مبعدة ميل واحد غربي الفرات قرب قرية أبو كمال، ويقع مكانها حالياً الآن تل الحريري.

وكان أول ذكر لأرض الأموريين في عهد سرجون الأكدي (حوالي ٢٢٥٠ ق. م) الذي ذكر في نصوصه أنه «قام في مدينة توتول Tuttul بعبادة الإله داجان، الذي منحه منذ ذلك الوقت السيادة على الإقليم الأعلى،

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق، ص ٧٠.

ماري، أريا موقي Iarmuti ، وإبلا Ibla، وكذلك غابة الأرز وجبل الفضة»[1].

وتمثل هذه المدن التي أشار إليها سرجون الأكدي في نصه وهي توتول وماري وأريا موقي وإبلا مدناً رئيسية لعدة ممالك تكون وحدة جغرافية أطلق عليها التسمية «الإقليم الأعلى» وتقع ماري إلى الشمال الغربي من توتول بحوالي ١٢٥ ميلاً على نهر الفرات، وتجدر الإشارة إلى أن توتول تقع إلى الغرب من بغداد بحوالي ٩٥ ميلاً تقريباً[2].

وفي قائمة الملوك السومرية ظهرت مدينة ماري كعاصمة لأسرة تتكون من ستة ملوك حكموا لمدة ١٣٦ عاماً. وذلك قبل أسرة كيش الثالثة، في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد[3]. وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض النقوش النذرية التي عثر عليها في مدينة ماري والتي يرجح أنها ترجع إلى الفترة السابقة مباشرة لعصر سرجون الأكدي قد سجلت العديد من أسماء الملوك الذين حكموا في هذه المدينة وهم: أكو ـ شاماش Iku - Shamash ، لامجي ماري Lamgi - Mari ، أكو ـ شاماجان Iku - Shamaganوإيبلول ـ إيل - Iblul IL[4].

وعلى ذلك، فإنه عندما تمكن سرجون الأكدي من إخضاع ماري، كانت تمثل هذه المدينة مركز الإدارة لمملكة قديمة، ويؤكد ذلك ما ورد في نص النصر الذي سجله سرجون وسبقت الإشارة إليه. ولكننا لا نعرف على

---

(١) Barton, G. A., The Royal Inscriptions of Sumer and Akkd, New Haven, 1929, P. 108 F F.

(٢) Bottero, J., «Syria Before 2200 B. C.» In C. A. H., vol. I, Part II, Cambridge, 1971, PP. 322 - 323.

(٣) Jacobsen, T., The Sumerin King - List, Chicago, 1939, P. 102 F F.

(٤) Bottero, J., op. cit., P. 323.

وجه الدقة حدود هذه الدولة في زمن استيلاء سرجون عليها، ولكن يمكن القول أن حدودها امتدت حتى مدينة توتول في الجنوب، وأيار مرتي وربما كذلك إبلا في الشمال[١]. وربما في الغرب كذلك.

وفي عهد الملك شاركالي ـ شاري نجده يتباهى في نصوصه، بإنه قد تمكن من هزيمة الأموريين في باصار، ويشير اسم باصار إلى مجموعة من الجبال في الصحراء السورية العربية في اتجاه لبنان وذلك غرب دير الزور الحالية ويسمى حالياً جبل البشرى.

ثم أخذ الأموريون يظهرون بالتدريج في سورية الوسطى ولبنان وحتى في فلسطين في الجنوب، وأخذوا يثيرون المتاعب لبلاد النهرين، ولقد ورد في نصوص بعض ملوك أسرة أور الثالثة ما يوضح ذلك، فلقد أشار الملك «شو ـ سين» إلى قيامه ببناء سور أطلق عليه «حائط أمورو» وذلك فيما بين نهري دجلة والفرات ربما قرب بغداد الحالية، وذلك لصد هجمات الأموريين[٢].

وفي عهد «أيبي سين» آخر ملوك أسرة أور الثالثة، استغل حاكم ماري المدعو «إيشبي إيرا» المتاعب التي هددت أسرة أور من ناحية الشرق واستقل بالحكم وأسس أسرة حاكمة خاصة به هي التي تعرف باسم أسرة أيسن، وشمل نفوذه النصف الشمالي من أرض سومر، وأمتد إلى أملاك «أيبي سين» المتاخمة لأرض بابل[٣].

واصطنع «إيشبي إيرا» لنفسه الصفات الإلهية، وانتحل لقب «ملك سومر

---

(١) Ibid., PP. 323 - 324.

(٢) Gadd, C. J., in C. A. H., vol. I, Part II, PP. 608 - 611.

(٣) Gadd., C. J., «Baby Lonia C 2120 - 1800 B. C» In C. A. H., vol. I, Part II, PP. 361 - 362.

واكـد»، ومن أشهر ملوك هـذه الأسرة «لبت عشتـار» الذي ينسب إليـه تشريـع مكتوب وصلتنا بعض ألواح منسوخة عنه، وقد بدأت التشـريعات بـذكر ألقـاب «لبت عشتار» وأوصافه، وما قام به من أعمـال لرعاية المدن السومريـة ومقاومـة الفساد، وعمله على تحرير أبناء مدن سومر وأكد من الرق الذي فرض عليهم، ومـا تبقى من تشريعـاته يـرتبط بدعـوة تحريـر الرق، وبعض حـالات الملكيـة والمواريث والتعويض.

وقـد حكم في آيسين ١٥ ملكاً لمـدة تقرب من ٢٢٥ سنـة، وذلك حتى تمكن حاكم أسرة لارسا المسمى «ريم ـ سين» من هزيمـة أسرة آيسين وتـولى مقـاليـد الحكم فيهـا، واستمـر الـوضـع كـذلـك، حتى تمكن حمـورابي من الاستيلاء على آيسين في العام الخـامس من حكمه، وبسط سيـادته على بـلاد الأموريين[١].

ولقد تحول مركز الثقل بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد من سورية الشمـالية، حيث كـان الأموريـون يقومـون بـالـدور الأكبـر هنـاك إلى سـوريـة الوسطى، حيث قام الأموريون كذلك بالدور الرئيسي.

وفي هذه الأثناء كانت مصر قد بدأت توسعها لبناء أمبراطوريتها في عصر الدولة الحديثة، حيث جعلت جزءاً من سورية تحت سيطرتها، وبالإضـافة إلى القوة المصرية فقد ظهرت في ذلك الوقت في شمال سورية قوة أخرى فتية هي قـوة الحيثيين، وبين هاتين القـوتين انحصـرت الـدولـة الأمـوريـة في سـوريـة الوسطى، وكـانت تشمل في ذروتهـا حسبما ورد في رسـائل العمـارنة، قسمـاً كبيراً من شمال لبنان وساحله وسورية المجوفة ولبنان الشرقي ومنطقة دمشق[٢].

---

(١) أحمد أمين سليم: دراسات في تـاريخ الشـرق الأدنى القديم، مصـر والعراق وإيـران، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٩٣ ـ ٣٠١.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٧٥.

ومن الشخصيات الأمورية التي قامت بدور كبير في هذه الفترة «عبدي شرتا» وأولاده وبخاصة «عزيرو» الذين كانوا أعداء مزمنين لمصر، ربطوا أنفسهم بأعداء الفراعنة المصريين واستخدموا سلاح الكذب والنفاق والرشوة في إخفاء نواياهم وما يقومون به في سورية بينما كان الوحد منهم يستولي على مدائن فرعون الواحد تلو الأخرى، يرسل في نفس الوقت لفرعون رسائل الخضوع والعبودية، حتى لم يعد الفرعون (أمنحتب الرابع) بقادر على أن يفرق بين المخلصين من ولاته في غربي آسيا، وبين المنافقين منهم[١].

ومارس «عبدي شرتا» سياسة النفاق والمداهنة منذ عهد أمنحتب الثالث، فقد عثر على رسالة كان قد أرسلها للفرعون أمنحتب الثالث جاء فيها: «إلى الملك الشمس، سيدي، هكذا يقول عبدي شرتا، عبدك وغبار قدميك. عند قدمي الملك سيدي سبع مرات، وسبع مرات أخرى أجثوا، أنظر أنني خادم الملك، وكلب بيته، وجميع أمورو أحرسها للملك سيدي»[٢].

وفي الوقت الذي أرسل فيه الرسالة، كان يقوم بفتح المدن الفينيقية لحسابه الخاص كما ساعد الحيثيين على فتح أمكى (سهل العمق بين أنطاكية وجبال الأمانوس)، فهو كان يمالىء كلا الطرفين المصري والحيثي ليتوسع في سورية الوسطى، فبينما كان يدعي الولاء لمصر، ويتظاهر بالتعاون مع الحيثيين الفاتحين، كان في الحقيقة يحاول اكتساب مناطق جديدة لحسابه. وقد سقطت المدن الواحدة بعد الأخرى على الساحل وفي الداخل في يدي «عبدي شرتا» وابنه عزيرو، أو نهبت من قبلهما ومن قبل الذين اشتركوا معهما، فاحتل قطنة وحماة، وهدد أوس، (منطقة دمشق) ثم استولى على

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، أخناتون، عصره ودعوته الإسكندرية ١٩٧٦، ص.

(٢) Mercer, S. A. B., The Tell - EL - Amarna Tablets, Toronto, 1939, No. 60.

دمشق نفسها وأخذ أرواد وشيغانا وأريحا والبترون وغيرهما من مدن الساحل. ويبدو أن أرواد كانت ضد المصريين وذلك بسبب منافستها التجارية مع مدينة جبيل[1].

وكانت سيميرا (قد تكون سمرا الحديثة شمال مصب النهر الكبير تماماً وجنوبي طرطوس)، وكانت هي مقر الحاكم المصري بالإضافة إلى مدينة جبيل، مركز حكم الأمير الكنعاني ربعدي الذي كان ولاؤه لمصر، والذي امتدت إمارته على الساحل حتى سيميرا بالإضافة إلى جزء من الداخل، وعندما سقطت سيميرا أرسل ربعدي الرسائل لفرعون مصر أمنحتب الثالث يشكو فيها من خيانة عبدي شرتا ويطلب من الفرعون إرسال المساعدات له ولكن لم تلق كتاباته أذناً صاغية من الفرعون[2].

وأرسل فرعون مصر أمنحتب الثالث فصيلة من الجيش تمكنت من استرجاع سيميرا وإخماد الثورة مؤقتاً، ولكنها لم تتمكن من الوقوف تجاه الخطر الموجود في الشمال والمتمثل في تقدم الحثيين جنوباً، ولم يغير موت عبدي شرتا من الأمور شيئاً، فقد تابع ابنه عزيرو نفس أساليب والده، وفي أثناء ذلك وصل إلى عرش مصر الفرعون أمنحتب الرابع (أخناتون ١٣٧٧ - ١٣٥٨ ق. م)، وأخذ عزيرو وحلفاؤه يستولون على المدينة تلو الأخرى في سورية، ولا يملك الأمير المخلص لمصر ربعدي سوى إرسال رسائل النجدة للفرعون حتى أخذ يفقد الأمل، فأرسل أخته وأولادها ليلتجوا إلى صور، واضطر ربعدي أن يهرب إلى بيروت، ومنها إلى صيدا حيث وقع في قبضة عزيرو. وهكذا اضطرت مصر للتخلي عن شمال سورية وكذلك عن فينيقيا.

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق، ص ٧٦ - ٧٧.

(٢) Budge, W., The Tell El - Amarna Tablets in the British Museum, London, 1892, Nos. 12 - 25.

وتنتقل مركز الأحداث إلى الجنوب، فقد كان الحيثيون متمركزين في شمال سورية وأوسطها، وأخذت جماعات الخابيرو، وكان معها على ما يبدو الأراميون يغزون المنطقة الجنوبية وربما كان الأموريون هم الطبقة الحاكمة في الجنوب، وكانت لهم مكانة ممتازة في فلسطين قبل قدوم الإسرائيليين، وكانوا يشغلون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد المواقع الإستراتيجية ورؤوس التلال في سورية الجنوبية، وظلوا فيها حتى تمكن العبرانيون انتزاع السيادة من أيديهم.

أما عن علاقة الأموريين بالعبرانيين، فهم يظهرون في التوراة، وأنهم يحتلون جزء من بلاد يهوذا، كما يحتلون كذلك جزءاً من بلاد منطقة شرق الأردن، فقد كانوا منذ عصر إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م) أهم قبيلة في الأرض الجبلية بجنوب فلسطين كانوا يسكنون في حصون «تامار» وهي عين جدي التي تقع على مقربة من حبرون، كما أنشأوا مدناً في تل الحسي على مبدعة ١٦ ميلاً إلى الشرق من غزة، وفي «تل النجيلة» على مبعدة ١٨ ميلاً إلى الشمال الشرقي من غزة، كما بنو مدينة شعليم «شرق المعبد»، وجددوا مدينتي لخيس وجازر، وحصنوا جميع المدن وأحاطوها بأسوار. هذا فضلاً عن إقامتهم لمملكتين أموريتين في شرق الأردن، الواحدة مملكة سيمون وتقع بجانب الأردن من أرنون (وادي مؤاب) إلى يبوق (وادي الزرقا) ومن الأردن إلى الصحراء. وأما الأخرى، فهي مملكة عوج ملك باشان من يبوق حتى جبل حرمون (جبل الشيخ)[١].

ولم تترك لنا اللغة الأمورية كتابات أثرية ذات شأن، وإنما تركت أسماء أماكن وأمراء فقط، ومع ذلك فإنه يمكننا التأكد بأنها اختلفت عن اللغة

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، إسرائيل جـ ٢، الاسكندرية، ١٩٧٨، ص ٥١٢ - ٥١٣.

الكنعانية من حيث اللهجة فحسب ويمكن اعتبارها في الواقع لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية أو الفينيقية.

ولقد عبر شاعر سومري عاش قبل عام ٢٠٠٠ ق. م بقليل، حينما كانوا الأموريون يحتلون بابل، عن انتقال الأموريون من حياة الرعي إلى حياة الاستقرار بصورة شعرية قارن فيها بين حالتهم في مرحلة الرعي، وحضارتهم في مرحلة الاستقرار فقال حسبما يذكر فيليب حتى[1]:

بالنسبة للأموري السلاح هو رفيقه.
. . . فلا يعرف الخضوع
وهو يأكل لحماً غير مطبوخ
وفي حياته كلها لا يملك بيتاً
وهو لا يدفن صديقه أو رفيقه إذا مات
(والآن) مارتو يملك بيتاً. . .
(والآن) مارتو يملك حبوباً. . .

وفيما يتصل بالفكر الديني عند الأموريين، فيلاحظ أن الديانة الأمورية في أول الأمر لم تختلف غالباً عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين التي كانت شائعة بين الرحل في بادية الشام وبلاد العرب، وكان الإله الرئيسي لهم هو أمورو الذي كان آله القبيلة وآله الحرب، وعبد بجانبه عدد من الآلهة الأخرى مثل: حدد آله المطر والعواصف ورشف وله بعض الصلة بالنار، وكذلك دجن وكان لأمور زوجة هي عاشرة وتتصف بحب المسرات والنشاط.

ومن الطقوس البارزة التي أدخلها الأموريون إلى جنوبي سورية العمود المقدس الذي كان يمثل على ما يبدو القبيلة، وأدخلوا كذلك عادة التضحية

---

(١) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٧١.

عند تأسيس الأماكن ومن أقدم الإشارات إلى التضحية عند التأسيس، إشارة وردت في أحد الأشعار السومرية، وهي تتصل بالشعر الآنف ذكره، وجاء فيها أن الأموري كان يبني ساحة معبده على رجل ميت.

وقد اكتشف أندريه بارو في عام ١٩٢٣ م، حوالي عشرين ألف لوحة فخارية، مكتوبة بالخط المسماري، وتمثل هذه الألواح محفوظات الملك «زمري ليم» (حوالي ١٧٣٠ ـ ١٧٠٠ ق. م) آخر ملوك ماري الذي قضى على دولته الملك حمورابي. واللغة التي كتبت بها هذه الألواح اللغة الأكدية في معظم الأحيان، غير أن مفرداتها ومميزاتها الصرفية والنحوية لا تترك مجالاً للشك بأن الذين كتبوا هذه الألواح تكلموا الأمورية أو اللغة السامية الغربية المختلفة عن الأكادية أو السامية الشرقية[1]. وأمكن من دراسة هذه الألواح معرفة بعض الأحوال السياسية والاقتصادية والإدارية عند الأموريين في هذا العهد.

ومما هو جدير بالذكر أن قصر الملك «زمري ليم» الذي عثر فيه على هذه الوثائق كان يضم حوالي ٣٠٠ غرفة، حليت جدرانها بألواح ذات إطارات، زينت برسوم متقنة للرجال والآلهة وعثر في القصر على غرفتين مزودتان بالمقاعد وتشبهان غرف التدريس ومن بين المناظر المصورة، رسم ملون بألوان زاهية يمثل الملك وهو يتسلم من عشتار لأموز السلطة.

---

(١) Parrot, A., «Les Peintures du Palais de Mari» In Syria, vol. XVIII (1937), PP. 324 - 354.,
Parrot, A., «Les Fouilles de Mari», In Syria, vol. XIX (1938), PP. 1 - 29., vol. XX (1939), PP. 1 - 22.

الكنعانيون الفينيقيون

يمثل الكنعانيون الجماعة السامية الثانية التي قامت بدور هام في تـاريخ وحضارة الإقليم السوري، وقد قدموا إلى سورية مع الأمـوريين أو في أعقابهم مباشرة، وتنتمي هاتين المجموعتين - الأمـورية والكنعـانية - إلى أصـل واحد، كما تشابهت لغاتهم إلى حد بعيد.

وقبـل دراسة تـاريخ الكنعـانيين وحضارتهم، فـإننـا سنناقش أولاً أصـل تسميتهم والموطن الذي قدموا منه، وتاريخ دخولهم إلى الإقليم السوري.

وفيمـا يتصـل بـالمـوضـوع الأول، وهـو أصـل تسميتهم، فقـد اختلف المؤرخون في أصل كلمة «كنعان»، فاتجه البعض إلى أن أسمها سامي، وأنهم سمـوا بالكنعـانيين، نسبة إلى جـدهم الأول «كنعان» وذلـك جـريـاً على عـادة العـرب في تسمية قبـائلهم، ويتجه أصحـاب هذا الـرأي أن بني كنعان كـانـوا يقيمـون في أرضهم السهلة على سـاحـل الخليـج العـربي، وقـد نسبت إليهم وسميت بأرض كنعان، ومنـذ نزولهم حملوا معهم أسمهم واسم بـلادهم الذي أعطوه لوطنهم الجديد. ورأى آخرون أنها مشتقـة من أصل سـامي هو (خنـع - قنـع - كنـع) إشـارة إلى الصفـة ومنهـا مجـازاً الأراضي الخفيضـة، فسمـوا بـالكنعانيين أي سكـان المنخفض، ويتصل بـذلك أن الأصـل العبري لكلمـة كنعـان (ك. ن. ع) إنمـا يعني انخفض أو منخفض، فـالكنعـانيـون إذن اسم يعني «سكان المنخفض»[1].

ويتجه آخرون إلى أن أصل كلمة كنعان إنما هو مشتق من كلمة حورية، هي كنـاجي. وتعني الصباغـة القـرمـزيـة التي اشتهـروا بهـا، عنـدمـا اتصـل الحوريون بهذه البلاد في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد، ومنها

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ المدن الفينيقية، ص ٤٩.

اشتقت الكلمة الأكادية «كناجي» «أو كينـاخي» كما ورد في رسـائل العمـارنة، وبالفينيقية كنع، وكلها مسميات تدل على الحمـرة الأرجـوانية.

وبعـد أن اتصل الإغـريق بهذه الشعـوب السـامية، أطلقـوا عليهـا اسم «فينكس» أي أحمر أرجواني، وهـو يشير إلى الصنـاعة نفسهـا. وبعد أن أطلق اليـونان هـذا الاسم على الكنعـانيين أصبحت بعـد حـوالي عـام ١٢٠٠ ق. م مـرادفة للكنـعاني (١)، وأصبحت الكلماتان تعنيـان على الأغلب شيئـاً واحـداً، وهكذا اتفقت التسمية السامية القديمة، والتسمية اليونانية في أن تربط بين هذه الشعوب وبين اللون الأحمر، والواقع أن هـذه المدن السـاحلية على شـواطىء البحر المتوسط تخصصت منـذ عرفت في صنـاعة نـوع من الصبغة الأرجـوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة تكثر قرب شواطئها، ومن هنا جـاءت نسبتهـا إلى اللون الأحمـر، وهكـذا كـانت تسميتهم القـديمـة بـالكنعـانيين، وبالإغريقية الفينيقيين، وكـلاهما علم على شعب سامي واحد.

ويذكر أستاذنا الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور أن المصـري القديم قـد استعمل كلمـة «فنخو» منـذ عصر الـدولة القـديمة للدلالـة على شعب من الإقليم السـوري، كـذلـك ورد اسم الفينيقيين كشعب واسـم فينيقيـا كبـلاد أو منـطقة في كتـابات اليـونان منـذ أيام هـومير أو قبـل ذلـك حيث استعمـل لفظ فينكس كدلالة جنسية، وإن كان أصـلاً يعني اللون الأحمر القـاتم أو الأرجوان أو اللون البني الذي وصف به النخيل أو الجماعات الكنعانية ذات البشرة التي لونها بني. والذي يرى بعض الباحثين أن اليونان استخدموا هذا اللفظ كـدلالة

---

(١) Albrigth, W. F., «The Role of the Canaanites in the History of Civilization», Studies in the History of Culture, 1942, P. 25.,

Bonfante, G., «The Name of the Phoenicians», In Classical Philology, vol. XXXVI (1941), P. 1 FF.

جنسية أطلقوه على الفينيقيين لشهرتهم في صباغة المنسوجات بهذا اللون والإتجار فيها.

ويتجه الأستاذ الدكتور عصفور إلى ترجيح كون اليونان قد استعملوا الكلمة المصرية «فنخو» بعد تحريفها إلى Phoivikes للدلالة على فينيقيا و (Phoivikm) للدلالة على الفينيقيين[1].

وقد أطلق اسم كنعان في أول الأمر على الساحل وغربي فلسطين، ثم أصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية، وكان هذا أول اسم لفلسطين وجميع الأسماء الأخرى أقل أهمية، وفي وثائق العهد القديم الأول، أطلق اسم كنعان بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد في غرب البلاد، بدون أي مدلول جنسي، وتعبير لغة كنعان كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية[2].

وفيما يتعلق بالموطن الذي قدموا منه، فإن هيرودوت يذكر ـ نقلاً عن الفينيقيين ـ أنهم مهاجرون من أرتيريا، سواء قصد بهذه العبارة الجنوب الغربي وساحل الحبشة، أم منطقة الخليج في الشمال الشرقي للهضبة العربية، وأنهم قد وصلوا أولاً إلى بلاد العرب الصخرية شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم النقب ليأخذوا طريقهم بمحازاة الساحل إلى لبنان وسورية.

ويشير الجغرافي الروماني «سترابو» إلى أن مقابر البحرين في الخليج العربي إنما تتشابه ومقابر الفينيقيين، وأن سكان جزر البحرين يذكرون أن أسماء جزائرهم إنما هي أسماء فينيقية وأن في مدنهم هياكل تشبه الهياكل الفينيقية، كما أن هناك أسماء في شرق الجزيرة العربية تمثل نفس أسماء المدن، التي أنشأها الفينيقيون على الساحل السوري مثل «صور» على ساحل

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٨٧.

عمان، و«جبيل» على ساحل الأحساء وأوروواد «وهو الاسم القديم لجزيرة المحرق». هذا فضلاً عن أن هناك من رأى أن الفينيقيين قد انطلقوا من البحرين إلى البصرة، متخذين طريق الهلال الخصيب إلى الساحل السوري، حيث بنوا مدنهم هناك.

وعلى أية حال ـ فإن التعبير التوراتي «أرض كنعان» إنما يغطي كل فلسطين غرب الأردن، وأن الكنعانيون قوم ساميون وليسوا حاميين، كما أراد سفر التكوين أن يجعلهم، وأنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية، سواء من شرقها أو شمالها، أو حتى من جنوبها، وسكنوا فلسطين وأقاموا بها حضارة راقية، كذلك فإن جزءاً من الكنعانيين إنما انتقلوا إلى الساحل السوري للبحر المتوسط، حيث عرفوا هناك بالفينيقيين وهم بهذا إنما يمثلون ـ على هذه الصورة ـ امتداداً كنعانياً نحو الساحل[1].

لم تمكن طبيعة المنطقة التي عاش فيها الكنعانيون من تأسيس دولة قوية موحدة، نظراً لموقعها الإستراتيجي بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في وادي النيل في مصر، وبلاد ما بين النهرين، وآسيا الصغرى، وعلى ذلك فقد انتظموا في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك وتجمعت حول مدن محصنة تحيط بها أسوار ذات شرفات وأبراج للدفاع عنها ويلجأ إليها سكان الريف المجاورين في وقت الخطر، وكانت تمثل في وقت السلم المركز الاجتماعي والسوق، واحتلت بعض هذه الجماعات إلى جانب أماكن استقرارها على الساحل، جزراً صغيرة في مواجهتها حتى إذا ما اشتد الهجوم عليها التجأت إلى تلك الجزر التي كانت محصنة هي الأخرى أي أن هذه الجماعات كانت تتبع وسائل دفاع مزدوجة استطاعت بفضلها بعض مدنهم أن تقاوم طويلاً هجمات كثيرة تعرضت لها، ووقفت صامدة أمام الغزاة رغم حصارهم لها سنوات متتالية.

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٤٥ ـ ٤٨.

وكثيراً ما كان يكثر التطاحن بين هذه المدن وتنشب الحروب بينها، ومع ذلك فإنها كثيراً ما كانت تتحد أمام المهاجمين من الشعوب الأخرى وقد تحصل إحداها على الزعامة وتتمتع بنوع من السيادة على المدن الأخرى ولكن هذه الأحلاف كانت لا تستمر طويلاً لانقضاء الغرض منها أو محاولة إحداها استغلاله لمصلحتها.

وانتشرت المدن الكنعانية الأولى على طول الساحل من جبل كاسيوس في الشمال حتى الكرمل في الجنوب، وأدت تعرجات الشاطىء السوري القليلة إلى قلة عدد الموانىء الطبيعية، ولم تشكل جبال أمانوس وكاسيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب درعاً حامياً ضد الهجمات التي تعرضت لها المدن الواقعة في هذه المناطق وذلك على عكس ما قامت به جبال لبنان المرتفعة وعلى ذلك فإننا نلاحظ أن المدن التي ازدهرت وقدر لها البقاء، هي تلك التي وجدت على سفح جبل لبنان مثل طرابلس والبترون وجبيل وبيروت وصيدا وصور.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه المدن كانت صغيرة في مساحتها، فقد بلغت مساحة أكبر المدن فيها مثل صور بين خمسة عشر وستة عشر فداناً بينما وصلت مساحة أريحا إلى ستة أفدنة فقط وسنتناول فيما يلي بالدراسة بعض هذه المدن على ساحل البحر المتوسط وذلك من الشمال إلى الجنوب.

ومن أولى هذه المدن الواقعة في شمال الساحل السوري مدينة أوجاريت[1] والتي عثر على تل فيها وهو (تل رأس الشمرة) الذي يقع على

---

(١) يلاحظ أن اسم «أوجاريت» لا يرجع إلى أصل سامي. أنظر:

Drower, M. S., «Syria Before 2200 B. C.» In C. A. H., vol. I, Part I, P. 321.

وربما كان لهذا الاسم مشتق من كلمة «أوجارو» التي تعني الحقل، إذ يحيط بهذه المدينة حقول خصبة جداً.

بعد كيلو متر تقريباً شرقي البحر، وعلى بعد حوالي تسعة أميال ونصف شمالي مدينة اللاذقية، ويوجد تل رأس الشمرة، الذي سمي بهذا الاسم بسبب النبتة المسماة «الشمرة» التي تكسو سطحه حتى اليوم بين ساقيتين الأولى تحمل اسم نهر شبيب والثانية اسم نهر شيخ عاصي اللتين تلتقيان غربي التل فيتألف منهما نهر الفيض الذي يصب في خليج «مينة البيضا» ويشبه شكل التل شبه منحرف يبلغ طول قطره من الشمال إلى الجنوب ٦٠٠ متراً، ومن الشرق إلى الغرب ٥٨٠ متراً وتبلغ مساحته ٣٦٠ ألف متر مربع وهو يرتفع عن مستوى الأراضي المجاورة بحوالي ثمانية عشر متراً[1].

وكشفت الصدفة عن هذا الموقع حينما كان أحد الفلاحين من أهالي منطقة برج المتصعب يحرث حقله بالقرب من خليج «مينة البيضاء» غربي تل رأس الشمرة وذلك في أحد أيام عام ١٩٢٨ عندما لاحظ أن المحراث يصطدم بشيء صلب وتعاون مع بعض الأهالي على حفر الأرض فشاهدوا تحت التراب بعض القطع الحجرية الضخمة، وعندما رفعوها وجدوا تحتها مدفناً مبنياً بالحجر المصقول وفي داخله كمية من الأوعية الفخارية ووصل خبر هذا الكشف إلى السلطة المحلية في اللاذقية التابعة للحماية الفرنسية، فأبلغت دائرة الآثار وكان مركزها حينئذ في بيروت، فأوفدت أحد العاملين بها لدراسة هذا الموقع، وكان للتقرير الذي كتب عن هذا الموقع أثره في أن قرر «مجمع المدونات والآداب» في باريس إجراء حفريات في هذا الموقع فأرسل بعثة أثرية برئاسة كلورشيفر.

وصل كلورشيفر إلى الموقع في عام ١٩٢٩ م، وفي ذلك الوقت جاء إلى الموقع عالم الآثار الفرنسي رينيه دوسو، الذي لاحظ التل الذي يقع على بعد كيلو متر واحد تقريباً شرقي الخليج، فرجح أن تكون أنقاض المدينة

---

(١) جبرائيل سعادة: رأس الشمرة ـ أوجاريت، اللاذقية، ١٩٦٨، ص ٥ ـ ٦.

القديمة توجد فيه، وأن الآثار التي ظهرت في الحقل ليست سوى المباني العائدة لمرفأ المدينة، وهكذا انتقلت أعمال الحفريات إلى التل (تل رأس الشمرا) واستمرت الحفريات تجري في ربيع كل عام حتى عام ١٩٣٩ [١] عندما قامت الحرب العالمية الثانية واستأنفت البعثة الفرنسية الحفائر مرة أخرى عام ١٩٤٨ ولكن تحت إشراف المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، التي أخذت تنشر نتائج حفريات كل موسم في مجلة «الحوليات الأثرية العربية السورية» واستمرت الحفائر في هذا الموقع حتى عام ١٩٦٦.

وأسفرت عمليات الحفر الأثري في موقع تل رأس الشمرة عن العثور عن أدوات حجرية ترجع إلى طراز الحضارة الإيفيلية (الشيلية) وهي من طراز أقدم حضارات العصر الحجري القديم، ويشير هذا الكشف إلى أن هذا الموقع كان مأهولاً بالسكان منذ هذا العصر المبكر وتعلو هذه الطبقة، طبقة أخرى عثر فيها على آثار تنتمي إلى العصر الحجري الحديث وقد عثر فيها على أواني فخارية تزينها بعض الثقوب أو الخدوش ويلي هذه الطبقة، طبقة أخرى عثر فيها على فخار مزين برسوم ملونة وتؤرخ هذه الطبقة بعصر الحجر والنحاس، وتعلو هذه الطبقة طبقة تحتوي على فخار يماثل الفخار الذي عثر عليه في كل حضارة العبيد وجمدة نصر في العراق القديم ويؤرخ هذا الفخار بفترة ما قبل الأسرات في العراق ويمكن أن ترجع هذه الطبقة إلى الألف الرابع وجزء كبير من الألف الثالث قبل الميلاد.

وبالإضافة إلى هذه المكتشفات فقد كشف عن فخار كنعاني يتمثل في قدور ذات قواعد مسطحة تحليها زخرفة في هيئة المشط، وعثر كذلك على أواني مصنوعة من الطمي المموه بالميناء وتشبه هذه الأواني كما يذكر الأستاذ

---

(١) نشر نتائج حفائره في:

Shaeffer, C. F. A., «Ugaritica, 1 - III, Paris», 1939 - 56.

الدكتور عصفور الأواني القبرصية التي ترجع إلى العصر البرونزي القديم، وهي أواني نصف دائرية[1].

وأسفرت الحفائر التي أجريت في هذا الموقع منذ عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٦٦ م عن الكشف عن ربعه تقريباً إلا أنه من خلال هذا الكشف يمكن تكوين فكرة عن وضع المدينة خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ويتضح من الآثار التي كشف عنها أن هذه المدينة وصلت إلى درجة كبيرة من العمران والعظمة، كما حوت مقابرها الكثير من الأثاث الجنزي وأدوات الزينة التي جلب بعضها من مناطق خارجية.

ولقد سيطر الحوريون على أوجاريت وذلك أثناء احتلال الهكسوس لمصر، وبعد أن تمكن فراعنة مصر من طرد الهكسوس وبدأوا في اتخاذ سياسة جديدة مؤداها أن الدفاع عن مصر يبدأ من سوريا، ومن ثم فقد عملوا على تكوين الأمبراطورية المصرية التي كانت في جوهرها امبراطورية دفاعية، ولقد بسطت مصر سيطرتها على أوجاريت، ونتيجة للتقارب المصري الميتاني فقد نعمت أوجاريت بفترة من أزهى عصورها وتؤرخ هذه الفترة تقريباً من منتصف القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ومن الملوك الذين وصلتنا بعض المعلومات عنهم الملك نقماد الثاني الذي حكم على وجه التقريب من حوالي عام ١٣٦٠ ـ ١٣٣٠ ق. م، ويتضح من الوثائق التي ترجع إلى هذا العهد أن مملكة أوجاريت كانت تمتد من جبل الأقرع شمالاً حتى سهل جبلة الحالي جنوباً، وأن ميناء المدينة كان مركزاً هاماً للتبادل الخارجي، وكان نقماد هذا تابعاً للحيثيين. وعندما قام رعمسيس الثاني في الأسرة التاسعة عشرة المصرية بمحاولة استرداد أملاك

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٢٦.

مصر في سورية وحدثت بينه وبين الحيثيين والأمراء الموالين لهم موقعة قادش، نرى حكام أوجاريت ينضمون إلى الحيثيين.

وكان آخر ملوك أوجاريت يحمل اسم حمورابي، وكان يحكم حينما خربت حوالي عام ١١٨٠ ق. م، أثناء إغارة شعوب البحر التي أسقطت الدولة الحيثية وحاولت غزو مصر، إلا أن فرعون مصر الملك رعمسيس الثالث تمكن من هزيمتهم، وخلص العالم القديم حينئذ من شرورهم إلا أنه يلاحظ أن بعد هذا التخريب الذي تعرضت له أوجاريت لم تقم لها قائمة بعد ذلك.

ومن المدن الفينيقية التي تمتعت بخط دفاعي مزدوج مدينة «أرواد» التي أطلق عليها الصليبيون طرطوس، وكان مواطنوها يحتلون موقعين الواحد في البر حيث كانوا يقومون بالزراعة أو التجارة مع المناطق الداخلية والآخر في جزر صغيرة مجاورة يلجأون إليها كلما تعرضت مدينتهم لخطر وكانوا يخزنون مياه الأمطار في صهاريج في هذه الجزيرة وذلك بالإضافة إلى مياه ينبوع تحت البحر وذلك حتى يستخدموها أثناء لجوئهم إلى هذه الجزيرة.

ومما هو جدير بالذكر أن معلوماتنا التاريخية عن مدينة أرواد نحصل عليها من مصادر غير فينيقية، ولقد كانت أرواد من بين المدن السورية التي تعرضت لتخريب شعوب البحر، وبعد ذلك وقعت تحت أطماع الملوك الأشوريين الذين فرضوا عليها الجزية، وعندما جاء الإسكندر الأكبر إلى الشرق واتجه إلى سورية كانت أرواد من بين المدن الفينيقية الرئيسية التي فتحت أبوابها له.

وقامت جبيل (أطلق عليها المصريون "كبنه، كبن، كبني"، وسماها اليونان بيبلوس، وأطلقت عليها التوراة جبال) بدور كبير على الساحل الفينيقي، وخاصة في صلاتها الخارجية بمصر وتشغل جبيل منطقة ممتازة من الناحية الطبيعية، فهي تقع على قمة صخرية منخفضة يحيط بها سهل خصب ويوجد خلفها غابات كثيفة.

وأوضحت الكشوف الآثارية التي أجريت في جبيل أنها كانت من المدن القديمة والمأهولة بالسكان في الشرق الأدنى القديم[1].

ولقد عثر على آثار من العصر الحجري القديم في كهوف في أسفل التلال، وعثر فيها على آثار قرية للصيادين ترجع إلى العصر الحجري الحديث، ومن عصر الحجر والنحاس كذلك. وكشفت الحفائر الأثرية التي أجريت بها عن الكشف عن آثار ترجع إلى مختلف العصور وذلك ابتداءً من الألف الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلادي. ويتضح من ذلك أن هذه المدينة ظلت أهلة بالسكان منذ أقدم العصور، وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجاري هام فنشأت بينها وبين جيرانها علاقات وثيقة.

وفيما يتصل بالعلاقات بين مصر وجبيل، فتشير الأساطير المصرية والآثار التي كشف عنها عن عمق هذه العلاقات وامتدادها الطويل منذ عصور سحيقة، فتشير أسطورة أوزير وست إلى أن ست بعد أن تمكن من التخلص من أخيه أوزير ووضعه في تابوت وألقى بالتابوت في البحر فقد جرفه التيار إلى ميناء جبيل حيث رمته الأمواج بين فرعي شجرة نمت بحيث تتضمنت الجثمان بين طياتها وحين شاهد ملك جبيل هذه الشجرة أعجب بضخامتها وأمر بقطعها وجعلها أحد أعمدة قصره، ولما علمت أيزه بمصير زوجها وأخيها أوزير وصلت إلى جبيل، واحتالت حتى دخلت القصر ثم أذن لها الملك بحمل العمود الذي يحوي جثة أوزير وعادت به مرة ثانية إلى مصر، ومع كون أحداث هذه الأسطورة لا تتمشى كثيراً مع المنطق إلا أنها من غير شك تحوي الكثير من الدلالات التاريخية الهامة في هذا المجال، فهي تشير إلى وجود علاقات بين مصر وجبيل وأن المصريين كانوا على صلة بهذا الميناء ومعرفة به منذ عصور سحيقة.

---

(١) Drower, M. S., op. cit., P. 343 FF.

وعثر على بعض الأدلة الأثرية التي ترجح وجود علاقات بين مصر وجبيل[1] منذ عصر الحجر والنحاس، إذ عثر على بعض قطع خشبية استخدمت كأسقف لبعض مقابر البداري وتبين أن هذه الأخشاب من خشب الأرز، وفي عصر الأسرة الثانية عشر في أنقاض معبد في جبيل على أواني قرابين تحمل اسم الملك خع سخموي آخر ملوك الأسرة الثانية، كما عثر على أختام أسطوانية من الأسرة الثالثة، وعثر على أسماء الملك خوفو ومنكاورع من الأسرة الرابعة، والملك ونيس آخر ملوك الأسرة الخامسة والملوك تتي وببي الثاني من الأسرة السادسة، ومن ناحية أخرى فقد أحضر المصريون أخشاب الأرز من لبنان حيث استخدمت في أسقف المقابر وصناعة المراكب والأثاث، ولعل من أبرز الأدلة على ذلك ما ذكره حجر بالرمو من إحضار الملك سنفرو لأربعين سفينة محملة بالأخشاب من جبيل، وتشير قصة سنوهي في بداية عصر الأسرة الثانية عشرة إلى وجود نفوذ مصري قوي في جبيل في هذا العصر، ثم خضعت جبيل للسيادة المصرية في عصر الأسرة الثامنة عشرة، وبعد ظهور قوة الحيثيين وتدخلها في أمور سوريا كان حاكم جبيل من الحكام الموالين لمصر وأخذ النفوذ يتأرجح في جبيل خلال عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين إلى أن انحصر عنها في عهد الأسرة الحادية عشرة والعشرين، وهو ما تعبر عنه بأسلوب أدبي بليغ قصة رحلة الكاهن وني آمون إلى لبنان.

وقدمت جبيل الجزية للعاهل الأشوري تجلات بلاسر الأول (١١١٦ ـ

(١) أنظر:

Montet, P., «Notes et documents pour Servir a L'histoire des relations entre L'ancienne Egypte et La Syrie», In Kemi, 1, 1928, P. 83 F F.,

Montet, P., Byblos et L'Egypte, Paris, 1928.,

Ward, W. A., «Relations between Egypt and the eastern Mediterranean From Pre historic Times to the End of the Middle Kingdom», In J. E. S. H. O., vol. 6 (1962), P. 1 F F.

١٠٩٠ ق. م) تقريباً وذلك حينما اجتاح جنوب الإقليم السوري بهدف الحصول على أخشاب الأرز.

ومن ملوك جبيل الذين وصلتنا معلومات عنهم: أحيرام، أيتوبعل، أبي بعل، بيحي ملك، إيلي بعل، شيبيت بعل، الذين يرجح أنهم قد حكموا من حوالي القرن العاشر قبل الميلاد إلى بداية القرن الثامن قبل الميلاد.

وكانت صور الواقعة على جزيرة صغيرة، مبنية بنفس الشكل الذي بنيت به أرواد، واتصلت الجزيرة بالبر بواسطة سد طوله نصف ميل، وقد شيده الإسكندر أثناء حصاره لها. وأظهرت الحفريات التي أجريت في هذا الموقع أن المرفأ الرئيسي كان في الجهة الجنوبية للجزيرة، وأن الرصيف الذي كان يحميه طوله ٧٥٠ متراً وسمكه ثمانية أمتار، وأن أسوار المدينة كانت تشرف على هذه المجموعة كلها مع أبراج في كل صف، ويعتقد أن هذه المنشآت قد شيدت في عهد الملك أحيرام الذي كان معاصراً لسليمان عليه السلام، الذي بلغت المدينة في عهده ذروة مجدها. وجعل هذا صور من أقوى الموانىء في شرقي البحر المتوسط، ويلاحظ أن دولة صور قد اعتمدت دوماً على التجارة في مصدر ثرائها وليس على الأرض. وتوضح بعض الأدلة الأثرية أنهم كانوا يتوغلون أحياناً في داخل البلاد المطلة على السواحل إذا ما أتيح لهم ذلك، فيظهر منظر في إحدى مقابر طيبه وصول سفينة فينيقية تجارية إلى طيبه[١].

أما صيدا، فهي نقع على رأس جبلي اختير بسبب موقعه الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغيرة المتصلة بعضها ببعض بأرصفة اصطناعية، وكان هذا المرفأ يقع إلى جهة الشمال وفي الجنوب كان يوجد مرفأ آخر يسمى المرفأ المصري وهو أكبر من الشمالي ولكنه ليس أميناً مثله، وكان يحمي المدينة من جهة البر سور[٢].

---

(١) Hall, H. R., The Ancient History of the Near East, London, 1963, P. 293.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٩١.

وربما كانت عكا أقصى مراكز الاستقرار الفينيقية جنوباً، ولا نعلم الكثير عن تاريخها القديم، ولكنها كمعظم المدن الفينيقية تعرضت لغزوات مختلفة من أهمها تلك التي استولى فيها سنحريب عليها في حملته الثالثة، وتلك التي أخضعها فيها أشوربا نيبال بعد ثورتها ضده.

وللتغلب المؤقت على عزلة ممالك المدن السياسية، كانت تحصل إحدى المدن على الزعامة، ويصبح لها سيادة على سائر المدن، وتتطلب المصالح المشتركة الاتحاد اختيارياً في بعض الأحيان، ومن بين المدن التي حصلت على هذه السيادة أوجاريت في أواخر القرن السادس عشر وجبيل في القرن الرابع عشر، وصيدا بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر، وصور بعد القرن الحادي عشر وطرابلس في القرن الخامس.

وفيما يتصل بالنشاط البحري والتوسع الفينيقي[1]، فلقد ساعدت الظروف الطبيعية والحضارية للمدن الفينيقية على اتجاه الفينيقيين للبحر، فلقد تمكنوا من استخراج نوع من الأصباغ من بعض الأصداف، كان يصبغون بها منسوجاتهم التي تزايد الإقبال عليها واشتهرت باسم «الأرجوان» ولم يكتف الفينيقيون بالحصول على هذه الأصداف من سواحلهم بل كانوا يجلبونها أيضاً من سواحل بعيدة. وأدى تنقلهم في البحر إلى تبادل التجارة مع الأماكن التي ترسو سفنهم على سواحلها، وشيئاً فشيئاً أنشأوا مراكز تجارية لهم ومراكز استيطان تتوافر لهم فيها وسائل المعيشة والأمن.

ونتيجة لكون التوسع الفينيقي كان عن طريق البحر، فقد أصبحت مراكز الاستيطان الداخلية ذات أهمية ثانوية، وكانوا يحرصون أن تكون هذه المراكز

(١) أنظر: رشيد الناضوري: المغرب الكبير، جـ ١، بيروت، ١٩٨١. وكذلك فيليب حتي: نفس المرجع السابق، ص ١٠٤ وما بعدها.

Harden, D., The Phoenicians, London, 1963.

في مرتفعات حتى يسهل الدفاع عنها، وتكفل الحماية للطرق الساحلية. ويحتمل أن هذا التوسع الفينيقي قد بدأ في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وذلك في أعقاب هجمات شعوب البحر على سوريا، وقبل ظهور اليونان.

لقد كان الفينيقيون يبنون ويؤسسون المستعمرات أينما ذهبوا، وكان لا يثيرون الشكوك حولهم في المناطق الجديدة، وتطورت المراكز التجارية الواحد بعد الآخر إلى مراكز للسكن وتطورت هذه المستعمرات، واتصلت هذه المستعمرات بعضها ببعض وبالمدن الأصلية الأم بطرق الملاحة.

ومن أهم المستعمرات الفينيقية، قبرص التي تميزت بقربها من الوطن الأم، فأصبح التبادل بينهما سائداً إلى درجة أنه كان من العسير التمييز بين ما هو فينيقي وما هو قبرصي الأصل وخاصة في ميدان الفن، وكانت أكبر المستوطنات الفينيقية في قبرص هي كيتون، وكانت معظم المستعمرات الفينيقية في إسبانيا تقع في قرشيش، وهذا الاسم اسم فينيقي يعني المنجم أو مكان الصهر، أما أشهر هذه المستعمرات فهي قرطاجة التي وصلت إلى ذروتها في القرن الثامن حيث نافست الوطن الأم، وبلغ من سيادة قرطاجة التجارية والسياسية أن أمبراطوريتها القوية امتدت في القرن السادس من حدود ليبيا إلى أعمدة هيركوليس (رأس صخري عند مضيق جبل طارق) وضمت جزر الباليار ومالطة وسردينيا وبعض مواقع على ساحل إسبانيا. وانتهت قرطاجة عام ١٤٦ ق. م، عندما تركها القائد الروماني طعمة النيران لمدة سبعة عشر يوماً حتى أخفت موقعها كومة من الرماد، ثم اعملوا المحراث في أرضها.

الآراميون *

يمثل الآراميون الموجة الثالثة من موجات الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية بعد موجة الآراميين والكنعانيين، وكانوا في أول الأمر يجوبون أنحاء الجزيرة من جهة الشمال ويتحركون إلى الشرق من ناحية العراق، وإلى الغرب من ناحية سورية، حتى بدأوا يستقرون في العراق الأوسط.

وهناك من المؤرخين من يتجه إلى القول بأن الموطن الأصلي للآراميين إنما كان في الصحراء العربية السورية، أو منطقة الهلال الخصيب، ويرون أن قيام دولة آرامية اتخذت من دمشق عاصمة لها، ومدت نفوذها على شمال الشام وإقليم الجزيرة إنما كان من وراء هذا الاتجاه، إلا أن المرجح كما سبق القول بأن موطن الآراميين الأصلي إنما كان في شبه الجزيرة العربية.

وهكذا كان الآراميون، قبل أن يستقروا في مواطنهم الجديدة ويكونوا إمارات ودويلات صغيرة منتشرين في البادية انتشاراً واسعاً، حيث كانوا ينتقلون بين نجد في الجنوب، وحدود الشام في الشمال، ونهر الفرات في الشرق وخليج العقبة في الغرب. وأما متى تمت هذه الهجرة الآرامية، فليس لدى العلماء أدلة تصل إلى حد اليقين بالنسبة لهذه المشكلة وإن كان البعض يرجح أن تكون قد تمت قبل القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

أما عن التسمية وهي «أرام» فقد اتجه البعض إلى الاعتقاد بأنها تعني مخلوقات ورأى آخرون بأنه اسم أو لقب إله، ويذهب آخرون أنه اسم الشعب وليس منطقة، وأنه يعني سكان البلاد المرتفعة أو العالية، ويلاحظ أن البعض يطلق هذه التسمية على الشعوب السامية التي تناثرت وتتابعت في منطقة الهلال الخصيب. وإن كان البعض يتجه إلى القول بأن الذين حملوا اسم «أرام» وأطلقوه على السكان الآراميين في سورية، إنما هم الحيثيون الذين

كانوا على اتصال بأراضي أعالي الدجلة والفرات، ثم سيطروا على سورية، وفي تلك الأثناء نقلوا الاسم إلى سورية من أعالي الدجلة والفرات.

ولقد ذكر الآراميون مع الأخلامو بصورة وثيقة في شمال بلاد الرافدين، ومن هذه النقوش التي أشارت إليهم نقش للملك الأشوري أرك دين إيل يتحدث فيه عن انتصاراته على جماعات الأخلامو، وجاء في نص للملك تجلات بلاسر الأول ربط ما بين الأخلامو والآراميين فقد أشار إلى أنه قد «زحف إلى وسط الأخلامو ـ الآراميين أعداء الإله أشور»[1] كما أشارت رسائل العمارنة إليهم وذلك في عهد الفرعون المصري أخناتون. وأدى تكرار الاسمين معاً إلى جذب انتباه العلماء لهذه الظاهرة، فاتجه البعض إلى الاعتقاد بأن الآراميين فرع من الأخلامو، وأن كلمة الأخلامو إنما تعني حلفاء، لأن أصل الكلمة العربية (خلم) بكسر الخاء تفيد معنى صديق أو صاحب وجمعها (أخلام وخلماء) ويرى آخرون أن كلمة خلم لا تعني في هذا الموضع حليف، ويرون أنه إنما كان اسماً يطلق على قبيلة من القبائل البدوية ثم توسع في استعمال الاسم، وإن كان يمكن اعتبار كلمة أخلامو، إنما تعني المتحالفين، وهنا يبدو أن الآراميين إنما كانوا جزءاً من هذا التحالف[2].

ولقد وردت العديد من الإشارات إلى الآراميين في الوثائق العراقية وذلك منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وإن كان هناك نقش يرجع إلى الملك الأكدي نارام سن (٢٢٩١ ـ ٢٢٥٣ ق. م) ذكر فيه إقليماً يدعى آرام، ويبدو من سياق النص أن آرام هذه كانت تقع في الجزء الأعلى من أراضي الرافدين، ولكن تفسير هذا النقش ليس مؤكداً على وجه اليقين، ثم ظهر اسم

---

(١) Luckenbill, vol. I, P. 239.

(٢) سبينو موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٧، وكذا محمد بيومي مهران: إسرائيل، جـ ١، ص.

آرام مرة أخرى حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م. في وثائق درهم التجارية، وأشارت إليها على أساس أنها بالقرب من أشنونا (تل الأسمر الآن)[١].

ولقد تمكنت بعض الجماعات الآرامية من اجتياح قسم كبير من شمال سورية ووسطها وجنوبها خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وبلغ الآراميون أقصى أهميتهم السياسية في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد وتمكنوا خلال هذه الفترة من تأسيس عدد من الدول الآرامية على حساب الأشوريين ومن هذه الدويلات التي أسسوها في الجزء الشمالي من بلاد النهرين: بيت أديني Bit Adini التي كان مركزها تل برسب Til Barsib (حالياً تل الأحمر على الفرات الأعلى) ودولة بيت بخيان Bit Bakhyani التي كان مركزها جوزابا (تل حلف).

كما توغلت جماعات من الآراميين في الجزئين الأوسط والجنوبي من أرض الرافدين حيث تمكنت من تأسيس بعض الدويلات الصغيرة مثل دولة بيت يكين Bit Yakini [٢].

وتمكن الآراميون من تأسيس العديد من دويلات المدن الصغيرة في سورية وشرق الأردن، ومن هذه الدويلات، دويلة بيت أجوش Bit Agushi حول حلب.

وكانت من أهم الدول التي أسسها الآراميون مملكة دمشق التي تأسست في أواخر القرن الحادي عشر ق. م، وتطورت حتى أصبحت مملكة كبرى تمتد إلى الفرات من جهة وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة للأراضي الأشورية في الشمال والعبرانية في الجنوب.

إلا أنه يلاحظ أن قوة توسع الآراميين لم تصحبها القدرة على تنظيم

---

(١) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٦.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٧٧.

فتوحاتهم، فلم بنشيء الآراميون أبداً وحدة سياسية فعالة، وكان العامل الأساسي في ضعفهم إنقسامهم إلى ممالك صغيرة، مع كثرة الأجناس المتباينة التي اختلطوا بها.

وببداية عهد الأمبراطورية الأشورية الأولى، نجد الملوك الأشوريين يعملون على إجلاء الآراميين عن أرض الرافدين، وتوضح الوثائق العراقية قيام ملوك آشور بهذا العمل منذ القرن التاسع قبل الميلاد، ومن أول هؤلاء الملك «أدد - نيراري الثاني» (٩١٣ - ٨٩٠ ق. م)، الذي تمكن من استرجاع الأشراف الفعل لدولته على تخومها الغربية حول نهري الخابور والفرات، وأشعر أهل هذه التخوم والآراميين بسلطانه، وذلك بعد أن وجه سبع حملات إلى منطقة خان جلبات Khani Galbat وعاصمتها نصيبين حيث تمكن من استرجاعها ولاية أشورية.

وسار ابنه «توكلتي ننورتا الثاني» (٨٩٠ - ٨٨٤ ق. م) على سياسته تجاه الآراميين فقام بعدة حملات ضدهم في وسط العراق وغربها[1]. وقام حفيده شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق. م) في العام السادس من حكمه بمهاجمة دمشق أكبر الإمارات الآرامية الغربية، حيث وقعت موقعة قرقر (قرقارة) الشهيرة، والتي انضم فيها إلى إمارة دمشق إثني عشر ملكاً، وتصف نصوص شلمنصر هذه المعركة، فتذكر على لسان شلمنصر: -

«للخصم ١٢٠٠ مركبة، ١٢٠٠ فارساً، ٢٠ ألف من المشاة من قبل (حدد عزر) الدمشقي، وكذلك ٧٠٠ عجلة، ٧٠٠ من الفرسان، ١٠ آلاف من المشاة من (أرخولين) صاحب حماة، وكذلك ألفين من العجلات، وعشرة آلاف من المشاة من قبل أخاب الإسرائيلي، وكذلك ٥٠٠ جندي من «تي»

(١) Smith, S. M. A., «The Foundation of the Assyrian Empire», In C. A. H., vol. III, Cambridge, 1965, PP. 9 - 10.

وألف جندي من «موصري»، وكذا عشرة آلاف جندي من أرقناتا، وكذا ٢٠٠ جندي من «متينو بعلو» الأروادي، وكذا ٢٠٠ من أوزاناتا، وكذا ٣٠ عربة وعشرة آلاف جندي من «أدونو بعلو» آل «شياني». وألف راكب جمل من «جنديبو» من بلاد العرب. . . وعدتهم إثني عشر ملكاً دخلوا ضدي في معركة حاسمة وحاربتهم بعون آشور وقوى آشور التي أمدني بها وأسلحة ترجال قائدي الذي أهداني إياها وأوقعت بهم الهزيمة بين مدن قرقارة وجلزوار وذبحت أربعة عشرة ألفاً من جنودهم واجتحتهم كسيول «أدد» حيث يبعث بها ونثرت جثثهم في كل مكان وملأت السهل كله بجندهم الفارين، وقد جعلت دماؤهم تسيل خلال المعركة في «خور بالو» في تلك الناحية وكان السهل أصغر من أن يجعل كل أرواحهم تنزل إلى العالم السفلي، وأما ساحة الوغى فقد ضاقت عن أن يدفنوا بها، وعبرت الأورنت فوق جثثهم قبل أن يكون هناك معبر بل إنني خلال المعركة أخذت منهم عرباتهم وخيولهم المدجنة».

ورغم ذلك فإنه يبدو من شواهد الأحوال أن هذا النصر لم يكن حاسماً، إذ لم يتمكن شلمنصر الثالث من الاستيلاء على دمشق، ولقد تم ذلك في عهد تجلات بلاسر الثالث عام ٧٣٢ ق. م. الذي قام بنقل أهلها إلى مناطق أخرى وبذلك قضى على المملكة الآرامية فيها ثم عين بها حاكماً أشورياً.

واستمر الآراميون كشعب، بعد أن قضت الدول الكبرى عليهم ككيان سياسي، وبقيت لغتهم بعد سقوط دويلاتهم من غير أن تتأثر باللغات الأخرى، وانتشرت هذه اللغة في دول الشرق الأدنى القديم، وربما يرجع سبب انتشار اللغة الآرامية أنها كانت لغة التجار الآراميين الرحل.

فكانت القوافل التجارية الآرامية تتجه إلى جميع مناطق الهلال الخصيب وحتى منابع الدجلة في الشمال، وكانوا يحتكرون تجارة سورية الداخلية. ونشر التجار الآراميون لغتهم في مختلف البلدان، وهي فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية، وفي حوالي عام ٥٠٠ ق. م.

أصبحت الآرامية اللغة التي يتسعملها سكان منطقة الهلال الخصيب كله، وفي عهد الملك الفارسي داريوش الأول أصبحت الآرامية اللغة الرسمية بين مقاطعات الأمبراطورية الفارسية.

العبرانيون

يمثل العبرانيون الشعب السامي الرابع الرئيسي الذي سكن سورية بعد الأموريين والكنعانيين والآراميين، ويرجح أن دخول العبرانيين إلى كنعان كان في هجرات متتالية وليس هجرة واحدة، وكان الكنعانيون يشكلون معظم السكان عندما جاءت هذه الهجرات، وقد لاءم القادمون الجدد، وهم من البدو، بين أنفسهم وبين بيئتهم الجديدة شيئاً فشيئاً، وانتقلوا من حياتهم القديمة إلى الحياة الزراعية المستقرة، وقد استوطنوا مدناً معينة، ولكنهم كانوا يقيمون بصفة خاصة في المناطق الريفية، وكانت تضم أراضي كثيرة لم يفتحوها بعد[1]. وقد ترك العبرانيون لهجتهم السامية القديمة واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم.

وبالنسبة لوجود العبرانيين في سورية فتشير الروايات العبرانية إلى أن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ جدهم الأكبر قد أتى من أور في بلاد الرافدين بطريق حمران وأقام مؤقتاً قرب حبرون (الخليل) حيث تناسل أبناؤه، وكان من نسلهم يعقوب عليه السلام الذي كان من بين أبنائه يوسف عليه السلام الذي أقام في مصر وارتفع شأنه بها ولحق إخوته به، وبعد حين من الزمن عاد ورثتهم مرة أخرى إلى فلسطين تحت قيادة موسى عليه السلام.

وتعددت آراء المؤرخين حول خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى عليه السلام، وإن كان يرجح أن يكون الخروج قد تم في عهد الفرعون مرنبتاح بن رعمسيس الثاني (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ق. م)[2].

وعند منتصف القرن الثالث عشر ق. م، حاول العبرانيون احتلال

---

(١) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٢) حول النظريات المتعددة الخاصة بخروج بني إسرائيل من مصر، أنظر محمد بيومي مهران: إسرائيل، جـ ١، ص.

الأراضي الخصبة من بادية شرق الأردن، وتجنب العبرانيون في تلك المرحلة الاصطدام بممالك أدوم ومؤاب وعمون التي تقع إلى جنوبي البحر الميت وشرقيه وشماله الشرق.

وبدأ العبرانيون يمدون سيطرتهم على المدن الكنعانية مثل عاي وأريحا وغيرها واستطاعوا توسيع ممتلكاتهم إما بطريق الفتح أو المعاهدات أو الامتصاص التدريجي وعندما سيطر العبرانيون على البلاد كانوا يقسمونها بين القبائل الإحدى عشرة وتركوا قبيلة لاوي الكهنونية موزعة بين سائر القبائل لتهتم بشئونها الدينية، وهكذا سكنت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الأراضي المرتفعة حول أورشليم بينما استقرت القبائل الأخرى في السهول الأكثر خصباً في الشمال[1].

وشغلت فترة الاستيطان حتى قرب نهاية القرن الحادي عشر ق. م، وهي تقابل ما يسمى بعصر القضاة، وهم الذين قادوا العبرانيين ضد أعدائهم وهم الذين كانوا يوجهونهم في أوقات الشدة. وفي تلك الفترة استقر الفلسطينيون وهم إحدى مجموعات شعوب البحر الذين هاجموا منطقة الشرق الأدنى القديم وتمكن فرعون مصر رعمسيس الثالث من هزيمتهم ودحرهم - على الساحل الجنوبي لسورية الذي صار يطلق عليه Philistia ، وامتد نفوذهم من غزة حتى جنوبي يافا وقد توسعوا من المنطقة الساحلية إلى الداخل واستولوا على عدد من المدن الكنعانية ونظموا مدنهم بشكل ممالك مدن، ولكنها جميعاً كانت تشكل اتحاداً، ويبدو أن السيادة فيه كانت لمدينة أشدود. وتمكن الفسطينيون من هزيمة العبرانيين والتضييق عليهم.

وبدأ العبرانيون في مقاومة الفلسطينيين، وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى تأسيس المملكة العبرانية، وكان نظام الملكية مقتبس من

(١) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ١٩٥.

الدول المجاورة لهم غير أنه اختلف عنهم في بقاء التنظيم القبلي من الناحية الإدارية وأن الملك كان عليه أن يحكم حسب أوامر يهوه.

ويعتبر داود عليه السلام (حوالي ١٠٠٤ - ٩٦٣ ق. م) المؤسس الحقيقي للملكة العبرانية، إذ وصلت حدود الدولة في عهده حتى حماة وخضعت أدوم ومؤاب وعمون له، وسيطرت دولته على الطريق التجاري العظيم بين سورية والجزيرة العربية، وشيد عاصمته في حصن أورشليم اليبوسي، وهي تقع خارج المراكز القبلية الأصلية على الحدود بين القسم الشمالي والجنوبي للملكة تقريباً وتسيطر على الطريق الداخلي الذي يتجه شمالاً وجنوباً في القسم المرتفع الواقع غربي وادي الأردن. وشيد في هذه العاصمة قصره الذي استعان في بنائه بخشب الأرز من لبنان وبمعماريين ونجارين من مدينة صور الفينيقية والتي كانت على علاقة صداقة مع العبرانيين في هذه المرحلة.

وجاء بعد داود ابنه سليمان عليهما السلام (حوالي ٩٦٣ - ٩٢٣ ق. م) ويتميز عهده بكثرة التشييدات المعمارية وبما وصل إليه مملكة العبرانيين في عده من مظاهر حضارية.

ومن أهم تشييداته المعمارية، قصره، الذي شيده معماريون فينيقيون واستغرق بناؤه ثلاث عشرة سنة، واستخدمت أخشاب الأرز بكثرة فيه وبخاصة الجناح الملكي حتى أطلق عليه «بيت غابة لبنان».

وشيد بجوار القصر هيكله، الذي استغرق بناؤه سبع سنوات، ويلاحظ أن زخارف الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة، كما أقام التحصينات والثكنات والعنابر والإصطبلات.

---

(١) سفر الملوك الأول ٧ : ٢.

وقد عمل بمساعدة الفينيقيين على تكوين أسطول بحري يعمل في البحر الأحمر، وكانت قاعدة الأسطول في عصيون جابر[1] على رأس خليج العقبة، وكان الهدف الرئيسي استيراد البخور والعاج والذهب والأحجار الكريمة.

وبعد موت سليمان عليه السلام انقسمت المملكة بين ابنه رحبعام الذي كان تحت لوائه قبيلتا يهوذا وبنيامين وشكلتا مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم، وبين يربعام من قبيلة أفرايم وكان تحت لوائه عشر قبائل، وشكلت مملكة إسرائيل التي كانت عاصمتها في شكيم ثم ترزة ثم السامرة.

ومن أشهر ملوك إسرائيل الأوائل عمري (حوالي ٨٨٥ ـ ٨٧٤ ق. م) الذي نقل مركز الحكم إلى السامرة، وبنى فيها قصراً للحكم يطلق عليه ببيت العاج[2] وكان جانباً كبيراً من القصر مكسواً بالذهب، ولقد اشترك خليفته آخاب (حوالي ٨٧٤ ـ ٨٥٢ ق. م) كحليف لمملكة دمشق في معركة قرقر ضد الأشوريين، وكان لزواجه من إيزابيل ابنة ملك صور آثاره الكبيرة على أسرة عمري، إذ حاولت هذه السيدة فرض عبادة بعل صور على إسرائيل، وأدى ذلك إلى نزاع مرير وطويل للسيادة على حياة إسرائيل الدينية بين عبادة البعل وعبادة يهوه[3].

وانتهى الأمر بزوال أسرة عمري، واستولى على الحكم ياهو عام ٨٤٢ ق. م، وهو يظهر في نصوص شلمنصر الثالث وهو يقدم الجزية للملك الأشوري، وهي تتكون من أواني من الفضة والذهب والرصاص.

وفي عهد الملك يربعام الثاني وهو الملك الثالث من سلالة ياهو تمكن

---

(١) Nelson, G., «The First Campaign at Tell - el - Kheleifeh», In B. A. S. O. R., No. 72 (1938), PP. 3 - 18.

(٢) Crow Foot, J. W., and Grace, M., Early Ivories From Samaria, London, 1938, PP. 1 - 6.

(٣) فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٢٠٩ ـ ٢١١.

من توسيع حدوده الشمالية على حساب الآراميين، كما أعاد تحصين السامرة، إلا أنه في عهد الملك الأشوري تجلات بلاسر الثالث تمكن من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من مملكته، وأصبحت تابعة للعاهل الأشوري، تدفع له الجزية. وبعد ذلك سقطت المدينة في عهد الملك الأشوري سرجون الثاني الذي سبى أفضل رجالها ونقلهم إلى ميديا وبذلك تلاشت مملكة إسرائيل إلى الأبد.

وفيما يتصل بمملكة يهوذا، فقد جلس على عرش يهوذا عدداً من الملوك يشبه عدد ملوك إسرائيل، غير أنها تتميز عنها في أنها استمرت في الوجود بعد أنتهاء دولة إسرائيل بأكثر من مائة عام.

ولقد هاجم الفرعون المصري شيشنق (حوالي عام ٩٢٠ ق. م)، مملكة يهوذا حيث أخذ الكثير من الغنائم منها، ومن أشهر ملوك مملكة يهوذا الملك عزيا (عزريا) الذي أعاد تنظيم الجيش وأصلح حصون أوشليم، كما نشطت الزراعة في عهده.

وبعد سقوط دولة إسرائيل، أصبحت يهوذا أكثر تعرضاً للهجمات المباشرة من جانب الأشوريين، وفي عهد الملك الأشوري سنحريب حاصر أورشليم وخرب مناطق الريف المحيطة بها واضطرت يهوذا إلى دفع الجزية للأشوريين ، ولكن في عهد ملكها يوشيا توسعت مملكة يهوذا نحو الشمال وحاولت إعادة توحيد إسرائيل مع يهوذا، ولكنه مات في حربه مع الفرعون المصري نيكاو الذي حاول إسترجاع الأمبراطورية المصرية في آسيا (حوالي عام ٦٠٨ ق. م).

وفي عهد الملك البابلي نبوخذ نصر، دخل جيشه أورشليم عام ٥٩٧ ق. م، حيث أسر الملك اليهودي يهويا قيم وقيد بالسلاسل حيث لقي حتفه، ورميت جثته خارج أبواب أورشليم، وبعده تم أسر ابنه مع نسائه وأمه

وموظفيه حيث أرسلوا إلى بابل، وبعد ذلك استمرت مملكة يهوذا تتبع بـابل أو تتـظاهر بـالولاء لهـا مع وجـود بعض مظاهـر التمرد، ولكـن كـان ملوك بـابـل يخضعـونها بقسوة بالغة إلى أن انتهى الأمر بتبعيتهـا مع بقيـة أنحاء سـورية في أيدي الكلدانيين.

الإختصارات

- Acta, Arch = Acta Archaeologica.
- A. J. A. = American Journal of Archaeology.
- A. J. S. L. = American Journal of Semitic Languages and Literatures.
- A. N. E. T. = Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.
- A. R. E. = Ancient Records of Egypt (by J. H. Breasted, 5 vols).
- A. S. A. E. = Annales du Service des Antiquites de L'Egypte.
- C. A. H. = Cambridge Ancient History.
- J. E. A. = Journal of Egyptian Archaeology.
- J. N. E. S. = Journal of Near Eastern Studies.
- J. S. S. = Journal of Semitic Studies.
- R. A. = Revue D'Assyriologie et D'Archéologie Orientale.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- أحمد أمين سليم: دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة أثناء عصر الأسرتين الأولى والثانية (رسالة ماجستير)، الاسكندرية ١٩٧٧.
- أحمد أمين سليم: دراسة تاريخية لنشأة الأسرة الثالثة وتطورها السياسي والحضاري، (رسالة دكتوراه)، الاسكندرية ١٩٨١ م.
- أحمد أمين سليم: دراسة في تاريخ إيران القديمة وحضارتها، ط ١: إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، بيروت ١٩٨٨ م.
- أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق وإيران، بيروت ١٩٨٨ م.
- أحمد بدوي: هيردوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٦٦ م.
- أحمد فخري: الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣ م.
- أحمد فخري: مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١ م.
- أحمد محمود صابون: حور محب (رسالة ماجستير) الاسكندرية ١٩٨٠ م.
- جبرائيل سعادة: رأس الشمرة ـ أوجاريت، اللاذقية ١٩٦٨ م.
- حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، الاسكندرية ١٩٧١ م.
- رشيد الناضوري: أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، الاسكندرية ١٩٦٨.
- رشيد الناضوري: المغرب الكبير، ص بيروت ١٩٨١ م.
- رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري

والسياسي في جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨.
- سليم حسن: مصر القديمة، جـ ٤، عهد الهكسوس وتأسيس الأمبراطورية، القاهرة ١٩٤٨.
- سيد الناصري: الإغريق، تاريخهم وحضارتهم، القاهرة ١٩٨١ م.
- عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٠ م.
- محمد إبراهيم بكر: تاريخ السودان القديم، القاهرة ١٩٧١ م.
- محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر، بيروت ١٩٨١ م.
- محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، بيروت ١٩٨١ م.
- محمد أنور شكري: العمارة في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٠ م.
- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى، (رسالة ماجستير)، الاسكندرية ١٩٦٦.
- محمد بيومي مهران: الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي، الرياض ١٩٧٤ م.
- محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، الاسكندرية، ١٩٧٦ م.
- محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، إسرائيل، ط ٢، الاسكندرية ١٩٧٨ م.
- محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، أخناتون، عصره ودعوته، الاسكندرية ١٩٧٦ م..

- محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط ١، مصر، الكتاب الأول، التاريخ، الاسكندرية ١٩٨٢ م.
- محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ ٢، مصر، الكتاب الثاني، التاريخ، الاسكندرية ١٩٨٤ م.
- محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ المدن الفينيقية، الاسكندرية ١٩٨٨ م.
- محمد عبد القادر محمد: الساميون في العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨ م.
- نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، جـ ٣، سورية، القاهرة ١٩٦٤ م.
- نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، جـ ١، الاسكندرية ١٩٦٥ م.
- وهيب كامل: ديودور في مصر، القاهرة ١٩٤٧ م.

ثانياً: المراجع المترجمة

- بلوتارخوس: إيزيس وأوزيريس، ترجمة حسن صبحي البكري ومراجعة محمد صقر خفاجة، القاهرة ١٩٥٨ م.
- سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر، وراجعه محمد القصاص، القاهرة ١٩٦٨.
- فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ١، ترجمه جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٨٢.
- والتر. ب. إمري: مصر في العصر العتيق (الأسرتان الأولى والثانية)، ترجمه راشد محمد نوير ومحمد علي كمال الدين، مراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٧.
- هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمه محمد صقر خفاجة ومراجعة أحمد بدوي، القاهرة ١٩٦٦.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- Albrigth, W. F., The Role of the Canaanites in the History of Civilization, Studies in the history of Culture 1942.
- Arkel, J., Was King Scorpion Menes, in: Antiwuity 37.
- Arkell, A. J., Varia Sudanica, in: J E A 36 (1950).
- Barguet, P., La Stele de la Famine a Sahel, Cairo 1953.
- Barsanti A., Foilles de Zaouiet - el - Aryan, in: ASAE 7 (1906); ASAE 8 (1907); ASAE 12 (1912).
- Barsanti, A., Ouverture de la Pyramide de Zaouiet - el - Aryan, in: ASAE 11 (1901).
- Barton, G. A., The Royal Inscriptions of Summer and AKK, New - Haven 1929.
- Blackman, A. M., in: JEA 22 (1936).
- Bonfante, G., The Name of the Phoenicians, in: Classical Philology 36 (1941).
- Bottero, J., Syria Before 2000 B - C, in: C A H vol. I Part 11, Cambridge 1971.
- Breasted, J. H., Ancient Times, N. Y. 1916.
- Breasted, J. H., Ancient Records of Egypt, vol. I, 1927.

- Breasted, J. H., The Daunof Conscience, New York 1933.
- Brower, M. S., Syria Before 2200 B - C., in: C A H col. I, Part 1.
- Budge, W., The Tell - EL - Amarna Tabets in the British Museum, London 1892.
- Budge, E. A. W., The Book of the Kings, I, London 1908.
- Bury, T. B., The Ancient Greek Historinas, New York 1958.
- Gerny, J., Ancient Egyptian Religion, London 1962.
- Clark, J. ،G. D., Primitive Man in Mesolithique Timesù in: C A H Vol. I, Part 1, Cambridge 1970.
- Clay, A. T., Amurry, the home of the northern Semities, 1909.
- Crow Foot, J. W. and Grace, M., Early Ivories from Samaria, London 1938.
- Dossin, G., Les Archives epistolaires du Palais de Mari, in: Syria 19 (1938), 20 (1939).
- Dunand, M., Fouilles de Byblos, I, 1926 - 32, Paris 1939.
- Dunand, M., Chronologie des Plus anciennes installations de Byblos, in: Rev. bibi., 57 (1950); in: Rev. bibi., 51 (1950).
- Edgerton, W. F. and Wilson, J. A., Historical Ramsses III, Chicago 1936.
- Edwards, I. E. S., In Cambridge Ancient History, Vol. I, Part II 1971.
- Eduards, I. E. S., The Pyramids of Egypt, 1965.
- Emery, W. B., Great Tombs of the Earliest Dynasties, Vol. II, London 1901.
- Emery, W. B., Hor Aha, Cairo 1939.

- Emery, W. B., Archaic Egypt, 1963.
- Engelbach, R., The Advent of the dynasty Race, in: A S A E 13 (1943).
- Erman, A., The literature of the Ancient Egyptians, London 1927.
- Faulk,er, R., in: J E A 33 (1947).
- Fisher, W. B., The Middle East, London 1948.
- Frankfort, H., The Birth of Civilization in the Near East, London 1951.
- Fraser, G., Acatalogue of the Scarabs to G. Fraser, London 1900.
- Gadd, G. J., Baby Lonia C 2120 - 1800 B. C., in: C A H Vol. I, Part 11.
- Gadd, G. J. and Legrain, L., Royal Inscription, London 1928.
- Garrod, D. A. E., The Natufian Culture = The Life and Economy of a Mesolithic People in the Near East, in: Proc - Acad 43 (1957).
- Garrod, D. A. E., and Bate, D. M. A., The Stone Age of Mount Carmel, Vol. I Oxford 1937.
- Gardiner, A. H., The Admontions of an Egyptian Sage, Leipzig 1909.
- Gardiner, A. H., Peet, T., Gerny, J., The Inscriptions of Sinai, Vol. I, London 1952.
- Gardiner, A. H., The Royal Canon of Turin, Oxford 1959.
- Gardiner, A. H., Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964.
- Garstang, J., Sethe, K., Mahsna and Bet Kallaf, London 1903.
- Chrishman, R., Iran from the Earliest Times To the Islamic Con-

quest Translated from Frenchby margared Mumrankin, (Pdican book) London 1978.
- Ghoneim, M. Z., The Buried Phyramid, London 1956.
- Hall, H. R., The Ancient History of the Near East, London 1963.
- Harder, D., The Phoenicians, London 1963.
- Hayes, W. C., in: J E A 33 (1947).
- Howell, F. C., Uper Pleistacene Men of the Southwest Asian Mousterian, in Hundert Jahre Neander taller, ed - G - R. Von Koenigswald, Utrecht 1958.
- Hurry, J. B., Imhothep; the Vizier and Physician of King Zoser, Oxford 1928.
- Jacobsen, T., The Sumerin King - List, Chicago 1939.
- Josient, T., La Faune Chalcolithique des gisements de Bires - Safadi et Bir Abu Matar, in: I E J 5 (1955).
- Kees, H., Ancient Egypt, London 1961.
- Kenyon, K., Earliest Jericho, in: Antiq 33 (1959).
- King, L. W., History of Sumer and Akkad, London 1923.
- Kitchen, K. A., The third Inter mediate Period in Egypt, Oxford 1973.
- Koeppel, R., Teleilet Ghassul, II (1932 - 1936), Rome 1940.
- Mallon, A., Koeppel, R., and Neuville, R., Teleilet Gassul, I, Rome, 1934.
- Mallowan, M., The Development of Citites from AL - Wbaid to the end of Uruk, in: C A H Vol. I, Part 1.

- Mellaart, J., The Earliest in Western Asia from Ninth ti the end of the fifth Millennium B. C., in: C A H Vol. I, Part 1.
- Mercer, S. A. B., The Tell - EL - Amarna Tablets, Toronto 1939.
- Meyers, J. L., in: The Cambridge Ancient History, I, 1923.
- Montet, P., Notes et documents pour Servir a L'histoire des Relations entre L'ancienne Egypte et La Syrie, in: Kemi I (1928).
- Montet, P., Byblos ey L'Egypte, Paris 1928.
- Le Morgan, J., Ethnographic Prehistorique et Tombeau Royal de Negada, Paris 1897.
- Naville, E., The temle of Weiu el - Bahari, Vol. II, 1896.
Vol. III.
- Negbi, M., The Botanical finds at tell Abu - Matar Near Beer Shebe, in: I E J 5 (1955).
- Nelson, G., The First Campaign at Tell El - Kheleifeh, in: B A S O R, Nr. 72 (1938).
- Nelson, H., The Battle of Megioddo, Chicago 1913.
- Neuville, R., Le Paleolithique et le Mesolithique, du Desert de Judee, Mem 24, Paris 1951.
- North, R., Ghassul 1960 Ecavations Report, Rome 1961.
- Obermann, J., New Discoveries at Kara Teppe, New - Haven 1949.
- Oppenheim, L., in: ANET.
- Parrot, A., Les Peintures du Palais de Mari, in: Syria 18 (1937), 19 (1938), 20 (1938).
- Perrot, J., Apropos du Ghassoulien, in: Syria 29 (1952).

- Perrot, J., Excavations at Eynan (Ein Mallaha), in: I E J 10 (1960).
I d. Eynan (Ain Mallaha), in: bibl 69 (1962).
- Petrie, W. F., The Royal Tombs of the First Dynasty, Vol. I, London 1900. Vol. II.
- Petrie, W. F., The Royal Tombs, London 1902.
- Philby, H. B., The Back ground of Islam, Alexandrai 1947.
- Pliny, Natural History, Book V, ch. 17.
- Quibell, J. E. and Green, F. W., Hierakonpolis, Vol. II, London 1902. Vol. I, London 1900.
- Redford, D. B., History and Chronology of the Erhcenth Dynasty of Egypt, 1967.
- Semple, E. C., The Geography of the Mediterranan Region, London 1932.
- Sethe - K., Helck - W., Urkunden der 18 Dynastie, Leipzig 1907., Berlin 1955 - 61.
- Shaffer, C. F. A., Ugaritica, 1 - I I I, Paris 1939 - 56.
- Smith, S. M. A., The Foundation of the Assyrian Empire, in: C A H Vol - I I I Cambridge 1965.
- Smith, W. S., The Art and Architecture of Ancient Egypt, Harmondsurorth 1965.
- Stekelis, M., The Implementi Ferous Beds of the Jordon Vally, 4 th International Congress of the Protohistoric Studies, Madrid 1954, F F., Zaragoza 1956.
- Swingle, W. T., Trees and Ilants We Owe to Asia, in: X L III (1943).

- Turville - Peter, F. and Keith, A., Researches in Prehistorie Galilee, 1925 - 26, and a Report on the Galilee Skull, London 1927.
- De Vaux, R., Palestine During the Neolithic and Chalcolithic Periods, in: C A C I, Part 1.
- Vercouter, J., in The Near East the Early Civilizations, London 1967.
- Ward, W. A., Relations between Egypt and the eastern Mediterr anean from Prehistoric Times to the end of the Middle Kingdom, in: J E S H O 6 (1962).
- Wilson, J. A., The Culture of Ancient Egypt Chicago 1963.
- Wilson, J., The Tradition of Seven Lean Year in Egypt, in: A N E T (1966).
- Wood, B. R. J., Mounds in the Plain of Antioch, Chicago 1937.
Ibid., Chicago 1960.

فهرس

قائمة الأشكال

محتويات الكتاب

